سلسلة تراث كربلاء الثقافي (١٠)

الوعي الإسلامي

حسن المهدي الشيرازي

قامت بإعادة طبعه
شعبة التراث الثقافي والديني
في قسم الشؤون الفكرية والثقافية
في العتبة الحسينية المقدسة

١٥٩

الوعي الإسلامي

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد لسنة ٢٠١٤ - ٢١٢٥

مصدر الفهرسة: IQ-KaPLI ara IQ-KaPLI rda

رقم تصنيف LC: BP 230.2.H83 2015

المؤلف الشخصي: الحسيني الشيرازي، حسن المهدي، ١٣٥٤ ١٣٩٩هـ

العنوان: الوعي الاسلامي

بيان المسؤولية: الوعي الإسلامي: الاقتصاد / تأليف السيد حسن المهدي الشيرازي

بيانات الطبعة: الطبعة الثانية

بيانات النشر: كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة قسم الشؤون الفكرية والثقافية شعبة التراث الثقافي والديني، ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م

الوصف المادي: [٣٢١] صفحة

سلسلة النشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية - شعبة التراث الثقافي والديني)

تبصرة ببليوغرافية: يحتوي على هوامش لائحة مصادر (الصفحات ٣١٩ ٣٢٠)

مصطلح موضوعي: الاسلام والاقتصاد

مصطلح موضوعي: الاقتصاد الاسلامي

مصطلح موضوعي: الاسلام دفع مطاعن

مصطلح موضوعي: الاسلام والاجتماع

تمت الفهرسة قبل النشر في مكتبة العتبة الحسينية المقدسة

قامت بإعادة طبعه
شعبة التراث الثقافي والديني
في قسم الشؤون الفكرية والثقافية
في العتبة الحسينية المقدسة

التعريف بشعبة التراث الثقافي والديني

عاشت مدينة كربلاء المقدسة حالة من الإهمال الشديد والمتعمد من قبل الأنظمة التي مرت على تاريخ العراق مما أدى الى ضياع الكثير من الآثار والمخطوطات المهمة وفي الوقت نفسه كان هناك توجهاً الى نبذ القديم وتركه والتوجه نحو التجديد والحداثة مع نسيان بأنه لا نتيجة للحديث دون الانتباه الى أهمية القديم بالإضافة الى خطورة التمييز بين الحداثة وضياع الهوية وهي المصيبة التي وقع بها مجتمعنا وأمتنا، من ذلك العكاز الغريب حتى ينجدل على الأرض العراء لاصقاً بها لا هو من الأموات ولا من الأحياء.

وبعض الناس اليوم يطالبون بالتحرر ولكن على هدي الأجنبي، وبالتقدم وبقدمي الأجنبي أيضاً، وهذا مَحق للذات ووأد للصفات وهدر للكرامات فعلى الأمة أن تبدأ تقدمها من حيث انتهى أوائلها وتنظر في صحيفة ماضيها للتعرف على مواريثها ثم تأخذ منها قوة الدفع لحاضرها، ولا تجعل من تلك المواريث قيوداً تعيق تقدمها، إذ ليس كل ما يدخل تحت هذا المفهوم يفيد في التطور والتقدم، فلابد من الانتقاء واختيار ما ينفع وترك ما لا ينفع فيه للاعتبار على أن يبقى في حوزة الأمة ماتستفيد منه أيضاً بتلمّس الخطأ فيه لتجنّبها في مستقبل أيامها.

ونتيجة لهذا فقد تأسستشعبة التراث الثقافي والديني، وذلك من خلال البدء بعملية إحياء تراث المجلات والدوريات والنشرات والكتب التي كانت تصدر في تلك الفترة، لأن الغرض على المستوى البعيد ليس إحياء التراث الثقافي فحسب، بل هي محاولة نشر الآثار التي اندثرت في مدينة كربلاء على مرّ السنين والتي باتت الحاجة ماسة الى احيائها في يومنا هذا، لأنها تعكس مدى التطور العلمي والثقافي لتلك المدينة وأثرها في نشر الوعي في تلك المنطقة. فالمشروع وكما ذكرنا لا يشمل فقط طبع المخطوطات بل يضم

إعادة طبع المطبوعات القديمة لمؤلفات علماء وأدباء ومثقفين وغيرهم ليشمل أساتذتهم وتلاميذهم من العلماء حيث ان تلك الفترة كانت تمثل العصر الذهبي لمدرسة كربلاء العلمية، عصر ازدهار الدراسة والبحث العلمي وعصر تخريج فحول وأساطين المذهب.

وقد تجلى عمق الخسارة بفقدان الكم الهائل من الآثار العلمية والكتب المهمة بعد سقوط الصنم حيث كان حرق وسرقة المكتبات الشغل الشاغل للنظام البائد وزمرته ونتيجة لذلك فقد ضاعت الكثير من المخطوطات والمؤلفات المهمة ليس من مكتبات كربلاء فحسب بل من مكتبات العراق بصورة عامة وعلى أثر ذلك تم التوجه من قبل الامانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة والمتمثلة بسماحة الامين العام للعتبة الحسينية المقدسة الشيخ عبدالمهدي الكربلائي(دام عزه) وبدعم من مسؤول قسم الشؤون الفكرية والثقافية الشيخ علي الفتلاوي (دام توفيقه) الى محاولة طبع وتنقيح ما تبقى من تلك الكتب أو على الأقل توثيقها من خلال جمع وتجليد ما يمكن العثور عليه وحفظه في مكتبة العتبة الحسينية المقدسة، سواء في مدينة النجف الأشرف أم في مدينة قم المقدسة او في باقي البلدان العربية والاجنبية.

وان ما لا يدرك كله لا يترك جله والمشروع ضخم ،اننا آملين المساعدة ممن يتمكن من ذلك، والتوفيق والتسديد من المولى جل وعلا إنه نعم المولى ونعم النصير.

احسان خضير عباس

شعبة التراث الثقافي والديني

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

المبدأ – الذي ينبثق منه نظام وعقيدة واجتماع – هو مقياس عظمة الشعب وحضارته وثروته الفكرية والمادية ومدى خلوده ومقاومته للشعوب المناوئة له.. والمبدأ هو شارة الانتصار او الفشل في كل ميدان والمبدأ اعظم ثروة يرثها الجيل من ابائه، ويخلفه لابنائه.

اما الحضارة والثروة المادية والعلمية، فانها تتبع المبدأ في تكونها وبقائها على تقدير وجودها قبل ذلك.

فالامة التي لها مبدأ صحيح – تسير على ضوئه – تستطيع ان تحتفظ بما لديهامن حضارة وثروة.. ! حتى ولو اتفقت الظروف المعاكسة ان تعصف بها وتبدد ثروتها، وتدمر حضارتها وتقوض كيانها من القواعد وتكتسح كل غال ورخيص، فسرعان ما تستعيد قواها المسلوبة وتلملم نشاطها المنهوب بتوجيه من ذلك المبدأ – لتجدد كيانها، وتهتدي الى حضارتها مرة اخرى فتعود الى مقرها الآمن الوديع حتى ولو ابتدأت الامة بلا حضارة، ولا ثروة مادية أو علمية، فمن الهين عليها – بقيادة المبدأ الصحيح – ان تكوّن الحضارة والثروة وكل شيء وأن تتخذ البرامج – التي تساعده على التوسعة والاخضاع، واصهار الشعوب

الاخرى في بوتقتها بكل سهولة وبساطة.

كما ان الامة الاسلامية في ابتداء بعثة الرسول الاعظم لم تكن تملك حضارة ولا ثروة ولكنها حيث سارت على خطط الاسلام والقرآن حكمت في ربع المعمورة وانشأت الحضارة والثروة الهائلتين.

اما الامم التي تدين بمبدأ فاسد فإنها وان سنحت لها الظروف المؤاتية وفراغ الميدان ان تملك الحضارة والثروة، وتصل الى الاكتشافات العلمية والمخترعات الصناعية.. لكنها ستنتهي في اشواطها الى حروب طاحنة تخسر فيها كل شيء حتى شخصيتها وكيانها.

والتاريخ يحدثنا: ان (الفراعنة) رغم حضارتهم وثرواتهم الزاخرة كيف اندحروا امام النبي العظيم موسى بن عمران وهو يشرح لنا انهزام (بني اسرائيل) تجاه الرسول الاقدس عيسى بن مريم...

ويبين لنا ان (الفرس) و(الروم) وما شيّدوها من حضارة وثروة كانت تلفظ انفاسها الاخيرة في نفس المجازر الشاسعة التي ارصدتها للوقوف في طريق ثورة النبي الاعظمﷺ.. كما يحدثنا عن فشل المغول و(اللويسيين)و(النازيين) وغيرهم من الذين حفل بهم التاريخ وازدهرت الحضارة في وجوههم وزحفت الثروات من اكناف العالم كي تتكدس بين ايديهم.. فلم تغن حضارتهم واموالهم وشعوبهم من واقع الحياة شيئاً..

وذهب مصيرهم الباكر عبرة الاجيال.. حيث لم يكن لهم مبدأ صحيح يسيّرهم وفق نظام يضمن لهم البقاء والخلود.

أما الاشتراكية، والرأسمالية الديمقراطية، فاليوم يتجولان في رحاب الحياة، حيث لا مبدأ ينازلهم الميدان، ولو قُدّر للاسلام يوماً – كما هو المقدر انشاء الله تعالى – ان يقبض على زمام الامر ويمسك بخيوط المؤامرات التي يحيكونها ضد الشعوب ويعلن للعالم تناقضاتهم وسيئاتهم وما ينطلون عليه من خداع وتشويه للحقائق لرأى الناس ان الاشتراكية والرأسمالية كيف تتضاءلان امامه وتتهافتان على اعتابه .، ثم يبقى تاريخهم اضحوكة القرون ومهزلة المتفكهين والمسلمون – اليوم – يملكون اكبر ثروة مفتتة مجمدة ولديهم مبدأ ومناهج لو نفّذوها لأجرى ثروتهم في مسالك الحياة وشيّد لهم حضارة نادرة تنحسر عنها الانظار والافكار – كما جربوه من قبل – غير ان ذلك المبدأ لا وجود له في واقع الحياة وانّما هو مذخور في بعض الكتب والصدور .. وسائر المسلمين يعتبرون مسلمين لانهم يقولون: اشهد ان لا اله الا الله، واشهد ان محمداً رسول الله .

اما الافكار الاسلامية، فيعرفونها فلسفة مثالية فارغة ليس عليهم ان يدرسوها، وانما ذلك شأن الفلاسفة فحسب.. وامّا الشعائر الدينية العامة، فيزعمون انها من وظائف رجال الدين.. واما الفرائض الدينية فيؤجلونها الى أوان الشيخوخة والمشيب، والشاب ما دام في غضون الشباب فـ (كان الله غفوراً رحيماً...)... وأمّا القسم الآخر من الاسلام، فملفق من قبل اناس نفعيين.. واما الاقتصاد والاجتماع والسياسة وما شاكلها، فلا يربطها الى الاسلام، فبينها وبين الاسلام شقة واسعة ومن نسبها الى الدين فقد ابتدع في الدين، لانها اطروحة مدخولة في الاسلام وليست من الاسلام.

والبعض الآخر من المسلمين الذي عرف شيئاً من الاسلام فيحسب انه لا ينفعه في القرن العشرين، وانما كان من صالح القرن العاشر.

هكذا الاستعمار الكافر صوّر الاسلام ضحلاً هزيلاً في اعين المسلمين حتى اصبح ذلك طابعهم الاصيل والمستوى العام لوعيهم الاسلامي، وكذلك اصبحوا فاقدين للفكرة الاسلامية الكاملة، ولأية فكرة أخرى، وانّما امسوا أذناباً لمن يسودهم، وعيالاً على من يكفلهم ولم يعرفوا غير هذه العيشة المضنية التي اسهر الاستعمار على ان يبقيهم عليها ، فهم يبحثون عمن يتبعونه ولا يطلبون من يتبعهم ،فكان طبيعياً ان يتلونوا كل يوم بلون وان ينجرفوا مع كل تيار يمر ببلادهم لانهم ذلك المبدأ الذي يسير ثروتهم ويبني عليها حضارة وكياناً.

اما سياستهم الاقتصادية ،فانها ـ بحكم الاستعمار السافر او المتلصص في بلادهم ـ رأسمالية لم تتزحزح منذ ان وضع المستعمر الكافر قدمه في بلادهم ،... ولقد حاول البعض ان يوفق بين احكام الاسلام وبين القوانين الرأسمالية حتى وصل الى حد الشعور بعجز الاسلام عن ايجاد المعالجات للمشاكل المتجددة، ثم حكم بضرورة اتخاذ المعالجات الرأسمالية كما هي الان ــ دون حاجة الى محاولة التوفيق...ولا ضير في ترك الاحكام الاسلامية لانها (في نظره) قاصرة عن مجاراة الرأسمالية والاشتراكية .

وبقي القسم الاخر حتى اليوم يعتقد امكان التوفيق بين الاقتصاد الاسلامي والرأسمالي. ولكنه سينتهي الى ما انتهى اليه صاحبه وسوف يفشل في هذه المحاولة.

كما ان جماعة من المفتونين بالنظام الاشتراكي ، اطلقوا الاحكام الطائشة باتفاق الاقتصاد الاسلامي والاشتراكي على معالجات موحدة للمشاكل الاقتصادية واتخذوا من علي عليه السلام وابي ذر بطلين اشتراكيين ..

والواقع :ان هؤلاء اناس لم يعرفوا الاسلام ـ رغم انهم نشأوا في أحضانه ـ واتفقت الرأسمالية أو الاشتراكية مع ميولهم ، ومصالحهم الفردية فحاولوا ان يبرروا موقفهم أو يجرفوا الاخرين معهم بمثل هذه الاكاذيب التي تنم عن الضمائر العفنة ، والعقول الاسنة القذرة .

واذا كان ذلك مبلغ المسلمين من الاقتصاد الاسلامي وموقفهم من المبدأ الاسلامي .. فمعناه : ان لا وجود لمبدأهم في واقع حياتهم ومتى كان ذلك فلن يسودوا مهما تعددت منابعهم ، وحضارتهم المدنية لانها لاتجد قيادة تسيرها وفق نظام منتج ينقذهم من الجهل والفقر والتقشف ويدرأ عنهم المآسي والويلات.

فمتى ضاقوا بهذه الحياة النكدة التعيسة عليهم ان يستسلموا لمبدأهم وينطلقوا في الحياة وفق أوامره وزواجره.

من هنا كان الواجب يحتم علينا .

١ - أن نستعرض صوراً واضحة عن الاقتصاد في النظام الرأسمالي والاشتراكي وننوه الى تناقضهما مع الاسلام في النقاط المركزية التي لاتقبل التأويل والتزوير .. ليعلم المأجورون والمغفلون ان الاسلام ليس رأسمالياً ولا اشتراكياً ، ولن يتفق معهما ابداً ، اضافة على ما فيهما من اخطاء ... واخطاء...

٢- ان نفصل شطراً عن الاقتصاد الاسلامي ونشرح كيف انه يستقل بتنظيم الحياة الاقتصادية ويعالج المشاكل الحاضرة وفق نظام دقيق يرفع المستوى الاقتصادي للمجتمع الى درجة لا يمكن ان يتقاربها المجتمع الاشتراكي او الرأسمالي.

كما سنبحث في الجزءين الاخيرين من هذا الكتاب عن جانبين اخرين للاسلام لنرفع الستار عن وجوه المتنطعين والمستغلين الذين يغالطون ضمائرهم ثم يسرقون ركائز الاسلام ليتباروا بها ويبيعوها على الاسلام فيجلبوا بذلك اكبر عدد ممكن من المؤمنين من حضائرهم المقدسة الى مساقط المجرمين .

السيد حسن الشيرازي

كربلاء

١٣٧٩/٨/١٧هـ

الاقتصاد

... ولا تنس نصيبك من الدنيا ...

القرآن الكريم

...من لا معاش له لا معاد له

رسول الحياة

ليس منا من ترك دنياه لاخرته ولا آخرته لدنياه.

زين العابدين

تصدير:

الاسلام فكرة واحدة ، عن الكون والحياة والاجتماع .. فهو يتحدث عن علاقة الكون والحياة بالانسان ، وعلاقة الانسان بالكون والحياة ، وعن علاقة المجتمع بالفرد ، وعلاقة الفرد بالمجتمع، وعلاقة المجتمع بالمجتمع، وعلاقة الفرد بالفرد ، ثم علاقة المجتمع والفرد مع الله فيعطي كل واحد من هذه المواضيع حقه من الدراسة والتحقيق ويستنتج من كل ذلك، ثم يقرر احكامه عليها بكل دقة واتقان...

وبذلك يتميز الدين الاسلامي عن الاديان، والمبادئ والدساتير التي تعني بجانب وتهمل جوانب.

والدين برنامج الانسان في الحياة ومخططه ووظائفه في مسيرته الكبرى الى دار الخلد والمقام .. تبعاً لدواعي فطرته، وطبائع الاشياء التي تسير معه...

واذا كان الانسان والاشياء وحدة متكاملة فلا يكون الدين إلا خطة واحدة تلائم غرائزه واشواقه وتساير عواطفه وميوله الاصيلة ضمن تحديد وإطلاق يتناسب والمعركة الحامية بين العقل والنفس.

ومتى كان الدين هكذا.. فمن الصعب جداً انتزاع اقتصادياته من غيرها، فما يتحراها الباحث الا وتزدحم عليه الافكار وكلها من صميم الموضوع.. وما ان يجد حيلة إلا ان يفكر طويلاً ليلتقط الاقرب فالاقرب .

وقد حاولنا ان ننظر الى الاقتصاد الاسلامي من الزاوية المادية لينسجم مع الاقتصاد الاشتراكي والرأسمالي الماديين حين التقارن.. واهملنا النواحي المعنوية – مؤقتاً – لغير اشعار.

واقتصاديات الاسلام تدور حول فكرة واحدة هي: تكوين مجتمع متقارب الطبقات، اعني تأمين المصالح العامة : إلغاء الفقر والمرض .. ولا يفقر الغني، بل يغني الفقير.

واقتصاديات الاسلام فكرة بين الاشتراكية والرأسمالية – او غيرهما تماماً – سبقتها الاشتراكية ففشلت، وتأخرت عنها الرأسمالية فسقطت.

وهذا الدستور هو النظام الوسط .. يكون حجة على الناس ومهيمناً على النظامين يكشف ما فيهما من مروق وجمود.

طبيعة المال:

طبيعة الثروة ان تتكدس في جانب وتنحسر عن جانب .. تبعاً لاختلاف الاعمال والافكار والاساليب – الى حيث ترى الكلب المدلل يرفل في الحرير، ويمرح في ضياء الكهرباء، وينعم باحدث المدافئ والمكيفات ، في الوقت الذي نجد الطفل البريء – خلف سياج البيت نفسه – ينفض حياته تحت وطأة الجوع، ولفحة الهجير، او لدغة الثلوج وفي ذلك فساد المجتمع، فحيثما تكدست ثروة فائضة لا بد ان تبحث عن مسارب ومصارف فتأخذ طريقها الى شهوات الفرد واحلامه الفاجرة، عند ذلك ينفلت التوازن عن المجتمع – ولا تستطيع ان تعيده السلطة والنظام – ويوزع الى حلقات المترفين الجشعين وفريق الامعّات

والطفيليين وقافلة الرقيق والنخاسين .. (١) وموكب الابطال الذين يكيدون لهؤلاء جميعا. .

ثم يأتي - بعد ذلك دور السرقات والفقر والجهل والمرض .. والاوبئات المتطايرة مع الريح في كل مكان، ثم الثورات !!!

فهذه مشكلة عالمية يجب معالجتها من قبل المسؤولين.

الوصفات:

وقد حاول علاجها الرأسمالية ، الاشتراكية ، الشيوعية ، الاسلام وقام كل منها بدور ايجابي جريء ...! فلننظر من التائه؟ ومن المصيب؟

---

(١)ولعلّ امير المؤمنين (عليه السلام) يرمز الى ذلك، حيث يقول: ((ما رأيت نعمة موفورة إلا والى جانبها حق مضيع، وما جاع فقير إلا بما متع به غني)).

الرأسماليون

فلسفة الرأسمالية:

تتركز فلسفتهم الرأسمالية الديمقراطية العامة على الايمان بالفرد ومصالحه الخاصة ويعتقدون: ان توفير مصالح الافراد خير ضمان لتعديل المجتمع، وحمايته بصورة طبيعية، فالمجتمع ليس إلا الفكرة العامة عن الافراد وبتموين مصالح الافراد يكون تأمين مصالح المجتمع.

اما الدولة فهي عميلة المواطنين وحاميتهم، ونائبتهم في القيام بخدماتهم العامة.

هذا هو الخط العريض للنظام الرأسمالي الديمقراطي، يبتدىء من الايمان بعصمة الفرد وحاجاته وينتهي بإعلان الحريات الثلاثة: السياسية، الاقتصادية والفكرية [1]. أما الحرية الدينية فهي فرع من فروع الحرية الفكرية العامة التي

---

(١) هذه الفلسفة – كما تراها – فلسفة مادية كافرة لا تؤمن إلا بالفرد القائم بذاته، والمنفصل عن الله والدين والآخرة كالاشتراكية – تماماً – غير انها تجعل الفرد قاعدة يتركز عليها النظام وتعرف الدولة سلاحاً ينتخبه الفرد للدفاع عن حقوقه ويكون المال مقياس قيمة الفرد والسلع والخدمات وحجر الزاوية للاجتماع في جميع المجالات...

والاشتراكية تعتبر الدولة قاعدة ينبثق النظام منها ولها والشعب جهاز مسخر لخدماتها وحجم الانتاج مقياس قيمة الفرد والعمل.. وحجر الزاوية للدولة!

ولكن الاشتراكية انفجرت في مجتمع متذبذب مضطرب الايمان والعقائد فاستطاعت ان تعلن الحادها الفاجر بكل صراحة ووقاحة. أما الرأسمالية الديمقراطية، فقد ولدت في ←

يعنى بها ان يعيش الناس احراراً في افكارهم وعقائدهم.

ولسنا بصدد عرض النظام الرأسمالي الديمقراطي بما فيه من حريات تؤول الى عبوديات وانما نبحث عن الحرية الاقتصادية بهذا التفسير الذي قرر - للشعوب - المآسي والويلات.

ومتى استعرضنا النظام الاقتصادي لدى الرأسماليين وجدنا الاقتصاد لديهم مجموعة مباحث عن:

١ - حاجات الانسان.

٢- وسائل اشباعها :(السلع والخدمات).

٣- كيفية توزيع وسائل الاشباع على الحاجات[1].

↩

احضان الكنيسة والمؤمنين بها - وان كانت الكنيسة يوم ذاك عجوزاً موهون القوى، منهمك الاعصاب - غير انها كانت تحتفظ بهيبتها المنخورة ووقارها التليد فرأى قادة الرأسمالية انها ليست بحاجة الى اعلان ماديتها ما دامت احكامها تنفذ في مختلف الميادين دون ان تنكرها الكنيسة والمخلصون لها ولا يعوزها ان تثير ضجة الكنيسة وهي تسايرها في كل مجال .

وقد علمت الكنيسة الحاد الرأسمالية الديمقراطية، ولكن لم تعلن حرباً عليها لانها شلت عن المقاومة والاصطدام بعد ما تلاحقت عليها ضربات الشعب ونقمته الثائرة وعرفها الناس دائرة التجسس والاغتيالات والتعذيب والاستغلال.

(١) هذه المباحث الثلاثة تعتبر فصلاً واحداً في الاقتصاد الرأسمالي يسمى بـ (مشكلة الندرة النسبية للسلع والخدمات بالنسبة للحاجات). ويتلو هذا الفصل فصلان آخران:

١ - قيمة الشيء المنتج.

↩

حاجات الانسان:

يقررون ان للانسان حاجات الى اشياء شتى فلا بد من اشباعها بالنسبة الى جميع الافراد ، وهذه الحاجات :

١ - قد تكون محسوسة ملموسة للافراد كحاجتهم الى الطعام والكسوة والمسكن ...

٢ - قد تكون محسوسة ملموسة للافراد كحاجتهم الى الطعام والكسوة والمسكن ...

تكون محسوسة غير ملموسة كحاجة الانسان الى الطبيب والنظام ...

وبعد ذلك تنقسم الحاجات الى :

١ - الحاجات الضرورية للانسان والتي لا بقاء له إلا باشباعها ، كحاجته الى الغذاء والكساء والدواء...

٢ - الحاجات (الكمالية) والتي تتزايد وترتقي مع المدنية والحضارة كحاجة الانسان الى السيارة ، القصر ، الخادم ، الفاكهة ، العطور ، المنازه ...[(١)]

←

٢ - الثمن والدور الذي يقوم به في الانتاج والاستهلاك والتوزيع. ولكن حيث ان في هذين الفصلين يبحثون عن الحقائق الواقعية التي لا يؤثر فيها النظام والقانون، وانما يصلحان كمباحث تمهيدية لسن النظام حول الفصل الأول: (مشكلة الندرة النسبية للسلع والخدمات بالنسبة للحاجات) لذلك لم نتعرض لهما وانما اكتفينا بالبحث عن الفصل الأول فقط وما يستلزمه من نقاط..

(١) انهم يطلقون (الحاجة) على (الرغبة) فكل حاجة رغبة وكل رغبة حاجة ، وقد جرينا على

←

هذه الحاجات تنمو وتتضاعف ولا يمكن اشباعها اشباعاً كلياً حتى ولو وفرنا خيرات العالم لفرد واحد. وبما أن هذا النظام مادي ديمقراطي يرى لكل فرد الحق في اشباع حاجاته باقصى ما يمكنه السيطرة على وسائل الاشباع وبأي اسلوب يستطيع به من تحصيلها.

وسائل الاشباع:

أما وسائل اشباع هذه الحاجات فيطلق عليها – عند الاقتصاديين الرأسماليين– اسم (السلع) و (الخدمات) فالسلع وسائل الاشباع للحاجات المحسوسة الملموسة كالقمح ، الارز ، الرمان .. والخدمات وسائل الاشباع للحاجات المحسوسة غير الملموسة كالهندسة التطيب التعليم ...

أما الذي يجعل السلع والخدمات صالحة للاشباع فهو – عندهم – (المنفعة) حتى اذا توفرت في شيء جعلته صالحاً للاشباع ، فالشيء النافع – اقتصادياً – كل ما يرغب فيه سواء أكان مضراً أم نافعاً لدى الرأي العام ، وفي نظر الدين والاخلاق فانه يعتبر نافعاً مادام هنالك راغب يبذل بازائه الثمن ، فـ (الخمر) سلعة نافعة – من الوجهة الاقتصادية الرأسمالية – كما ان (الزنا) خدمة نافعة في نظرها – و (الحانات) و (المواخير) لا تختلف – عندها – عن المطاعم والمستشفيات ...

فكلها يشبع الحاجات ويؤدي انتاجاً شريفاً – في رأي الاقتصاد –.

←

نفس الاصطلاح حرصاً على طهارة القلم.

فالاقتصادي ينظر الى الاشياء من الزاوية المادية فحسب ، ولا يطل على المجتمع من فوق ، حيث يشرف على الجميع في نظرة واحدة حتى يستطيع من مقايسة المنافع بالمفاسد ليضع كل شيء في موضعه .

هكذا يرى الراقصة والمعلمة تخدمان الاجتماع ، وتنتجان ما يجد راغباً يبذل له الثمن ، كما يوقف المقامر بجانب الفلاح فكلاهما ينتج ما يشبع رغبة وبعد ذلك فلا يفرق بينهما شيء .!

تلك هي الحاجات ووسائل الاشباع غير ان الاقتصاد الرأسمالي يواجه – الآن – .

مشكلة الندرة:

النسبية للسلع والخدمات بالنسبة الى حاجات الافراد وما دامت السلع والخدمات لا تشبع حاجات الجميع فالنتيجة الحتمية لها : أن تشبع حاجات الاغنياء بأكبر قدر ممكن من وسائل الاشباع ، بينما تبقى حاجات الفقراء معطلة يعوزها حتى الخبز . واذا كانت وسائل الاشباع أقل من الحاجات فمن الطبيعي أن يكثر الطلب ويقل العرض فترتفع الاسعار وتقصر عنها الايدي الفقيرة – من هذه الناحية أيضا – فيتضخم عدد ضحايا الخبز وتشيع الجرائم والوفيات والمرض في سبيله .

فلا بد – إذن – من تقرير مصير للقضاء على هذا القصور الاجتماعي وذلك لا يكون الا بتقوية جهاز الانتاج حتى تتوفر السلع والخدمات وتسع الجميع ،

وتشبع حاجات الاغنياء اشباعاً كلياً ، عندما تشبع الحاجات الاساسية – فقط – للفقراء وذلك أقصى ما يبلغه الاقتصاد.

اطلاق التجارة:

أما توفير السلع والخدمات فلا يكون إلا بأطلاق التجارة الحرة في الاسواق العالمية ، والموضعية ، وشتى مجالات الاقتصاد .

ذلك ان المصلحة العامة الفردية أقوى حافز للتفكير ، والعمل من أجل تضخيم حجم الانتاج ، وتحسينه مع تخفيض المصارف والنفقات فالانسان اذا علم ان فائض أعماله لا تغتصب منه ورأى منافسيه قد احتكروا أكبر ثروة رابية نتيجة الدأب المتواصل عبر الشهور والسنين سوف تعصف في دمه النخوة ، والغيرة على المال ولا يستقر قلبه ، ونفسه ، وشهوته حتى يبذل فوق المستحيل ، ويفرغ امكاناته ومواهبه حتى الثمالة ليسبق أقرانه في كل مجال فيصبح أوحداً لا يدانيه أحد وذلك لا يكون الا بأشغال أكبر عدد من العمال ، واستخلاص الطاقات المعطلة ، فيكون في اطلاق التجارة الحرة علاج لـ :

١ - مشكلة الندرة النسبية للسلع والخدمات بالنسبة الى الحاجات العامة.

٢- مشكلة الايدي العاطلة والفقر الناتج من العطل .

٣- مشكلة الطاقات المعطلة.(١)

---

(١) فان أكثر طاقاتنا اليوم معطلة لا تستغل فنحن لا نزرع أراضينا ونحمي المياه التي تنحدر الى بلادنا ونحرسها عن ان تمد اليها يد حتى تنصب في البحار ، كما أننا لا نعرف أن في استطاعتنا أن نزرع الجو ونزرع البحار ، كما لا نعرف ان لدينا خامات يمكن تحويلها إلى منافع فنوجه الجهود والاموال إلى إفنائها زاعمين انها أوضار وأقذار .
ونحن نكتفي الان بهذه الامثلة :

←

←

الاراضي المصرية الصالحة للزراعة تربو على ١٢ مليوناً فداناً ! وقد ظهر ان تحت النيل نيلاً اخر يحوي من المياه المختزنة يكفي لمائة فيضان والعمال الذين لا يجدون العمل يعدون بالملايين وبعد ذلك فالأراضي المزروعة لا تزيد على ستة ملايين أفدنة . أما الصحاري الشرقية والغربية الواسعة فقد اهملت مسرحاً للشمس وملعباً للأعاصير .

والنيل يبقى للفيضانات العارمة ، والايدي العاطلة تدخر للسرقات والمظالم .

إكتشف أحد علماء (الالمان) ان في استطاعتنا تخليص عنصر (النيتروجين) وتحويله إلى (نيترات) للتسميد . ومنذ خمسين عاماً أخذوا يزرعون الجو فزاد محصول (القمح) عندهم بمقدار النصف أو الثلثين ! وكذلك الحبوب الاخر .

ان النبات يتغذى بضوء الشمس وعلى الطبقات العليا من البحار إلى حيث ينفذ ضوء الشمس تتكون نباتات (ميكروسكوبية) وإلى جنب هذه النباتات حيوانات تأكلها وتعيش بها ، وهي حيوانات صغار تأكلها حيوانات أكبر منها ، ثم يتدرج سلم الاحياء إلى حيوانات تأكلها الاسماك . لذلك أخذوا يسمدون البحار بـ(النيترات) — كما يسمدون الارض — كي تجد النباتات المكروسكوبية الغذاء في هذا السماد ، فيسرع نموها وتكاثرها ، ثم تتكاثر عليها الحيوانات الصغيرة ثم الاسماك .

و (الروث) ليس الا العصف المأكول و (الفيبر) الان يتخذ من نفس الروث الذي نحرقه في الاتون والتنور ، فهو ليس الا النبات المحطم الذي تكفل الحيوان إعداده لصنع الفيبر .

وخرء الانسان مخصص لدينا بالتسميد ، والان يستخرج منه نوع من (الصابون) و (السماد)وبعض الادوية الكيمياوية .

وجئنا بهذه الامثلة كشواهد على أبعد الطاقات المعطلة التي استخدمها التنافس التجاري الحر .

تحسين الموارد:

كما أن التنافس التجاري كفيل بتحسين الانتاج ، فكل شركة أفرد يسعى في تحسين بضائعه ليجلب رغبة المستهلكين فيصرفها بأبلغ ثمن .

وكذلك يتم توفير الانتاج وتحسينه .

ميكانيكية الثمن:

والثمن – بواسطة التجارة الحرة – يمارس شوطاً ناجحاً في معالجة المشاكل الآتية :

١- تعيين نوع الانتاج.

٢- تقسيم الاعمال

٣- تحديد الاسعار.

٤- توزيع البضائع على المستهلكين.

٥- توفير أجور العمال والمستخدمين.

تعين نوع الانتاج:

أما الدور الذي يقوم به جهاز الثمن في تعيين نوع الانتاج وكميته ، فهو : أن الحافز الرئيسي للمنتجين في القيام بأي مجهود أو أية تضحية في سبيل الانتاج أنما هو مكافأته بما يصلح للاشباع أو الحصول على الثمن – على ما هو الغالب – ومتى كان الثمن العامل الوحيد في الانتاج فمن حرية المستهلكين ان لا يبذلوا

الثمن إلا بازاء نوع خاص وكمية معينة من الانتاج – فمثلاً – أن المستهلك الذي يرغب عن (التبغ) يمتنع عن شرائه ويعوض أمواله بالفواكه – مثلاً – واذا أضرب المستهلكون جميعاً عن استهلاك التبغ وأقبلوا على استهلاك الفواكه كان من الطبيعي أن يقف أنتاج التبغ ويهمله المنتجون ايضاً، عندما يتضاعف نشاطهم على أنتاج الفواكه من تلك الانواع الخاصة التي تتوافد اليها الرغبات وبتلك الكميات المعينة التي يستهلكها الناس .

هكذا يقرر المستهلكون كمية الانتاج ، ونوع الانتاج ، ويفرضون على المنتجين تعديل نشاطهم وفق رغبات المستهلكين ، وهذه العمليات تنفذ على أثر انجازات من جهاز الثمن .

تقسيم الاعمال:

ومن بنود الاقتصاد الرأسمالي : لا يأكل إلا من ينتج فعلى الفرد أن يسعى في اشباع حاجاته سوى العجزة وحب الذات يقرر نظاماً طبيعياً يحفز كل فرد على اطلاق غرائزه وميوله بالتنعم بأكبر قدر من المتاع ، وهو لا يتوفر إلا عن طريق العمل . فهذان العاملان يفرضان على المرء الدؤوب في العمل والتفكير المتواصلين لازادة كمية الانتاج وتحسينه مع تقليل تكاليفه ونفقاته. وهكذا ينهض بقسم من الاعمال حسب ما تسمح له مواهبه وامكانياته.

كذلك يقوم كل فرد من الافراد بما يستطيع من العمل كما يستوفي بمقدار عمله من الارباح.

تحديد الاسعار:

للثمن – في نظر الاقتصاد – مكانة آلية في الاحتفاظ بالمستوى الطبيعي للبضائع بالنسبة الى القيمة حتى لا يدع للمنتجين حرية تحديد الاسعار حتى لا يرفعوها بوحي من نهمهم القاسي الى ارفع مستوى، وذلك ان المادة الانتاجية متى قلت تكاليف انتاجه وتحسينه، كثر عرضه على المستهلكين، واذا ارتفع سعره عن مقدار اشباعه للحاجة مع الاحتفاظ بكون الحاجة ضرورية أو كمالية فكل الراغبين يمتنعون عن استهلاكه الا بالمقدار الضروري، فلا بد للمنتج من احد مصيرين بالنسبة الى الباقي إما ان تبقى بضاعته من دون مستهلك حتى تبور ويخسر، أو ان يخفض السعر حتى يبلغ المستوى العادل بالنسبة الى العرض والطلب، ومتى علم المنتج التنافس التجاري الحر ورفض المستهلكين بضائعه إلا بالسعر المعين بادر اليه قبل ان يلحقه الخسران.

كما ان قلة العرض وكثرة الطلب للمادة الاستهلاكية تدعوان الى ارتفاع السعر ليبلغ مستواه الطبيعي العادل بالنسبة الى الحاح الحاجة التي تشبعها هذه البضاعة.

توزيع البضائع:

وحيث ان المنتوجات العامة لا تسع لاشباع الحاجات العامة والثمن معدل المجهودات فالانسان لا يستطيع ان يحصل على الثمن الا بمعدل مجهوداته الانتاجية، كما لا يقدر على استهلاك المواد الا بمقدار ما يحصله من الثمن.

فهو في الحقيقة يستبدل مجهوداته بمجهودات غيره وبمقتضى هذا النظام لا يستطيع احد ان يستهلك اكثر مما ينتج.

هكذا يقدر الاستهلاك بمعدل الانتاج حتى توزع البضائع على الجميع ويتمكنوا من اشباع حاجاتهم.

تحديد الاجور:

والثمن هو القاعدة التي يتواضع عليها المنتجون الفرديون او الشركات مع العمال والمستخدمين بما يضمن لهم اشباع حاجاتهم، فالعامل او المستخدم لا يقوم الا بعمل يتكفل اشباع حاجاته الاساسية – في الحد الادنى – حتى لو اراد الرأسمالي استخدامه بأقل من ذلك أضرب عن العمل والتنافس الحر يحفز المنتج الاخر على استخدامه بما يتفقان عليه فيفصل الرأسمالي الاول عن حلبة الانتاج، ولا تمهد له طريق العودة الى زمرة المنتجين الا بعد ان يوفر للعامل من الاجور ما يستقل بالترفيه عن حاجاته .

غير ان الاجور ربما تختلف تبعاً لاختلاف الجهود التي يبذلها العمال والمستخدمون حسب القوانين الطبيعية للعرض والطلب – فمثلاً – ان الاعمال التي ينفقها الكادحون من العمال كثيرة العرض لكثرة العمال وكثيرة الطلب لكثرة المنتجين–ايضاً –، لذلك تقابل بأثمان ضئيلة. أما الخدمات التي يتقدم بها المهندسون فقليلة العرض لندرة المهندسين وكثيرة الطلب لازدياد عدد المنتجين الذين تعوزهم الهندسة لهذا تعادل بأجور طائلة حتى ان ارباح المهندس تدر عليه الموارد التي تشبع حاجاته الاساسية وشطراً من حاجاته الكمالية بينما العامل لا يوفق الا لكف حاجاته الضرورية بكل قنوع وتقتير.

هذه هي الخطوط العريضة لفلسفة النظام الاقتصادي الرأسمالي الديمقراطي التي طالما تبجح بها الكثيرون رافعين عقيرتهم الخشناء قبل ان تقبض على دست الحكم وتظفر بسيادة الشعوب، وما ان فتحت طريقها الى مخطط الحياة إلا وانكشفت عن سيئات واخطاء استمرت حتى اليوم لعنة الشعوب رغم التعديلات التي تواردت عليها من قبل كل مقنن ومفكر.

وسنلمح – الان – الى فشل هذا النظام وسيئاته، واخطائه المفضوحة وما فيه من عجز ومناقضات.

فشل الرأسمالية:

ان مهمة النظام الاقتصادي – سواء أكان رأسمالياً، او اشتراكياً، او اسلامياً – هي الغاء الفقر عن المجتمع لا ازدياد حجم الانتاج ولا توفير ثروة البلاد ولا اي شيء اخر، فأنها تخص علم الاقتصاد. اما النظام الاقتصادي فهدفه الوحيد اشباع حاجات الافراد فرداً فرداً. فهو مخصص بمكافحة فقر الافراد لا فقر البلاد، او الاسواق، فالفرد فقير يطلب الخبز لا البلاد ولا المجموع. والقضاء على الفقر هو مقياس النجاح في النظام الاقتصادي كما ان بقاء الفقر، او استفحاله في المجتمع اكبر دليل على فشل ذلك النظام الاقتصادي السائد.

ولكن الاقتصادي الرأسمالي لا يهمه فقر الافراد وما يصيبهم بعد ذلك وانما يختصر جهوده لمحاربة فقر البلاد والمجموع، اما الفرد فالنظام غير مسؤول عنه ما دامت ثروة البلاد مكفولة والانتاج متوفر فعليه ان يعمل [1]

(١) لقد كانت البلاد الرأسمالية في انتعاش اقتصادي قبل تحكم الرأسمالية فيها وفي غضون ←

لينتج فيأكل[١] . والنظام الرأسمالي يهدف الى غاية واحدة ويعمل للوصول الى ارفع مستوى ممكن من الانتاج وزيادة ثروة البلاد والدخل الاهلي ويحسب ان

←

تطبيقها اصيبت البلاد بصدمة اقتصادية هوجاء جعلت عدداً هائلاً من الفلاحين فقراء متسولين حتى اضطربت البلاد بهذا الفقر المتزايد فالتجئوا الى اصدار القوانين القاسية للاكراه على العمل الاجباري. ففي عام ١٥٣٠م قرر هنري الثامن قانوناً جاء فيه: (... وبالمقابل فان الجلد والحبس من نصيب المشردين الدائمين فيربطون الى مؤخرة العربات ويجلدون حتى يسيل الدم من اجسادهم ومن ثم يقسمون الايمان المغلظة بأن يعودوا الى مسقط رأسهم او حيث عاشوا السنوات الثلاث الاخيرة من عمرهم ويأخذوا بالعمل...). أما إدوارد السادس فأن قانوناً صدر في العام الاول من عهده ١٥٤٧م يأمر بـ (ان أي امرأ يرفض العمل يحكم عليه بان يستعبده من وشى عليه كعاطل عن العمل، ثم يكون له الحق في ان يجبره على القيام بأي عمل شاء مهما كان مقرفاً وله الحق في اكراهه على ذلك بالسوط والسلاسل، واذا هرب ثلاث مرات اعدم كمجرم اثيم. واذا ضبط اي متشرد عاطلاً عن العمل طوال ثلاثة ايام فيجب ارساله الى مسقط رأسه ودمغ في صدره بحرف (م). ويمكن استخدام الفقراء من قبل اشخاص يريدون تقديم الطعام والشراب لهم وايجاد عمل من اجلهم...) وهذا النوع من العبيد استمر في انكلترا حتى القرن التاسع عشر. !!

وفي حكم اليزابيت عام ١٥٧٢م صدر قانون ينص على معاقبة كل متسول لا يحمل رخصة ويزيد عن الرابعة عشرة في المرة الاولى او الثانية بالجلد الشديد ثم يدمغ في اذنه اليسرى إلا اذا تطوع شخص باستخدامه لمدة سنتين ، لكنه اذا تكرر المجرم للمرة الثالثة فانه يعدم – دونما رحمة – كمجرم اثيم...).

وهكذا استمر اصدار مثل هذه القوانين واعنف منها ضد العاطلين والمتسولين حتى القرن الثامن عشر ولم يلغ مفعولها الا في حكم الملكة (آن) (كارل ماركس راس المال ج٣ ص٢٦٨ – ٢٧١).

(١) وهذا اقسى تناقض في الاقتصاد الرأسمالي ، فهو يبتدىء بجعل الفرد قاعدة يتكون النظام منه ولاشباع حاجاته،ثم ينتهي بأزاحة الفرد وحقوقه وواجباته عن النظام.

ازدياد الدخل الاهلي وتضخيم حجم الانتاج في البلاد يقضيان – بصورة طبيعية – على فقر الافراد وذلك بتمكينهم من اخذ الثروة حين تترك لهم الحرية في العمل لانتاجها وحيازتها . فالنظام الاقتصادي -في نظرهم – ليس لاشباع حاجات الافراد بل لايجاد اكبر قدر ممكن من الانتاج واشباع حاجات المجموع جملة. اما الافراد فلهم حرية التملك والاكتساب وعليهم ان يستفيدوا من هذه الحرية وينالوا من وسائل الاشباع كل حسب ما يملك من عناصر الانتاج. وبعد ذلك سواء – لدى الاقتصادي الرأسمالي – ان حصل الاشباع لجميع الافراد او لبعضهم دون بعض.

عجز وانهزام:

فأذن تتلخص الفلسفة الرأسمالية - الحالية – في هذه العبارة يجب تمويل البلاد بالثروات الطائلة ، فانها طاقة خلاقة يجب حمايتها ، والانتاج مما لابد منه للتوفير عن المجموع . أما توزيع الانتاج على الافراد فعلى الشعب أن يقوموا بذلك .فماذا فعل النظام الاقتصادي الرأسمالي إذن؟ ان المشكلة الاقتصادية هي توزيع الانتاج على الافراد ولا غير ، والنظام الاقتصادي الرأسمالي ينكل عن معالجتها فهو فاشل .!

سيئات الرأسمالية:

لقد كان الناس يأملون أن يربحوا من النظام الاقتصادي الرأسمالي إلغاء الفقر وتكوين مجتمع متقارب الطبقات وما إن طبق هذا النظام إلا وانقشعت اماهم عن جرائم وسيئات لم يجدوا إلى تبريرها سبيلاً . ودفعوا في سبيلها أفدح الاثمان

من هنا وقعت البشرية في دوامة من الماسي والويلات والدماء والدموع لا تستطيع الهروب منها إلا إلى أسوء منها . وسوف يضيق المجال لو استعرضنا ما أصابت البشرية من هذا النظام الطائش ، كما هي في واقع الحياة غير انا نشير إلى بعضها من بعيد.

تكوين الطبقات:

فقد أعلن النظام الاقتصادي الرأسمالي حرية التجارة والاكتساب بشتى الوسائل والالوان واتفق هذا الاعلان مع دوي المعامل وهدير المصانع التي تعهدت أداء شطر كبير من الاعمال واكتساح القسم الاكبر من العمال فأهمل الناس الصناعات اليدوية – التي كانت تنفق على الطبقة الوسطى وقسط من العمال – ولم يكن يستطيع استثمار الآلة إلا الصفوة من أرباب الثروات وقد استخدمت الحريات والضمانات المقدسة التي قررها النظام الرأسمالي للتوسعة في استغلال الافراد والاموال فاصبح الناس وقد وضع أصحاب الثروات الكبرى أصابعهم على المعامل ومنابع الثروة الاخرى (الاراضي الزراعية ، الخامات ، العمال ..) والفئة الوسطى على شفير الهاوية مشرفة على السقوط – لان المستهلكين انصرفوا عن المنتوجات اليدوية وازدحموا على الصناعات الآلية – وعطل العمال الذين اخذ الحديد يمارس وظائفهم وجماهير العمال الاخرى بقى تحت رحمة تلك الصفوة التي لا تعرف إلا مغانمها ومآربها ولا تؤمن إلا بالمادة ولا تقدر الرحمة والانسانية إلا من أنواع الجبن الفكري .

وهكذا انقسم المجتمع إلى طبقتين :

١- الاقلية المتربعة على قمة الثراء المزودة بأوسع الحريات والضمانات القانونية والتي تملك مصير الملايين وتستخدم حتى السلطة الحاكمة في أعمالها الابتزازية ، وضيفتها الدائمة أن تستغل حاجة الاكثرية إليها فتلتقط القادرين لتفرض عليهم العمل في مدة لا يمكن الزيادة عليها وبأجور لاتفي إلا بالحياة الضرورية . ثم تنطلق في إشباع رغباتها الى..

وهكذا برز بعض الشركات وميزانيتها تصارع ميزانية الدولة . كما ان أقل من (٤٠٠٠ : أربعة آلاف نسمة) – في مصر – قبل إصدار قانون الاصلاح الزراعي كانوا يملكون ثلث جميع الاراضي المصرية وثلث جميع النقود الموجودة في البنوك المصرية .

وأخيراً وبتأثير الخوف من الشيوعية أمموا الموارد العامة – إنجلترا – قبيل سنوات ، أما في أمريكا فحتى اليوم نجد المنابع الوهابة ملكاً للافراد.

٢- الاكثرية السحيقة المنهارة في اعماق الفقر المدقع البريء والحطام البشري المنتشر في الشوارع والطرقات والعمال القذرين الذين يكدحون مع العجلات والدواليب في الزيوت النتنة السوداء . حتى كأنهم الحديد المتحرك ، او الديدان التي تغوص في الوحول والمستنقعات وإن خطاب (غلادستون) عن الميزانية يعطينا صورة بارزة عن وضع الجماهير التي تتزحلق على حافة الاملاق عندما يقول : (ليست الحياة البشرية في كل تسع

من عشر حالات سوى صراع من أجل الوجود)[١] ، وكما يتحدث عن ذلك (. س. لينغ) قائلاً : (لسنا نعرف مكاناً ضحيت فيه حقوق الاشخاص بكل صراحة وصفاقة لحقوق الملكية كما هي الحال في مساكن الطبقة الكادحة ، وانه ليمكن اعتبار كل مدينة كبرى مكاناً للتضحية البشرية مذبحاً تحرق عليه سنوياً آلاف لاشخاص كضحايا لمولوخ البخل)[٢] .

وهكذا وجد في إحدى البلاد الرأسمالية رجل ورث عن أبيه خمسمائة مليون جنيهاً ثم صار الذهب يتدفق عليه كما ينهمر الحمم الوهاج على جوانب البركان وقدر فائضه كل أسبوع بمليون جنيهاً – هو (جون روكفلر) ورجل يعمل في المزرعة كل يوم (عشرة) ساعات ويتقاضى راتباً مقداره (خمس) سنتات – يومياً – وفتاة وجدت ميتة فكشف الفحص الطبي أنها ماتت جوعاً وفتيان انتحروا فقراً ...

والسبب في تكون هذه الطبقات الجائرة أن شيئاً من الاراضي الزراعية والخامات لم يزدد بواسطة الآلة والذي حدث أن المنتوجات الآلية حيث كانت أجود من المنتوجات اليدوية وأرخص – لانها اعتمدت على الآلة الحديدية لا على العضلات الحيوانية – جلبت رغبات الناس وبالتبع خفضت أسعار المنتوجات اليدوية هذا من جهة ومن جهة اخرى كان الرجل الواحد مع الآلة

---

(١) نفس المصدر: ٣ / ١٤٠.

(٢) هامش نفس المصدر: ٣/ ١٤٨.

ينتج أضعاف ما ينتجه نفر من عمال اليد فكان من الطبيعي أن تخفض أجور عمال اليد كثيراً ويصبح راتب عامل الآلة اضعاف رواتب عدد من عمال اليد، لذلك كله أضربت عمال اليد وخسر أسيادهم وأصبحوا – جميعاً – برتبة العمال. وهكذا تقلصت المنتوجات اليدوية عن الاسواق فبقيت الاراضي الزراعية والخامات كلها تحت ايدي اصحاب الالة، فكان على الناس ان يخرجوا أرزاقهم من ايدي أصحاب الالة، فما كان من اصحاب الالة الا ان زجوا بوفر من العمال في ملحمة الاقدار واستخدموا القسط الاخر. وحيث كانت جهودهم منصبة على الاستزادة من الفائض دون ان يحرصوا على سلامة المجتمع رفعوا الاسعار الى حيث شائت لهم مطامعهم فكان العامل – في الحقيقة - لا يتمتع الا بما يساوي قسماً من عمله ، أما ما يساوي القسم الاخر فكان يتسرب الى صناديق صاحب رأس المال! فكان العامل يتدهور نحو الهوة عندما جعل سيده يرتقي نحو القمة كما صرح بذلك (غلادستون) قائلاً: (انه لمن الصفات المحزنة للوضع الاجتماعي في هذا البلد اننا نجد الى جانب النقص في قوى الشعب الاستهلاكية والى جانب الزيادة في حرمانات الطبقة العاملة والاجراء ويؤسها تجمعاً مستمراً للثروة في الطبقات العليا وزيادة متصلة للرأس مال في الوقت نفسه[1]. وقد أكد ذلك (غلادستون) حيث قدم ميزانيته قائلاً: (من ١٨٤٢ الى ١٨٥٢ زاد الدخل الوطني الخاضع للضريبة بنسبة ٦٪... وفي ثمانية سنوات من

---

(١) نفس المصدر: ٣/ ١٣٨.

١٨٥٣ الى ١٨٦١، زاد بنسبة ٢٪ على اساس عام ١٨٥٣ وان هذه الحقيقة لباعثة على الدهشة العميقة حتى لا تكاد تصدق الزيادة المسكرة للثروة والقوى المحصورة كلياً في الطبقات المالكة يجب ان تعود بمنفعة غير مباشرة على السكان العاملين لانها تخص بضائع الاستهلاك العام ، فبينما كان الغني يزداد غني كان الفقير يصير اقل فقراً[1] ...).

وعندما كان العامل يحتم على سيده ان يرفع الاجور لا يفتأ ان يرفعها غير ان شيطان المادة كان يسول له ان يرفع بمقداره سعر البضاعة كي يتدارك الامر فلا تقل ارباحه كما يكشف ذلك (غلادستون) قائلاً:

(انا لا انكر بكل تأكيد ان الاجور قد ارتفعت لهذه الزيادة للرأس مال (في السنوات العشر الاخيرة)، بيد ان هذه الحسنة الظاهرة تذهب هباءاً حتى درجة بعيدة لان عدداً كبيراً من ضرورات المعيشة قد اصبحت اغلى ثمناً، ان الغني يزداد غنى بصورة سريعة فيما لا نجد اي تقدم محسوس في الرغد الذي تتمتع به الطبقات الصناعية[2] ..).

فالعامل – على اي حال – لا يستطيع ان يعيش مرفهاً وان كانت تدر عليه مدد من قبل صاحب رأس المال والعامل يريد ان يعيش سعيداً ولا يطالب بأي شيء سواه، وذلك ما لا يناله تحت هذا النظام.كما يدلي بذلك الدكتور (سيمون) في تقريره بخصوص هذه الحقائق، حيث يقول:

---

(١) نفس المصدر: ٣/ ١٣٩.

(٢) نفس المصدر: ٣/ ١٤٠.

(... وان لمن الصحيح فيما يخص عمال المدن ان العمل الذي يحصلون بواسطته على مرتبهم الهزيل يمدد بصورة دائمة تقريباً ... ومع ذلك فان من المؤكد اننا لا نستطيع ان نقول الا في حالات قليلة ان هذا يكفي لاعالتهم.. ان ذلك لا يعدو كونه على نطاق واسع جداً مسيراً يطول او يقصر نحو الاملاق[١].

النتائج:

وتكوين الطبقات ليس مما يضر الفقراء فحسب ، وانما يسبب المشاكل كل للفقراء والاغنياء على حد سواء ، فقد جاء في الاحصائات العالمية (ان ٩٠ ٪ من حوادث الاجرام والاغتيال مصدرها الفقر ...) وهذه الجرائم والاغتيالات تتوجه نحو الاغنياء ، كما ان الفقراء يعتنقون المبادىء الهدامة لمطاردة الفقر فيصبون العذاب الاليم على رؤوس الناس ...

وقد جاء في احصائية اخرى : (ان ٧٠٪ من القلق الذي نعانيه مرجعه الى المال ، وان معظم الناس يعتقدون ان متاعبهم ستنتهي متى ازداد دخلهم بمقدار ١٠٪ وقد يصدق ذلك في بعض الاحيان ، ولكنه في اكثر الاحيان لا يصدق)[٢]. فقد ثبت ان الاسراف يهدد كيان الانسان بالموت الباكر ، وشتى الامراض ، فان اجهزة الجسم لو افرطت في استهلاك طاقاتها تحطمت وسوف لا تغفر للانسان

---

(١)نفس المصدر: ج٣ ص١٤٠.

(٢)دع القلق... ص ٣٧١.

صغيرة ولا كبيرة . كما ان الارباح الفائضة تولد مصارف جديدة وتسبب المشاكل الاجتماعية الفادحة.

الغاء الاديان:

أن فلسفة الاقتصاد الرأسمالي لا تنسجم مع فكرة الاديان ! فالاقتصاد الرأسمالي يعمل لتوفير الانتاج من أي سبيل كان والاديان لا ترضى بالظلم، والرشوة ، والربا ، والاحتكار ، وسائر الموارد المحرمة ... كما أن الاقتصاد الرأسمالي يقرر لكل فرد الحق المقدس في إشباع حاجاته كلها في حين أن الاديان تمنع الزنا ، والمقامرة ، والخمر ، والغناء ، واللهو ...

والاقتصاد الرأسمالي يحاول تكريس جهود الناس ، ومجالات نشاطهم في الانتاج والاستهلاك .. فلا بد أن يعبدوا رباً واحداً هو المادة كي لا يفكروا الا فيها ولا يعملوا الا لها . اما الاديان فتوزع القوى والثروات إلى جميع جوانب الحياة وتحدد علاقة الفرد بالمادة . فهي إذن تعرقل طريق الاقتصاد فلابد من إلغائها.

والحرية الدينية لا يعني بها إلا أن يكون الفرد مؤمناً – في قلبه – برب ونبي وإمام . وليس له الحق في تطبيق دينه على المجتمع (فالدين لله والوطن للجميع).

مأسات الفضيلة:

ومادامت الامور تقدر بمنافعها المادية فمن الطبيعي سحق القيم المعنوية ، والفضائل الخلقية ، وكبت البواعث الفكرية ، والنزعات النبيلة .. فالمجتمع الرأسمالي الذي يرى الانسان – كسائر الحيوانات – مجرداً عن الميول الروحية ،

والافكار الانسانية النبيلة ، والاهداف التي تسمو عن عالم المادة وجواذبها ولا يعرف للفرد كرامة معنوية وسمواً روحياً ، بل يتطرف في الاتجاهات والموازين المادية البحتة ولا يقدر النجاح والفشل إلا بالاستغلال والاستهلاك وإشباع الجوعات الجسدية وتوفير ثروة البلاد لا بد أن يشذ مجتمع يسوده هذا النظام عن الفضيلة ويغرى بالجريمة ...

واذا آمن الفرد بالمادة وعرفها مقياساً وهدفاً للحياة ، وعلم ان ميدانه ونصيبه في هذا الوجود هو هذه الفترة من حياته الخاصة، وأن له الحرية في التصرف والاستثمار وأنه المسؤول عن نفسه ، ولا مدافع عنه إلا قواه ، ولا غرض من حياته إلا مصالحه الفردية وانه في خطر من كل مصلحة من مصالح الاخرين التي قد تزاحمه على هدف عند ذلك يشعر الانسان أنه في صراع دائب ، وجهاد لا ينقضي ، وقد يستبد به الخنوع ، وتنسبوا قواه فيرضى أن يعلن انهزامه ، ويضع حداً لحياته بالانتحار. ولكن مادام حب الذات يحفزه على الاستمرار في الجلاد ، فأنه لا يفتأ يتصاول من كل جانب ويسرق ، ويغش ، ويخون... ويعمل كلما تمليه عليه هواجسه وبوادره ليوفر على حاجاته وميوله وأغراضه اكبر قدر ممكن من وسائل الاشباع .

وهكذا نرى المجتمعات الرأسمالية تعرف – من الضروري – إطلاق البغاء ، وتشجيع معاقرة الخمور ، وشرب الافيون ، وارتكاب المحرمات كلها لانها تشبع نوعاً من الحاجات وتجلب قسماً من الثروات وهل يعرف المجتمع الرأسمالي غير الحاجات والثروات؟

الخمر:

وكذلك نهض قوم واستغلوا الحرية الشخصية للاكتساب وراحوا يبيعون الخمور على قوارع الطريق جلباً للثروة الى جيوبهم ولم يكن هناك ثائر ينقذ المجتمع من غوائل هذا الطاعون الفتاك ، بل حافظت السلطات والقوانين على مصالح الخمارين ودافعت عنهم بالسلاح . والقضية التالية تضمن لنا ابراز مكانة الاخلاق من النظام الرأسمالي في إحدى الدول الشقيقة عرضت لائحة على البرلمان لمنع استعمال الخمور فكان الجواب الأول والأخير ضدها : (إن الكحول تلتقط للدولة كل عام (٤٠ : أربعين مليوناً) من الـ (...) وذلك وفر كبير لا يمكن الغض عنه ...) مع أن نواب البرلمان – جميعاً – اعترفوا اثناء المحاورات بمضار الكحول الفردية الاجتماعية .

الربا:

وجاء آخرون فأخذوا يرابون الناس بأموالهم ونشروا فخاخهم في القاصية والدانية وراحوا يمتصون دماء العالمين ويخلفون ورائهم الاساطير والامثال بصورة قانونية جريئة كي لا يسلم منهم أحد بقطرة من دمه .

القمار:

وقام اخرون فاشاعوا في المجتمعات القمار وابتكروا له طرقاً حديثة تتسرب الى جميع شعب التجارة حتى لم يسلم مكسب من المكاسب من عنصر القمار ومآثمه، وكان لهذه العناصر الثلاثة الخمر ، الربا ، القمار أثراً بعيداً في تفسخ الاخلاق وتكوين الطبقات .

وكذلك انتحرت العفة ضحية الترف الغليظ والاغراض المثير الذين تحفل بهما حياة المترفين مع ما علية الاكثرية من الفقر والحرمان .

اساطير فارغة:

وقد يحلو للمتمشدقين من أنصار النظام الرأسمالي أن يدللوا على وجود الأخلاق في المجتمع الرأسمالي بأوهام خرافية ليس لها في صميم الواقع أي أثر!!

ذلك أنهم يقولون : إن الهدف الشخصي بنفسه يحقق المصلحة الاجتماعية وأن النتائج التي تهدف اليها الاخلاق تتحقق في المجتمع الرأسمالي لا عن طريق الايمان بالاخلاق ومكانتها الذاتية أو الاخروية ، بل عن طريق الدوافع المادية الفرديه ، فالإنسان حين يقوم بخدمة إجتماعية يشمله قسم من تلك الخدمة العامة باعتباره عضواً في المجتمع الذي خدمه وحين ينقذ حياة فرد من الخطر فقد أفاد نفسه لان هذا الفرد سوف يخدم المجتمع فيعود اليه نصيب منها .

غير أن هذه الكلمات البراقة لا تكون الاخلاق في المجتمع ، فأن كثيراً من الخدمات التي يسديها الفرد الى المجتمع تبعاً للدوافع المعنوية لا تعود اليه بخير أبداً.[١]

---

(١)لقد شفى المسيح عليه السلام عشرة من المفلوجين – في يوم واحد– فلم يقدم له الشكر إلا واحد منهم ، و (صمويل لا يبيتز) الذي كان محامياً ثم قاضياً أنقذ (٧٨ ثمانية وسبعين) رجلاً من الكرسي الكهربائي فلم يشكره أحد من هؤلاء (دع القلق.. ص ٢١٧)

فالأنبياء جميعاً أنفقوا في سبيل المجتمع أوسع الخدمات فلم يشكرهم المجتمع إلا بالسم أو السيف ، و (غاندي) حرر الهند و (إبراهام لنكولن) حرر العبيد ورفع أعدائه إلى المناصب الخطيرة ثم كان نصيبهما الاغتيال !!!

ثم لو كان الانسان يخدم المجتمع ليعود اليه نصيب من تلك الخدمة كان الاجدر أن يكرس تلك الخدمة لنفسه – فمثلاً – لو كان الانسان يطعم الناس ليشترك معهم في الاكل – ولا غرض سواه – فالعقل يفرض عليه أن يدخر مجموع الطعام لوجبات نفسه ، وهل من المعقول أن يوزع الفرد على المجتمع الملايين ليغنم واحداً من نفس ماله ..؟

وليت الامر وقف عند هذا الحد إذن لهانت المأسات ، ولكن الاقتصادي الرأسمالي أدى إلى:

إنهيار المجتمع:

فرجل الاقتصاد لايحاول تنظيم المجتمع كما يجب أن يكون ، وإنما تهمه المنافع والمصالح ، فهو لا يغش حتى تنجح تجارته وتكثر رواده وإذا ربحت تجارته بالغش والخديعة فالنظام الرأسمالي يسمح له مباشرتها وهو لا يتكفل الفقراء تلبية للبواعث الدينية أو العاطفية ، وإنما يعيلهم مخافة أن يسرقوه او يقتلوه ، أما إذا أمن مكرهم فالتفكير الرأسمالي يؤكد عليه تجويعهم !!!

وهنا يتبلور الاقتصاد الرأسمالي في اطار جديد هو الاستغلال والاستعباد – بلا حدود – فمن حق الصفوة من اصحاب الثراء ان يستغلوا حاجة الاكثرية اليهم فيفرضوا عليهم الاعمال المرهقة بأجور بخسة ضئيلة لا تضمن الحاجات

الضرورية للانسان فيوزع المجتمع إلى اقلية مترفة تسود وتستهلك ولا تنتج واكثرية تعمل ولا تسود ولا تستهلك إلا قليلاً ...

هكذا تحكم الاقلية على الاكثرية رغم ديمومقراطية هذا النظام وبعد ذلك يأتي دور :

الاستعمار والحروب:

١ - العمال المنتجون لا يستطيعون ان يستهلكوا بمقدار ما ينتجون لضئولة اجورهم ، والسادة المتخومين لن يأتوا على مجموع الانتاج مهما حرصوا وشدة حركة الانتاج وتدفقها بدافع الحرص والاستعلاء المادي[1] جعلت المنتجات الفائضة اكثر من الاستهلاك ، فتجد المخازن تغص بالبضائع والمعامل تخب في الفائض والاسواق جامدة غافية، فلا بد للسادة المالكين أن يبحثوا عن اسواق متعطشة الى بضائعهم ، ولا بد ان تخرج هذه البضائع الى خارج الحدود والجمارك لا تسمح أن يكون الوارد إلا أقل من الصادر – لتنمية ثروات البلاد – فأذن أين تصرف هذه البضائع ؟ إلا في الدويلات التي لا تملك المقاومة والصمود . من هنا تنطلق الدول الكبار تستعمر ما تستطيع من الدول الصغارلتصرف فيها بضائعها وتفرضها على الشعوب بأثمان تقدرها بنفسها . وهذا هو الاستعمار السافر.

---

(١) في بعض البلاد الرأسمالية كـ(اليابان) و (فرنسا) يتخذ العمال في المعمل القبقاب المنصوب على عجلات صغار ليكون تنقلهم في المعمل أنشط من المشي أو العدو .. وهذه الحركات العنيفة نشرت فيهم الصداع الدائم والهستريا.

ويتلو ذلك تطاحن الدول الكبار حول إستعمار الدويلات ، وهذا ما لا ينتهي إلا بالحروب .

٢- ان وفرة الانتاج تتوقف على وفرة الخامات وجميع الموارد الموجودة في الدولة موزعة بين أصحاب رأس المال ، فلا بد أن يمدوا أبصارهم إلى افاق جديدة ومناطق تكتض بالمواد الاولية لينشروا نفوذهم عليها فيمتصوا الموارد ويسلبوا الامتيازات ، وهذا هو الاستعمار وهنا يكون التنافس والتناطح على الاستغلال وإهدار الاموال السخية في سبيل الدعاية والتحبيذ.

فاذا كانت هناك دولة قوية يرضخ لها الجميع إمتصت دماء العالمين بكل هدوء وتحت شعارات وطنية مخلصة وويل للناس إذا تكافئت القوى ولعلعت الحروب تلتهم الرطب واليابس.(١)

---

(١) والقضية التالية تحدثنا باسهاب عن مدى صدق هاته النقاط التي سجلناها:

(كان التجار الانكليز) يحملون الافيون إلى بلاد الصين ، وقد اعتاد الصينيون أن يدخنوا الافيون الخالص دون أن يمزجوه بالتبغ فتقل تكاليفه وأضراره ، وتبعاً لذلك سرى فيهم (الملاريا) والفقر ، وفي عام ١٨٠٠ أصدرت الحكومة مرسوماً لمكافحة هذا الداء الذي جعل يهدد كيان الشعب وثروة البلاد ، فمنع من إستيراد الافيون منعاً صارماً ، ولكن الارباح المتضاعفة – وخصوصاً بعد إعلان المنع – حملت التجار على التهريب وشراء ضمائر المسؤولين بالرشي وازداد التهريب بعد عام ١٨٣٢ فاضطرت الحكومة إلى اتخاذ إجراءات حازمة لتحديده وعينت (لن تسي هي)مأموراً لمقاومة التهريب فأرغم جميع التجار الاجانب على أن يسلموا الكميات الموجودة لديهم من الافيون المهرب وأحرقها .

←

٣- أن هنـاك تبايناً شاسـعاً بـين طبـائع الـبلاد ومناخاتهـا تبعـاً للفـروض الطبيعية، فبينما نجد بعض البلاد يثقل بالخيرات ويطفح بالمواد الاولية حتى ان في ترابها انواعاً من الخامات ، نجد إلى جانبها بلاداً قاحلة جرداء يسودها المحل والجدب . والرأسمالية الكبرى حيث تسعى نحو إنجاب أكبر قدر من الانتاج ، لابد لها أن تقوم بتقسيم عالمي للأعمال والمناطق ، تفرضه المراكز الرئيسية للصناعة الكبرى على سائر المناطق ، فتقلب قسماً من الكرة الارضية التي تغلب عليها السهول وتتفجر بالمياه والاشجار كأكثر الـبلاد الاسـلامية

←

وحيث كان أغلب الافيون الذي أحرقه (لن) مُلكاً لتجار بريطانيا اعلنت عام ١٨٤٠ حرباً على الصين بحجة الدفاع عن كرامتها وشرفها وعرفت هذه الحرب بـ (حرب الافيون) . وعندما ضعفت الصين أمام الاسطول البريطاني استسلمت لها وانتهت الحرب بفرض تعاطي سم الافيون على أهل الصين ،ووقعت معاهدة (نانكنج) التي أرغمت الصين على فتح خمس موانئ في وجه التجارة الاجنبية واقتطعت بريطانيا جزيرة (هونغ كونغ) وابتزت قسماً كبيراً من المال كتعويض عن كمية الافيون التي أحرقها (لن)وعن خسائر الحرب التي أقامتها ضد الصين .

غير أن القضية لم تنته بعد ، فقد ظل فصل محزن في هذه الرواية ، فقد تبعت المعاهدة محاولة التبشير واعقبتهما ثورة (هنج هن شوان)ضد المعاهدة والتبشيروبلغت ضحايا ثورة(هنج) ٢٠ مليون نسمة .!

وبعد ما انتصرت التجارة الاجنبية احتكرت أسواق الصين لبضائعها الفائضة عن استهلاكها المحلي وجعلت ترفع الاسعار متأثرة بالاسعار العالمية ، ثم بعد ذلك كانت ثورة (تاينغ) وفوضى شامل انتهزته الدول الغربية لا نتزاع الامتيازات والاراضي الصينية واتصلت بعد ذلك سلسلة .. حروب ...حروب إنتهت بالشيوعية .

تلخيص (نهرو . لمحات من تاريخ العالم ص ١٢٥ – ١٣٢).

الى مناطق زراعية وحقول ومراتع لانتاج الحبوب والفواكه وإنجاب الانعام وما يتبعها.(١)

وتحول المناطق الوعرة القاحلة الى مراكز صناعية تغص بالمعامل والمصانع.

وهذا لا يكون الا اذا سيطر الوطن الام على جميع البلاد بالاستعمار حتى

---

(١)وهكذا تحولت الهند – قبل تحررها – واستراليا ورأس الرجاء الصالح الى مخازن هائلة من الصوف والقطن لبريطانيا واليك ارقامها على سبيل النموذج:

القطن المصدر من الهند الى بريطانيا (بالارطال):

١٨٤٦ .... ١٤٣ر ٥٤٠ ر ٣٤

١٨٦٠ .... ١٦٨ر ١٤١ ر ٢٠٤

١٨٦٥ .... ٦٩٠ر ٩٤٧ر ٤٤٥

الصوف المصدر من الهند الى بريطانيا (بالارطال):

١٨٤٦ .... ٥٨١ر ٥٧٠ ر ٤

١٨٦٠ .... ١٧٣ ر ٢١٤ ر ٢٠

١٨٦٥ .... ١١١ر ٦٧٩ ر ٢٠

الصوف المصدر من رأس الرجاء الصالح الى بريطانيا (بالارطال):

١٨٤٦ .... ٤٥٧ ر ٩٥٨ ر ٢

١٨٦٠ .... ٣٤٥ ر ٥٧٤ ر ١٦

١٨٦٥ .... ى٦٢٣ ر ٩٢٠ ر ٢٩

الصوف المصدر من استراليا الى بريطانيا (بالارطال):

١٨٤٦ .... ٣٤٦ ر ٧٨٩ ر ٢١

١٨٦٠ .... ٦١٦ ر ١٦٦ ر ٥٩

١٨٦٥ .... ٢٦١ ر ٧٣٤ ر ١٠٩

(رأس المال كارل ماركس: ٢ / ٢٠٧ – ٢٠٨).

يفصلها الى مراكز صناعية او مخازن زراعية وذلك هو الاستعمار الذي يوزع مقادير البلاد تفاصيل... تفاصيل... ليبدد قواها ويبعثر خيراتها كما يسول له عملاق المادة ومردة الشياطين ليسهل له استغلالها ابشع استغلال.

اخطاء الرأسمالية:

لا يسعنا – الان – أن نسطر جميع الاخطاء التي يحفل بها هذا النظام باسهاب وإلا لخرجنا عن نطاق الكتاب ولكن نسجل بعض النقاط كنماذج .

مصدر الاخطاء:

أول خطأ يبعث على أخطاء في النظام الرأسمالي : ان الاقتصاديين الرأسماليين لا يؤدون مسؤولية النظام الاقتصادي ، وانما يؤدون مسؤولية علم الاقتصاد .

ذلك ان علم الاقتصاد يبحث عن كيفية انتاج السلع والخدمات وتحسينها ومسؤولية النظام الاقتصادي انما هي توزيع السلع والخدمات على حاجات الافراد فرداً .. فرداً.

وهؤلاء لا يؤدون الا مسؤولية علم الاقتصاد أي يوفرون وسائل الاشباع ويعلقون مسؤولية النظام الاقتصادي على عاتق الافراد فعليهم ان يحصلوا وسائل الاشباع .

نحو الانتحار:

ثم لا ينظمون المجتمع – من الناحية الاقتصادية – كما يجب ان يكون وانما يطلقون المجتمع ليسير نحو الانتحار ، فانهم يعتبرون السلع والخدمات نافعة لمجرد وجود من يرغب فيها ويبذل بازائها الاموال أو الجهود، وهذا غير صحيح

، بل يجب اعتبار الاشياء نافعة اذا كانت في الحقيقة نافعة ، فالخمر، والقمار ، ولحم الخنزير، والربا مما يضر المجتمع فلا يصح اعتبارها نافعة لانها تجلب الاموال[١] وقد ارغمت احصاءات ضحايا الخمر الحكومة الامريكية على منع الخمر ، غير ان محاولاتها بائت بالفشل الذريع[٢] لان الفكرة المادية السائدة على

---

(١) وقد نتج من هذا التفكير المادي ان اصبحت المجتمعات الرأسمالية على شفير الهاوية فقد أخذ الناس يمارسون المكاسب الحمراء ويسلكون الطرق الملتوية الرهيبه والفاجرة في سبيل المال إلى حيث اتسموا بطابع الامراض البدنية والاجتماعية وأصبح الجو موبوئاً متسمماً ينذر بالفناء الباكر ، واليك هذه الحقائق المدهشة :

١ - إن عدد الامريكيين الذين ينتحرون يفوق عدد الذين يموتون بالامراض على اختلافها .

٢ - تدل الاحصاءات في امريكا : ان كل ٣٠ دقيقة يقع حادث إنتحار ، وان في كل ١٢٠ ثانية = ٢دقيقة يصاب شخص بالجنون.

٣ - الثابت : أن شخصاً واحداً من كل ثمانية أشخاص يموت بالسرطان .

٤ - أثبت معهد الخدمات الاجتماعية : ان ١٣٪ مصابون بأمراض نفسية ، وان ٢٦٪ منهم مصابون بخلل عقلي .

(٢) منعت حكومة امريكا الخمر وطاردتها في بلادها واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة كالمجلات، والجرائد، والمحاضرات، والصور، والسينما. لتهجين شربها وبيان مضارها ومفاسدها . ويقدرون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ٦٠ مليون دولاراً وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على ١٠ ملايين صحيفة وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة ١٤ عاماً مما لا يقل عن ٢٥٠ مليون جنيهاً، وقد أعدم فيها ٣٠٠ نفس وسجن ٥٣٢٣٣٥نفس وبلغت الغرامات إلى ١٦مليون جنيهاً وصادرت من الاملاك ما يبلغ ٤٠٤ مليون جنيهاً . ولكن كل ذلك لم يزد الامة الامريكية إلا غراماً بالخمر وعناداً في تعاطيها ، حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣ إلى سحب هذا القانون وإباحة الخمر في مملكتها إباحة مطلقة (تنقيحات: ابو الاعلى المودودي).

الشعوب الرأسمالية لا تسمح للافراد ان يتخلوا عن الخمر ماداموا يعرفونها نافعة.

تحديد الحاجات:

إن تقديس حاجات الانسان سواء أكانت حاجات ضرورية أم كمالية وتقرير الحق لكل فرد في إشباعها اشباعاً كاملاً غير صحيح! فالمشكلة التي يعالجها النظام الاقتصادي ليست هي إشباع مطلق الحاجات وإنما المشكلة الاساسية التي يجب معالجتها فوراً وقبل كل شيء هي إشباع جميع الحاجات الضرورية لجميع الافراد فرداً فرداً إشباعاً كلياً، فاذا تمت معالجة هذه المشكلة يأتي دور التفكير في إشباع قسم معين من الحاجات الكمالية. أما حاجة الفرد إلى الخمر ، والرقص، والغناء، والبغاء فهي ليست بحاجة وإنما هي شهوة جامحة يجب كبتها حرصاً على إشباع الحاجات الضرورية للاخرين وحماية للاجتماع.

ولو أطلقنا حق إشباع الحاجات الكمالية كلها لبقيت الحاجات الضرورية لاكثر الناس معطلة كما هي الان.

إطلاق التجارة لا يشبع الحاجات:

وإطلاق التجارة والتنافس الحر لا ينهضان باشباع الحاجات إلا بعد:

١- تحديد الحاجات بـ : (الحاجات الضرورية لجميع الافراد، - في الدرجة الاولى - ثم المساعدة على إشباع قسم معين من الحاجات الكمالية - في الدرجة الثانية-).

٢- تحديد وسائل الاشباع بـ : (ما يشبع الحاجات الضرورية ، أو ذلك القسم

المعين من الحاجات الكمالية) والمنع الحاسم الفكري والجزائي من إنتاج غير هذه الوسائل .

ولو لا ذلك لا نصرفت السلع والخدمات عن حاجات الاكثرية السحيقة وتضاعفت لتوفير وسائل الاشباع الكمالية وازدياد الدخل الاهلي وثروة البلاد، كما نجد الان وسائل الاشباع تحوم وتتساقط على موائد المترفين والجماهير ترزح تحت كابوس الفقر والحرمان رغم التجارة المطلقة والتنافس الحر.

الحاجات المتجددة:

وأما مايزعمون : أن الحاجات المتجددة تتضاعف وترتقي مع المدنية والحضارة والمنافع المنتجة لا تتكفل إشباعها اشباعاً كلياً فتولد المشكلة الاقتصادية الندرة النسبية للسلع والخدمات بالنسبة الى الحاجات العامة. فهو غير صحيح ! لان الحاجات الاساسية لا تتجدد أبداً وإنما تتجدد الحاجات الكمالية ، والقسم الاوفر من الحاجات المتجددة حاجات كاذبة يجب اهمالها – كما مر عليك – والقسم الاخر من الحاجات المتجددة ليس من الضروري اشباعه ولو بقيت جائعة .

فليس هذا أساس المشكلة الاقتصادية . والحاجات التي تكون محتمة الاشباع هي الحاجات الضرورية المحدودة التي لا تنمو ولا تتزايد والاموال والجهود الموجودة في العالم تكفي لاشباعها اشباعاً تاماً، وانما المشكلة الاقتصادية هي كيفية توزيع الاموال والجهود على الحاجات .

غلطة في التحديد:

ثم ان تحديد الحاجات بالحاجات المادية خطأ سافر! فان أشد الحاجات الحاحاً على الانسان هي الحاجات المعنوية، فان حاجة الفرد الى الدين (١)، والحرية، والثقافة، والسلام، والتقدير حاجة استكمالية تسلح الفرد لمكافحة الكوارث ومقاومة العقبات ولو لا اشباعها انقلبت حياة الانسان الى اتون مسعور.

الأيدي العاطلة:

ولقد قرر النظام الاقتصادي الرأسمالي: إن إطلاق التجارة، والتنافس الحر يقضيان على الايدي العاطلة، غير أن الفكرة المادية التي تبناها الاقتصاد الرأسمالي هي التي ابتدعت الالة، إستخدمت النساء والاطفال بأجور بخسة، فاستغنى أصحاب الثروات عن العمال حتى أصبح العامل يرى نفسه مخيراً بين أن لا يعمل أو يعمل طويلاً بأجور متهاودة، وهكذا رفض قسم من العمال العمل، كما بقى الاخرون يعملون بكل تبرم وقنوط. وقد دلت الاحصاءات على: أن ٨ر٧ من القادرين على العمل في الريف يعتبرون قوة معطلة لانهم لا يعملون ولا يبحثون عن عمل سواء لعدم رغبتهم فيه، أو لا ستغنائهم عنه، أو لعدم قدرتهم على الدخول في ميدانه.(٢)

---

(١) وللتدليل على ذلك اقرأ كتاب: دع القلق وابدأ الحياة، تأليف :(ديل كارينجي)، تعريب: عبد المنعم الزيادي، ص ٢٧٩ – ٣٠٣.

(٢) الاسلام والطاقات المعطلة: ١٥.

كما دلت تقارير وزارة الصناعة على : أن ٧٦٪ من طاقات العمال عندنا معطلة لعدم الكفائة. [١]

وعدم الكفائة ليس من ركائز الانسان الفطرية ، وإنما هو رد الفعل الطبيعي عن ضئولة الاجور وعنف الاعمال.

الطاقات المعطلة:

والنظام الاقتصادي الرأسمالي اكد: أن استخدام الخامات وتحويلها ألى بضائع نافعة لا يكون الا باطلاق التجارة الحرة، وذلك أن صدق في بعض حين فانه لا يصدق في اكثر الاحيان لان في بلادنا – مثلاً – توجد الخامات من كل شيء والتجارة رأسمالية حرة ، وبعد ذلك فنحن نستورد من الخارج كل شيء حتى اللحم ، والسمك ، والماء المقطر، ومرق اللحم ، وطبيخ الارز !! أما الخامات فانها تبقى لدينا مهملة حتى تبور أو تصدر إلى الخارج بأبخس الاثمان .

وقد ثبت للساهرين ان الدول المستعمرة ربحت من نفطنا عام ١٩٥٥ ما يساوي (٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر ٥٠٠ خمسمائة الف مليون) دولاراً أمريكياً !!! وقد تضاعف فيضان الابار، كما انفجرت ابار جديدة، فكان ربح المستعمرين كل عام يربو على:(٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٩٠٠ تسعمائة الف مليون) دولاراً أمريكياً!!! [٢] أما نصيب المسلمين من نفطهم فليس إلا فتاتاً من موائد المستعمرين توزع على

---

(١) نفس المصدر: ١٣.

(٢) الدكتور سعيد محمد عودة : رسالة الثروة المعدنية: ٩.

الملوك والامراء ثم على الموظفين، أما الوطن الاسلامي الكبير فلا نصيب له منه.

كل ذلك سوى عائدات الذهب، والفضة، والكبريت... وسائر المعادن والخامات التي تصب أرباحها السخية في مصارف المستعمرين وترش القطرات في بلادنا ثم لا تأتي إلى بلادنا وإنما تجمد – باسم الامانة – في بنوك المستعمرين حتى أصبح لكويت وحدها في مصارف لندن نحو :(٠٠٠ر٠٠٠ر٧٠٠ سبعمائة مليون جنيهاً استرلينياً).

والامثلة لمصادر الثروة المعطلة لدينا كثيرة، فكل شيء عندنا طاقة معطلة.[1]

قصور الثمن:

يقول الاقتصاديون الرأسماليون : ان الثمن هو الدافع الوحيد نحو الانتاج لأن الحافز على بذل أي مجهود انما هو الحصول على ثمنه، أو بدله المعادل بالثمن، فالثمن هو الهدف من الانتاج .

---

(١) قمامة القاهرة وحدها تستطيع ان تحصل منها على ٢٧٥٠٠٠ مائتين وخمسة وسبعين ألف طناً من السماد كل عام ، وبرغم هذا فان الدولة قد اعتمدت منذ ثلاث سنوات مليون جنيهاً لاقامة مصنع لحرق القمامة .

ان الدولة تسمح بتصدير قرون الحيوانات وحوافرها مع ان هذه البقايا تحتوي على ٦٥٪ من المواد العضوية.

ان صناعة عصر الزيوت فيها طاقات معطلة بنسبة ٦٠٪ أما صناعات المسلى ، والحلوى، والطابوق فنسبة العطل بها ٧٤٪.(الاسلام والطاقات المعطلة) :محمد الغزالي ص ١٥ – ٢٠ .

وهذا الكلام ينم عن مدى ضيق ، والاتجاه المادي في الفكرة الرأسمالية، ولم أدر؟

ألم يسمع الاقتصاديون بأناس يصلون ويصومون ويحجون ويزكون ويخصصون انتاجهم للجهات الخيرية ، لله، والجزاء الاخروي فقط ؟ أو لم يقرأوا تواريخ العظماء الذين بذلوا فوق المستحيل من الجهود لا لأي ثمن أو جزاء مادي ؟ ألم يبلغهم ان (جون روكفلر) خدم البشرية بأكبر ثروة جمعها انسان[(١)] وأن (اندرو كارنيجي) وهب الجمعيات الخيرية (٣٦٥ ثلاثمائة وخمسة وستين) مليوناً من الدولارات[(٢)] ثم لم يحصلا من وراء ذلك سنتاً من الثمن المادي؟؟

أم غاب عنهم أن رجال الاعمال يكدحون ليدفعوا الضرائب الجائرة بلا بدل؟ فلو كان الدافع الوحيد على بذل أي مجهود مكافئته المادية لما سخى هؤلاء بجهودهم ونفس الاثمان التي يعتبرونها الحافزة على الانتاج.

توزيع جائر:

ينص النظام الاقتصادي الرأسمالي على أن الثمن هو المنظم لتوزيع الاعمال على الافراد، فان القانون المقرر (من لا يعمل لا يأكل) يحفز كل فرد على العمل ليحصل الثمن فيحصل بازائه ما يأكل، وهكذا توزع الاعمال على الافراد كل حسب طاقاته الانتاجية.

---

(١) دع القلق: ٤١٢-٤٢١ .

(٢) نفس المصدر: ٢١٧

وهذه الفلسفة الافلاطونية مثالية اكثر مما هي واقعية لانها – بالفعل – لم توزع الاعمال كما كان يحلم به القادة المبدئيون من أصحاب هذه الفكرة. فانا نرى اليوم في البلاد الرأسمالية من يعمل كثيراً ثم يقتات الجوع والتعب ، ومن لا يعمل إلا قليلاً ويعيش في بلهنية ورخاء،وهذا اكبر شاهد على مثالية هذه الفكرة.

ثم انها تقرر أن لا يستحق الحياة إلا من كان قادراً على الانتاج فمن خلق ضعيفاً، أو أزاحته الظروف المعاكسة عن العمل فليس له أن ينال من ثروة البلاد ما يطارد عنه الموت(١) أما من خلق قوياً، أو أتاحت له الظروف المؤاتية ان يختصر جهود الناس في موائده ويتوسع في الحيازة والاحتكار، فله كل الحق في التخمة والسيطرة والسيادة، وكذلك من يحجزه الوازع الديني أو القيم الخلقية أن يستنزف الدماء والدموع فهو فاشل مترهب متهادن عن خوض معترك الحياة فعليه أن يبقى حليف التقشف والحرمان، ومن سمحت له القحة السافرة أن يدرس الدين والضمير وينازع الفرص للتطاول والانتهاز ويكرس بين يديه من

---

(١) في عام ١٥٣٠ قرر (هنري) الثامن ما يلي: على المتسولين المتقدمين في السن والعاجزين عن العمل أن يتناولوا رخصة للتسول.
(كارل ماركس، رأس المال: ٣/ ٢٦٨).

ويقول ماركس: إن التقرير الاسبوعي الرسمي عن الوفيات يعدد خمس حالات من الموت جوعاً في لندن وذلك في الاسبوع المنتهي في ٢٦شباط ١٨٦٤م وتورد (التايمس) في اليوم نفسه حالة مماثلة إضافية.
(نفس المصدر: ٢/ ٢٤١).

فائض البغاء والفجور اكوام الفضة والنضار،فهو بطل الحياة النابغ وإنسان قرن العشرين الذي لابد أن يطوق بهالة من الاكبار والتقدير، وقدر بنفسك مقدار الصحة في هاته الفكرة العاتية المتمردة على نواميس الانسانية الكافرة بالحياة وقيمها النبيلة.

موضوع الثمن:

والاقتصاديون الرأسماليون يقدرون الثمن معدل المجهودات التي يقدرها الافراد إلى الافراد وهذا غيرصحيح لأنا نرى الناس يبيعون الخامات التي لم يعملوا على تحسينها ، بل الثمن قد يكون معدل الجهود وحدها كالاجور التي يتقاضاها العمال والمستخدمون ، وتارة يكون معدل الخامات فقط كالاثمان التي يأخذها أصحاب الخامات وربما يكون الثمن معدل الجهود والخامات معاً كالاثمان التي يأخذها الباعة فاذن ليس الثمن معدل المجهودات وحدها.

أسعار باهضة:

كما ان ميكانيكية الثمن تقصر عن تعديل الاسعار والتنافس الحر لن يضمن ذلك أبداً لأن الشركات التي لا تجد منافساً لها،تستغل حاجة الناس إليها فترتفع بثمن إنتاجها إلى أرفع مستوى، والشركات المتنافسة تتفق على سعر جائر ونهم التجار يقضي على التنافس الحر – ولو إلى درجة – والمنتجون الكبار لا يخوفون بقلة الطلب ثم الخسارة لأن الحاجة ترغم الافراد على الطلب مهما كانت الاسعار – وإن كان يقل نسبياً – .

ثم لا ترهبهم الخسارة مهما كانت بالغة لأنها لا تؤثر في ثرواتهم المكدسة.والان يوجد في الهند اناس مترهلون يملكون الاراضي الشاسعة ولا يزرعون إلا قسماً منها ويدعون الباقي مرتعاً خصيباً للهوهم وصيدهم والتنزه في أوقات الفراغ ومسرحاً رحيباً للشمس والقمر والوحوش ... ولا تهد الخسارة من رعونتهم العريضة.

وأما أصحاب الشركات الكبرى كشركات البترول والسيارات والمصانع الثقيلة والاحتكارات العالمية فانهم يتحكمون في الاسواق ويفرضون على المستهلكين أثماناً معينة،ثم لا تهمهم ندرة الطلب في بلادهم أو في الاسواق العالمية لأنهم يصرفون بضائعهم في مستعمراتهم بأي ثمن شاؤا، ولأن الاحتكار يلجيء الناس إلى الرضوخ لهم.

لذلك جرت محاولات لترفيع الاقتصاد الرأسمالي، فجعلوا للدولة الحق في تحديد الثمن لحماية الاقتصاد الاهلي والمستهلكين ، من سلطة المحتكرين ،غير أن الرجال الماليين اشتروا ضمائر المسؤلين وملئوا أفواههم بالرشي وردوا أصوات الشعب إلى صدورهم.ثم إن تحديد الاسعار من قبل الدولة يناقض الخط العريض في النظام الرأسمالي الديمقراطي وهوحرية الاقتصاد.

هذا بالنسبة الى السلع، أما الخدمات العامة فقد أصبحت غير قابلة لتحديد أسعارها في البلاد الرأسمالية، فالموظفون الكبار يرفعون رواتبهم يوماً بعد يوم لأنهم يتولون دفة الحكم، وليس هناك من دين أو ضمير يحاسبهم عليه والاطباء والجراحون يقدرون (المعاينة) و (القدمية) و (العملية الجراحية) بما يشاؤن،

وكثرة المرضى وثقتهم بهذا أو ذاك لا تدعان مجالاً للتنافس ، كما سار على نفس الخطة المحامون ، والمهندسون، والكُتاب ، والمعلمون.(١)

اجور متهاودة:

وقد عجز جهاز الثمن عن توفير اجور العمال والمستخدمين، فبعدما تمخض العلم عن ميلاد الالة التي استقلت بأفدح الاعمال . إستغنت الشركات عن قسم كبير من العمال وعن العمال الرجال بالنساء والاطفال حتى أصبح التنافس بين العمال على العمل، بينما الغي التنافس بين أصحاب الاعمال على العمال، فرضى العامل بالاجر الزهيد لأنه خير من البطالة، وأخذ صاحب العمل يدلل ويماكس لأن العامل لا يثق أن يجد غيره من الاعمال وصاحب المعمل متأكد أن في كل يوم يعرض عليه عدد من العمال وقد إستعصت المشكلة وتفاقم الامر بعد ما دخلت النساء والاطفال في المعمل باجور ضئيلة فهب أصحاب المعامل لاشغال النساء والاطفال لقلة اجورهما وللرغبة الذاتية فيهما.

هكذا اصيب العمال والمستخدمون بضئولة الاجور دون أن يزيحها جهاز الثمن الذي علق عليه الاقتصاديون الرأسماليون اماهم، واكبر شاهد على ذلك : انك تجد كل يوم في كل صحيفة أو إذاعة إضراب العمال ضد قلة الاجور .

---

(١) يتحدث عن هذا الامر (جون بيللرز) عنه يقول : (إن المعلمين والعمال من سوء الحظ يخوضون حرباً أبدية ضد بعضهم بعضاً، فالعمال لا هدف لهم إلا إنجاز العمل بأبخس ثمن ممكن، فيما الاخرون ينتهزون كل فرصة تسمح لهم بالمطالبة باجور أرفع).

استخدام النساء والاطفال:

واكتفي الان بنقل هذه الصفحات من كتاب (رأس المال)[١]، (حين تجعل الالة القوة العضلية شيئاً عديم الجدوى تسمح باستخدام عمال لا يتمتعون بقوة عضلية كبرى، لكن أطرافهم تكون اكثر مرونة بقدر نقص نموها ، وعندما استولى رأس المال على الالة كان شعاره هو التالي: عمل النساء ، عمل الاطفال ، وهكذا فان هذه الواسطة الجبارة لا نقاص جهود الانسان قد تحولت في الحال إلى واسطة لزيادة عدد المأجورين ، لقد أحنت سائر أفراد العائلة تحت عصا رأس المال دون تمييز للسن أو الجنس . إن العمل الاجباري لحساب رأس المال قد سلب لا مكان ألعاب الطفولة فحسب ، بل مكان العمل الحر البيتي تأمين معيشة العائلة، ولا ننس ان القاعدة الاقتصادية للعادات العائلية لم تكن سوى هذا العمل البيتي.[٢]

---

(١) رأس المال: كارل ماركس، ج٢ ص١٢٠-١٢٢.

(٢) حيث كانت الاعمال تستغرق جميع نشاط الافراد، حتى لم تكن المرأة تتمتع بفراغ تقوم فيه بالاعمال البيتية أو العائلية، وقد أرسلت الحكومة الانكليزية في الازمة القطنية التي رافقت الحرب الاهلية الامريكية الدكتور (ادوارد سميث) إلى (لا نكشير)و(شيشير) و... كي يضع تقريراً عن حالة العمال الصحية، وتقرأ في هذا التقرير : (تتحلى الازمة بمحاسن عديدة ، فان لزوجات العمال – الان – مايكفي من الوقت كي يعطين أثدائهن لولدانهن .

وكذلك فقد وجدن الوقت كي يتعلمن فن الطهي) وإنك تلمس مدى إستبشار هذا الدكتور لظفر النساء بهذا الوقت المحدود وهذا يكشف عن مدى قسوة العمل قبل ذلك.

ولقد كانت قوة العمل محدودة بتكاليف معيشة العامل وعائلته ،ولكن الالة حين القت بالعائلة جمعاء في السوق ووزعت هكذا قيمة قوة واحدة على قوى عديدة قد انقصت من قيمة تلك القوة ويمكن ان تدر القوى الاربع مثلاً التي تبيعها العائلة العمالية الان ربحاً اكثر مما كان يجنيه من قبل رب هذه العائلة بقوته وحدها، ولكن اربعة ايام عمل قد قامت كذلك مكان يوم واحد وانخفضت اسعارها بنسبة زيادة العمل الفائض الذي تحويه الايام الاربعة إلى العمل الفائض الذي يحويه يوم واحد . ومن الضروري الاونة أن يقدم أربعة أشخاص لرأس المال لا العمل فحسب ، بل العمل الفائض ايضاً، كي تتمكن عائلة واحدة من تأمين مواردها. وهكذا فان الالة حين تزيد المادة القابلة للاستثمار تزيد درجة الاستثمار في الوقت ذاته) .

خسائر وجرائم:

ولقد أدى دخول المرأة والطفل والالة ، في المعمل إلى الخسائر التالية:

اضرابات ضد الالة:

إن العمال – بطبيعتهم – يؤدون الجهود والخدمات الكافية لاشباع حاجات المجتمع ، وفي نفس الوقت يعيشون باجورهم وتبقى لهم الحرية في العمل لهذا أو ذاك، أو الاستقلال بالعمل ، أما إذا دخلت الالة في المعمل فسوف لا يتوفر لهم العمل مهما أرادوا ، ولمن شاؤا ،وقد أحس العمال بذلك ولهذا كرهوا الالة وقاموا ضدها بحروب لا هوادة فيها.

ففي عام ١٦٢٩م في (ليد) إستعملت الة للنسيج فأجبرت المظاهرات

القضاة على تحريمها. وقد خشى الحاكم أن يحول هذا الاختراع عدداً كبيراً من العمال إلى مجرد متسولين[١]، فدمر الالة وخنق مخترعها، أو أغرقه!.

وفي القرن السابع عشر قامت عصيانات عمالية في اوربا بأسرها تقريباً ضد الة لنسج الاشرطة والدنتلة، وقد حرمت نفس الالة في (كولونيا) عام ١٦٧٦م وأدخلت في إنكلترا فأثارت إضطرابات عمالية كبيرة بين عمال النسيج وصدر مرسوم إمبراطوري عام ١٦٨٥م يحرم إستخدامها في كل المانيا ،وفي (هامبورغ) أحرقت أمام الملأ بأمر من الحاكم، وعندما ركب (إيفريت) عام ١٧٥٨م الالة المائية لجز الصوف فان مائة ألف رجل جعلتهم هذه الالة عاطلين أحالوها هباءاً منثوراً، وإن خمسين ألف عامل يكسبون معيشتهم من طريق تمشيط الصوف أرهقوا البرلمان بعرائضهم المناهضة لالة التمشيط والتجىء العمال إلى تدمير الات عديدة في المناطق (المانيفا كتورية) الانكليزية في السنوات الخمس عشرة الاول من القرن التاسع عشر، وفي (شيفيلة) عام ١٨٦٥م قامت ثورة عمال صقل المبادر ضد الة تؤدي نفس العمل، وكذلك تتابعت ثورات العمال ضد الالات بين فترة واخرى.[٢]

---

(١)وكذلك انقلب العمال بصورة جماهيرية إلى متسولين، ولصوص، ومشردين حتى اضطرت السلطات إلى مكافئة هذه التحولات الفجائية التلقائية بفرض العقوبات الدامية، ولكن عبثاً كان ذلك .

(٢) نفس المصدر: ٢/ ١٧٠-١٧٣ .

أعمال فادحة:

لقد إستمر الصراع بين العامل والالة غير طويل حتى انتصرت الالة على العامل[١] واستقرت المكائن في قلب المدن وأخذت تصك الاسماع بهديرها الصاخب وتلفظ دخانها في أجواز الفضاء بكل جرئة وإعتزاز وذابت غلواء العمال أمام روعة هذا الكائن القدير.

هنا عرف أصحاب رؤس المال ان لا حاجة لهم إلى العمال الفنيين الذين يجيدون الاعمال ويتقاضون بأزائها اجوراً متكافئة، فالالة تسمح لصبي صغير لا تجربة له بتشغيل نول كامل بسائر مكائنه ، وما دام في المعمل مهندسون فلا يضر جهل العمال بعد ذلك، وكذلك جعلوا ينتدبون للعمل الفلاحين الذين كانوا ثائرين على الاقطاع منذ زمن بعيد، والنساء اللواتي سلخ رأس المال دينهن وضميرهن وصور لهن الحياة معملاً كبيراً والاطفال الذين لم يبلغوا الحلم ولم يعرفوا من الحياة إلا الدراهم اللماعة واخذوا يغرون الفلاحين بالعمل تحت شعار التحرر من عبودية الاقطاع والنساء باسم الانطلاق من سيطرة الرجل وتحطيم كبت الرجعية والقبور السوداء... والاطفال باسم الدراهم والدنانير والعمل والمعمل وفيهما للطفل كل إغراء. كل ذلك لأن الفلاح تعود أن يعمل طويلاً ويربح قليلاً والمرأة مرنت على ان تعمل دون ان تتقاضى شيئاً وكذلك الطفل فيمكن إستغلال هؤلاء في الاعمال الطويلة بأقل اجر ممكن ولم يحسب

---

(١) ولا يعني تسجيل هذه الملاحم أننا لا نرضى باستخدام الالة ، ونحبذ: ان يستبد الناس بالاعمال اليدوية ، وإنما ننكر سوء إستغلال رأس المال للالة.

الفلاح ولا الطفل ولا المرأة هذا الحساب، والعمال الذين عرفوا هذه الحقيقة فشلوا في مقاومة الالة أول الامر فلم يفعلوا الان شيئاً وخلدوا إلى الخنوع، غير أن قسماً منهم رضخوا للعمل بمثل اجور الفلاح التي كانت أرفع من اجور المرأة والطفل قليلاً،والقسم الاخر ألفوا عصابات إجرامية وأخذوا يذرعون الشوارع ويملئون المقاهي والحانات ثم السجون.

وبذلك اصيب العمال بفداحة العمل، فقد كان عليهم أن يعملوا طويلاً باجور هزيلة كما يقول ماركس:

(.. ليس من النادر أن نرى في نوتنجهام خمسة عشر أو عشرين ولداً مكدسين كالسردين في غرفة صغيرة لا تزيد مساحتها عن – ١٢ – قدماً مكعبة وهم منهمكون طوال خمس عشرة أو أربع وعشرين ساعة في عمل مرهق الرتابة وفي ملء هذه الظروف الضارة بالصحة وحتى اصغرهم سناً يشتغلون بانتباه مركز وسرعة تبعثان على الدهشة وهم لا يسمحون مطلقاً لأصابعهم بالتواني أو الراحة.

وإذا وجهت إليهم بعض الاسئلة فهم لا يرفعون عيونهم عن عملهم وذلك خوفاً من خسارة برهة وجيزة من الوقت) [(١)] ..).

فالعمال عليهم أن يستمروا عبر هذه الاوقات الطويلة خمس عشرة أو اربع وعشرين ساعة في عمل مرهق الرتابة وفي اماكن ضيقة تحت الارض أو فوقها

---

(١)نفس المصدر: ج٢ ص٢٢٣

يلتهم الغاز فيها الاوكسجين إلتهاما، كما يتحدث عن ذلك المفتش (لورد) قائلا: (.. إن الشعور الذي ينتاب المرء لدى دخوله في مثل هذا المكان، حيث يشتغل ثلاثون أو أربعون عاملة معاً لهو شعور لا يطاق في الحقيقة، وإن الحرارة الصادرة من الافران التي تسخن المكاوي فيها لترسل القشعريرة في البدن، وحتى في الورشات التي يسودها عمل يقال عنه إنه معتدل يعني من الثامنة صباحاً حتى السادسة مساءاً فان ثلاثة أو اربعة أشخاص يغمى عليهم بصورة منتظمة يومياً.[(١)]

قلة الاجور:

أما قلة الاجور فكان أثراً طبيعياً لاستخدام الفلاحين والنساء والاطفال تحت قيادة النظام الرأسمالي حتى اصبح مرتب العامل الواحد يقصر إعالة نفسه فقط، أما عائلته فكان على افرادها ان يعملوا فيأكلوا، وهذا ما شجع على تحطيم الاسرة وتفكيك عناصرها.

وفي الحقيقة كان إستخدام الرأسمال للنساء والاطفال يبدل جوهر العقد الذي كان شرطه الاول تقدم الرأسمالي والعامل وجهاً لوجه بصفتهما شخصين حرين كلاهما تاجران يملك احدهما المال أو وسائط الانتاج ويملك الاخر قوة العمل. لقد انقلب هذا العقد كله رأساً على عقب فأصبح إستخدام النساء والاطفال اشبه بشرائهم واخذ الطلب على عمل الاولاد كثيراً ما يشبه – حتى في

---

(١) نفس المصدر: ج ٢ ص ٢٤١ .

الصيغة الاسلوب – الطلب على العبيد.

وفي مقاطعة (بنتال غرين) وهي اسوأ مناطق لندن شهرة تقام كل يوم اثنين وثلاثاء سوق عامة يبيع اطفال في التاسعة – من الجنسين – انفسهم لأرباب عمل الحرير، ويقول احد الاطفال في افادته عن شروط عمله الاسبوعي: (ان الشروط العادية هي شلن واحد وثمانية بنسات اسبوعياً (تعود للابوين) زائداً شلنين لي مع الشاي).

ويحدث في انكلترا – ايضاً – : ان بعض الشحاذات الاناث يأخذن اولاداً من الملاجىء ويؤجرنهم لأي شار كان مقابل شلنين وستة بنسات في الاسبوع [1]، وكلما فرض القانون حدود الست ساعات لعمل الاطفال في فروع الصناعة غير الخاضعة للانظمة ارتفعت من جديد شكاوى ارباب العمل وهم يقولون: ان عدداً كبيراً من الاباء يسحبون ابنائهم من الصناعات منذ خضوعها للقانون كي يبيعوهم للصناعات حيث يسود بعد (حرية العمل) يعني حيث يجبر الاولاد الذين دون الثالثة عشرة على العمل مثل البالغين وبالتالي يباعون بثمن اكبر، ولكنه لما كان رأس المال مسوياً للفوارق بطبيعته فأنه يطالب باسم حقه الطبيعي ان تكون شروط استثمار العمل متساوية بالنسبة الى الجميع في سائر مجالات الانتاج. وهكذا فان التمديد القانوني لعمل الاطفال في احد فروع الصناعة يؤدي الى تحديده في الفروع الاخرى. [2]

---

(١) نفس المصدر: ٢/ ١٢٤.

(٢) نفس المصدر: ٢/ ١٢٥.

ولم تختلف كثيراً الاتفاقات مع الرجال والنساء عن الاتفاقات مع الاطفال.

حوادث وفجائع:

وقد اصيب العمال من الجنسين على اثر ارهاق العمل وضؤلة الاجور بأزمة إقتصادية وصدمة صحية بعيدة الاثر في حياتهم، غير ان ضحايا الاطفال كانت اكثر واكثر لطفولة عضلاتهم ومرونة قوائمهم الوانية عن مقاومة الارهاق الدائب.

نكتفي هنا بالوقوف على نقطة واحدة هي النسبة العالية لوفيات ابناء العمال في السنوات الاولى من حياتهم، ففي إنكلترا ١٦ مقاطعة تجري فيها الاحصاءات حيث لا تقع في السنة سوى ٩٠٠٠ حالة وفاة وسطيًا من أصل ١٠٠ر٠٠٠ طفل!

ونجد في ٢٤ مقاطعة أن هذه النسبة تبلغ : ١٠ –١١ ألف وفاة، وفي ٣٩ مقاطعة ١١ – ١٢ ألف وفاة، وفي ٤٨ مقاطعة ١٢ – ١٣ ألف وفاة، وفي ٢٢ مقاطعة اكثر من ٢٢٠٠٠ وفاة، وفي ١١ مقاطعة اكثر ٢٣٠٠٠ وفاة.

وفي مناطق (هو)و(وولفرهامبثون)و(برستون)اكثرمن٢٤٠٠٠وفاة، وفي مناطق (نوتنغهام)و (ستوكسبورت) و (برادفورد) أكثر من ٢٥٠٠٠ وفاة، وفي مقاطعة (ويسبيتش) ٢٦٠٠٠وفاة، وفي (مانشيستر)٢٦١٢٥وفاة.[1]

وقد أثارت هذه النسبة العالية للضحايا هيجة سارية الجئت الحكومة إلى

---

(١) نفس المصدر: ٢/ ١٢٥.

تحديد عمل الاولاد قبل الثالثة عشرة بـ٦ ساعات فقط .غير أن هذا التحديد لم يحد من جشع الرأسماليين، فالكثيرون لم يخضعوا لهذا التشريع نهائياً متسترين بألفاظ وأسماء والاخرون جعلوا يشترون ضمائر الاطباء المكلفين بالتفتيش عن أعمار الاحداث في المعامل فكانت التقارير تتفق مع المواد القانونية عندما كان الواقع يكذبها، لكن الاطفال ربحوا بعض شيء عن هذه الضجة الصاخبة وخفت فيهم نسبة الوفيات والامراض نسبياً.غير أن المرأة لم تجد لها نصيراً فظلت تعمل إلى جانب الرجل وتأخذ اجور الاطفال[1] رغم ان قواها الجسدية كانت تقصر عن قوى الرجل.

وهكذا خسرت صحتها(٢) واسرتها دون ان تربح شيئاً.

---

(١) والفتيات المشتغلات لا يتناولن سوى شلن أو شلن ونصف يومياً، بينما الرجل يتناول شلنين ونصف الشلن (الرقم ١٨١٦) (نفس المصدر: ٢/ ٢٨٣).

(٢) إن المصابين بالسل من أصل ٨٨٦ عاملة دنتلة تتراوح أعمار معظمهن بين ١٧-٢٤ تحصيها اللوحة التالية للدكتور (ترومان) طبيب المستوصف العام في (نوتنجهام) :

١٨٥٢ ١٠٠٠٠٠ على ٤٥	١٨٥٧ ١٠٠٠٠٠ على ١٣
١٨٥٣ ١٠٠٠٠٠ على ٢٨	١٨٥٨ ١٠٠٠٠٠ على ١٥
١٨٥٤ ١٠٠٠٠٠ على ١٧	١٨٥٩ ١٠٠٠٠٠ على ٩
١٨٥٥ ١٠٠٠٠٠ على ١٨	١٨٦٠ ١٠٠٠٠٠ على ٨
١٨٥٦ ١٠٠٠٠٠ على ١٥	١٨٦١ ١٠٠٠٠٠ على ٨

(نفس المصدر: ٢/ ٢٣٢) .

تحطيم الاسرة:

فالفتاة التي تستنزف نشاطها وطاقاتها في المعمل تقصر عن القيام بفرائض الزواج وإنجاب الاطفال.

والرجل الذي ينبو راتبه عن إعالة نفسه يجمح عن النهوض بواجبات الزواج وتكاليف الاسرة ونفقاتها الدائمة مهما كلفه الامر خصوصاً وكلاهما يجدان في نفس المعمل أو خارجه ما يشبع الرغبة الجنسية، كما يسجل هذه الملحوظة العامة الدكتور (سيمون) : بالرغم من كون وجهة نظري الرسمية هي صحية تماماً فان أبسط العواطف الانسانية لا يمكن أن تسمح بتجاهل المظهر الاخر للشر ، ذلك أنه (فرط الزحام) يتضمن بالضرورة – تقريباً – في درجاته العليا إنكاراً مطلقاً لكل حياء وإختلاطاً قذرًا للابدان والوظائف البدنية وعرضاً للعرى الحيواني والجنسي هي قمينة بالوحوش بالاحرى من الانسان . وإن الخضوع لمثل هذه التأثيرات يشكل إنحطاطاً لا بد أن يصير أعمق فأعمق بالنسبة إلى اولئك الذين يستمر فعلها فيهم، وأما الاطفال الذين يولدون تحت ظل لعنتها فما اكثر ما تشكل لهم معمودية للفجور[١] .

وكما أعلنت لجنة طبية التقرير التالي:

إن نساءاً متزوجات يعملن في جماعات مع فتيات وشبان يوضعن تحت تصرف المزارع مقابل مبلغ معين من المال يتقاضونه من شخص يحمل اسم

---

(١)نفس المصدر: ٣ / ١٤٩ .

رئيس العصابة وهو لا يبيع هذه العصابات إلا كاملة.

وكثيراً ما يكون ميدان عمل هذه العصابات بعيداً عن قراهم مسافة عدة أميال ويراهم المرء صباح مساء على الطرقات العامة النساء منهم يرتدين تنورات قصيرة ومناسبة ويلبسن أحذية وسراويل في الاحايين قويات ممتلئات صحة، لكن مفسدات بذلك التحرر الاخلاقي المألوف عندهن غير ابهات مطلقاً للعقابيل المقيتة التي ستنشأ عن هذا النوع من الحياة النشيطة والعجزية بالنسبة إلى ذريتهن التي تبقى في الدار وحدها وتفنى وحدها[١] ، فاذا علم الرجل المعسر أنه يستطيع أن ينال الارتواء الجنسي عن غير طريق الزواج وحتى لو تزوج بامرأة فانها لا تختلف عن سائر نساء المعمل المائعات، فلا بد بعد ذلك أن يستغني عن الزواج ،كما ان الشابة الطالعة سوف لن ترضى أن تربط نفسها بعجلات الاسرة وهي تحلم بالانطلاق الكامل وتسعى لاقتحام الوظائف وإستلام المناصب وتسنم المسؤليات[٢]، وهكذا إمتنع كل من الجنسين عن الزواج إستغناءاً بالبغاء وتبرماً عن تحمل تبعات الزواج من النفقات والتكاليف والالتزام بالمراسيم السائدة وإنجاب الاطفال حتى أصبح معدل الرجال

---

(١)نفس المصدر: ٢ / ١٢٨.

(٢) إن في (غانا) ٦٠٪ من المشتغلين بالمعارف من النساء.،كما ان النساء أصبحن ٩٥٪ في سائر الوظائف.

(مجلة الوادي : عدد ٢ سنة ١٢ ، السبت ١٩ مارت ٩٦٠ ص ٢٨).

والنساء الذين يتزوجون في فرنسا اليوم لا يعدو سبعة أو ثمانية في الالف.(١)

اشاعة الفحشاء:

كل هذه العوامل كان لها الاثر البعيد في تجريد المجتمع من كل معنى من معاني الفضيلة واشاعة البغاء المكتوم والتفسخ الخلقي الرهيب اضافة على ان استخدام المرأة في الوظيفة او المعمل يعني استباحتها لمن يرأسها ولمن هو اعلى رتبة منها، واليك بعض ما جاء في استجوابات تقرير لجنة التحقيق عام ١٨٤٠:

- ما رأي عمال المناجم في عمل النساء في المناجم؟

- انهم يدينونه على العموم!

- لماذا؟

- هم يجدونه مذلاً للجنس، مسيئاً اليه، ان النساء يرتدين ثياب الرجال وانهن يلقين بالحياء جانباً في بعض الاحوال.

- اتريد اذن تحريم عمل النساء في المصانع ايضاً؟

- كلا، لا اريد ذلك!

- لم لا؟

- ان العمل في المصانع اكثر حرمة وموافقة للجنس المؤنث!

- ومع ذلك فانت تعتقد انه يسيء الى اخلاقهن؟

---

(١) ابو الاعلى المودودي ، الحجاب: ١١٥ .

- ولكن لا يسيء اليها بقدر ما يفعل العمل في المناجم، بل ان الفارق الشاسع بين العملين وعلى اية حال فانا لا اقول ذلك عن وجهة النظر الاخلاقية فحسب، بل من وجهة النظر الحكمية والاجتماعية ايضاً، ان الانحطاط الاخلاقي للفتيات لشديد وفاجع وعندما يصبح هؤلاء الفتيات زوجات عمال المناجم فان الرجال يتألمون كثيراً من انحطاطهن وهذا ما يؤدي بهم الى هجران البيت والانكباب على الخمرة.

- أيمكنك ان تكشف فارقاً بين هذين الصنفين؟

- لم اتأكد من اي شيء لكنني اعرف من زياراتي الى البيوت المختلفة الحالة الفظيعة التي تدهورت اليها الاشياء في مقاطعتنا.[١]

ومضت مدة منعوا في انكلترا إستخدام النساء المتزوجات كي يتفرغن للاعمال البيتية التي لا بد ان يزاولها فرد من افراد المجتمع ويتكفلن حضانة اطفالهن ويبتعدن عن مساقط الاعراض، وقد اعلن استبشاره بهذه الظاهرة المفتش (بيكر) في تقرير رسمي: (انه سيكون من حسن حظ المناطق الصناعية في انكلترا حرمان كل امرأة متزوجة وربة عائلة من الاشتغال في اي معمل كان).[٢]

غير ان ضئولة اجور العمال والغلاء لم يسمحا للزوجات ان يستقررن في بيوتهن، فعدن الى مراكزهن واخذت تتنزى على مسرح العالم البوادر السيئة والعواقب الطبيعية المترقبة التي اثارت حفيظة الاباء وثائرة المصلحين، غير انهم

---

(١) رأس المال: ٢/ ٢٨١-٢٨٢.

(٢) نفس المصدر: ٢/ ١٢٨.

لم يجدوا الى مكافحتها سبيلا وحاولوا التغاضي عنها فلم يسعهم ذلك، حيث بلغت من الصفاقة والصراحة ما لم يخف على احد.

اخلاق مفتعلة:

فتوسلوا الى تبريرها بوضع فلسفة جديدة للاخلاق ونسخ النظريات الفطرية والدينية زاعمين: ان الواقع الذي امام اعينهم ليس فساداً خلقياً، وهبوطاً وتردياً، وانما هو من مظاهر الحرية والانطلاق والنهضة والارتقاء والتطور يقضي ان يكون المتاع الجنسي – اليوم – عن طريق الزواج، فأن كان بالامس يجمعهما رباط الزواج فاليوم يجمعهما رباط العمل المشترك، او الصداقة. ثم اتسعت هذه السفسطة في الاونة الاخيرة، فجعلوا يقولون: واذا كانت الصداقة مبررة لتعاطي اللذة الجنسية فلماذا يكتب التباعد بين الاقارب انهم لا يختلفون عن الاباعد في ذلك! وما دامت تلك فلسفة الاخلاق – لدى الرأسماليين – فليس من الغريب ما شاع في بعض الاقاليم الفرنسية والمدن الصناعية الاخرى من وجود العلاقات الجنسية بين الاقارب في النسب كالاب، والبنت، والاخ، والاخت...(١)

استخدام الغريزة الجنسية:

ولم يقف الامر عند هذا الحد، فالاثرة الرأسمالية المعروفة بحرية التجارة المطلقة أبت إلا افتتاح نوافذ الى افاق جديدة للتجارة باستخدام الغريزة الجنسية

---

(١) المودودي، الحجاب: ٩٨.

لانها مكاسب مشروعة في نظر الاقتصاد الرأسمالي، واذا كانت النفوس تتقزز منها يوم كان لها دين فاليوم قد انسلخت من دينها تهلع اليها هلعاً عميقاً، لذلك اخذوا يتدرجون في هذه المزالق الرهيبة الدكناء.

إستخدام الصحافة:

فابتدروا الى الجرائد والمجلات وجعلوا يدمجون فيها القصص والمقالات الغرامية واستثاروا في هذا السبيل اعلى ما حباهم الله من مواهب، وفنون، وعلوم، وشجعوا الادب المكشوف وافرغوا له قسماً من الجرائد والمجلات، اما القسم الاخر فان لم يكن مخصصاً بذلك، الا انه لم يخل على اي حال من ركن، او اركان موضوعة للفنون الجميلة ، وحيث لاقت الصحافة الماجنة من الاعجاب وتهافت القراء ما لم تنله الصحف من قبل.

كتب خلاعية:

اخذ الكُتَّاب يُكرسون جهودهم لاخراج الكتب والرسائل في القضايا الجنسية وفنون الرقص والغناء واغراء العواطف واستجواب القلوب والـ ...

ولم يفلت من كيدهم ان يمدحوا مهنتهم الفاجرة بألوان من الاطراء الرفيع والكلمات الخلابة النبيلة حتى اصبحت الفنون الجميلة والاداب الجنسية من ارقى الفنون، فلم يعد الان تأليف كتاب مليء بأنواع الخلاعة المكشوفة البارزة مخزاة او مغمزاً للمؤلف، بل المؤلفون يتبارون بانهم مرهفون ويتباهلون ببراعة

كتبهم وان نالت لدى الناس حظوة وقبولاً فسيجازون اما بعضوية المجامع العلمية، او بشرف(كروى دونور[1]) او بجوائز (نوبل) باعتبارها خدمة للانسانية وكم بلغ كتاب الجنس مصاف المثرين الكبارمن امتيازات كتبهم ،ولم يفتهم بعد ذلك ان للشعر فتنة سحرية تنقر على ارهف وتر ينبض في القلوب والمشاعر ويغذي الموسيقى بمعين لا ينضب من الخواطر الحديثة.

صور المائعات:

وان الصورالفوتوغرافية والمجسمات العارية تلهب الشهوات الدفينة والغرائز الهائجة وتفعل بالعواطف ما لا تفعله الحقائق الصارخة لذلك كله عمدوا الى استخدام الشعر والفوتوغراف ومصانع المجسمات كي يصرفوها في مقاصد الاغراء والمجون حتى يسنح لهم استخراج اكبر قسط من أموال الناس من جيوبهم، ولذلك لا تجد اليوم اعلاناً تجارياً في الصحف الا وسمته البارزة صورة امرأة مبتذلة كأنه لم يعد من الممكن أن يكون اعلان ما وافياً بالغرض بدون وجود الاغراء الجنسي- حتى أصبحت صور العاهرات والعواهر في حالات مريبة اقوى جهاز للدعاية والمعايدة والالفات.

وقد كان للمطابع، ودور النشر، والاذاعة، والتلفزيون دور ناجح في تنشيط قفزة الميوعة والاستهتار.

---

(١) نفس المصدر: ١٠٣.

أدوات الاغراء:

ولم يفلت من دهاء التجار استغلال غريزة التبرج التي خامرت فطرة المرأة، فتفننوا في ابتكار ادوات الزينة والترف واشاعوها في المجتمع كي تصبح من الحاجات الاساسية للمرأة ليربحوا منها فيضاً وفيراً وابتدعوا الازياء الكاشفة المغرية واكثروا الغواني الفاتنات ليرتدينها ويغشين بها النوادي والحفلات حتى يفتتن بهن الشباب النزق وتغرم الفتيات بتلك الازياء الجديدة والالوان الزاهية من الثياب الفضفاضة الرقاق وتذرعوا بهذه الطريقة لا ستدرار اموال الناس.

النساء المغريات:

ثم كان التنافس الحر وكان التجار يعلقون القطع واللافتات الكبار على قارعة الطريق وعلى ابواب الحوانيت ليجلبوا بها انتباه المستهلكين، غير ان التجار – جميعاً – كانوا يفعلون ذلك حتى اصبح شيئاً مكرراً لا يلفت الانظار ثم بدا لهم من بعد ما رأوا فشل هذه العملية ان يعمدوا الى الكواعب الحسان فيلتقطوا منهن اجمل فتاة آسر الجمال ليحلوها بأروع الازياء والحلى والمباهج ويستخدموها مكان اللافتة في الحوانيت لتعرض الامتعة على المستهلكين وتتماكس على الثمن، وفي الحقيقة لم يكن استخدامها لأداء هذه الوظائف وانما جيء بها لتكون دمية تعمل فتنتها المغناطيسية الاخاذة في الرجال فترغمهم على شراء حوائجهم من عندها دون أن يماكسوها طويلاً حتى أنك اليوم لن تجد في المدن المزدحمة معرضاً، ولا فندقاً، ولا مقهى، ولا سينما، ولا حانوتاًإلا وفي صالته فتاة متحلية بأحدث المغريات تستقبل الوراد بغنجها ودلالها.

لقد سممت هذه العوامل الموبوئة أجواء العالم كله وسلخت من البشرية كل خاطرة من معاني الاخلاق والفضيلة ونازعت حتى الدرهم من يد البدوي التائه، ولكنها لم تنجح في إشباع مطامع الرأسماليين فأرادوا التوسعة في الاستغلال وحاولوا لو يبتدعوا فتنة تقهر مختلف الطبقات والاصناف على التعرية من أموالهم لتنصرف إلى ايدي نفر من تجار البشرية وخزان الفضة والنضار.

المسارح والــ ....

فعملوا المسارح،والملاهي،والسينمات،والمقاهي، والحانات، وأبهاء الموسيقى، والمسابح المختلطة، ونوادي العراة، ثم دور الدعارة و... ما ينبو عنه القلم واستخدموا الغيد والغلمان وصنعوا للمراهقين والمراهقات وسائر الممثلين والنجوم جميع أدوات التبرج والاغراء الصارخ وجعلوا يعرضون فيها على المنصات الاجساد المثيرة العارية أو شبه العارية وكل ما تحفل بها من فنون الدلال والغجر وعمموها لمختلف الطبقات وفي كل مكان كي لا يشذ عنها أحد حتى فلاح المزرعة وإن أوتي المعجزات من العصمة وقوة العقيدة والثبات والدين والاخلاق حتى ألهبوا الدنيا ضراما وحولوها إلى بؤرة فساد تضج بالاوبئات الغفالة الموبقة واتسع الفجور حتى أصبح ميدان الشارع، والنادي، ووسائل المواصلات ...[1]، وحتى أصبحت النساء في البلاد المزدحمة – إلا

(١) للمصلحين الاخلافين في القطر الامريكي مجلس يعرف بـ (اللجنة الاربعة عشرية) يعني بالفحص عن مكامن الفجور والتحقيق عن حالة البلاد الخلقية واتخاذ التدابير ←

النادرات – مشاعة رسمية قانونية دون أيما تأثم او استنكار وحتى سيطرت الشراهات البهيمية الدنيئة على الركائز الانسانية النزيهة فأمست المرأة متعة قبل كل شيء وان غروها بألف شيء وشيء وحتى امست.

وسأنهي هذه المأساة الطويلة بتسجيل هذه الحقائق التالية كشواهد على مدى سقوط الانسانية في ظل النظام الرأسمالي الخليع.

مباذل:

قد يقيم العشيق مع عشيقته وزوجها في منزل واحد ويعيش الثلاثة في هذا الوضع على اتم وفاق! وهذا الوضع منتشر انتشاراً كبيراً في فرنسا على الاخص ويسمونه هناك (التعايش الثلاثي).

وفي السويد تعطى الزوجة حق اختيار صديق يكون له ما لزوجها من حقوق، وفي امريكا لا تكاد الفتاة تبلغ سن الرابعة عشرة حتى يكون لها خدن يظل يعاشرها معاشرة الزوج لزوجه حتى تتزوجه او تتزوج غيره[1]، وحتى

←

العلمية لاصلاح الاخلاق على نطاق واسع، وقد جاء في تقريرها: إن كل ما يوجد في البلاد الامريكية من المراقص، والنوادي الليلية، ومجالي الزينة، وأماكن التدريم، ومراكز تمويج الشعرقد اصبح جلها مواطن للفجور ودوراً للبغاء، بل هي أقبح منها وأشنع لما يرتكب فيها من الرذائل التي لا تصلح للذكر (نفس المصدر: ص١٣٣).

وقد روت الصحف: ان الممثل الهزلي (بوب هوب) زار باريس فكتب من هناك الى احدى صديقاته: (أوه يا عزيزتي الفتيات هنا سماويات وأينما اذهب أجد القبلات في الاتوبيس) وعلى سلم (الاتوبيس).

(١) محمد الغزالي، الاسلام والطاقات المعطلة: ص ١٥٢–١٥٣.

مطلع القرن العشرين لم يبلغ التفسخ الخلقي الى هذه الدرجة من الصراحة، بل كان زنى الرجال امراً هيناً طبيعياً يغضي- عنه الاباء بشرط ألا تصاب ابنائهم بالامراض السرية، وربما كانوا يتباشرون او يلحون على ابنائهم ان يخادنوا امرأة لها مكانة مالية او اجتماعية، وذلك ضماناً لمستقبلهم، ولكن نظريتهم بشأن المراة كانت مختلفة عن ذلك جداً الى تلك الاونة، فكان عفاف المراة شيئاً له قدرة وقيمته واولئك الاباء الذين كانوا لا يرون بأساً بخلاعة ابنائهم معتذرين عنها بسورة الشباب، كانوا يغارون على اعراض بناتهم ويحرصون على برائتها من كل وصمة سوء، غير ان هذه الظاهرة الحسنة تقلصت بعد صراع طويل مع المتباكين على حقوق المرأة والمطالبين بمساواتها مع الرجل حتى لم يعد تعلق المرأة بالرجل شيئاً يدنس عفتها وكرامتها كما ان الشذوذ الجنسي- اصبح امراً مشاعاً في الاوساط وبصورة في المتزايدة في المدارس والكليات و... كما يتحدث عن ذلك الدكتور(هوكر): (انه لا تزال في مثل هذه المدارس، والكليات، ودور التربية للممرضات حوادث من تسافح الولدين من الجنس الواحد فيما بينهما وقد تلاشى – او كاد – ميلهم الطبيعي الى الجنس المخالف[1]..).

وقد كتب القاضي (لندسي) الامريكي: (ان خمساً واربعين في المائة من فتيات المدارس يدنسن اعراضهن قبل خروجهن منها وترتفع هذه النسبة كثيرًا في مراحل التعليم التالية: ان طالباً في مدرسة ثانوية تكون عواطفه دون عواطف الطالبة شدة والتهاباً، فالصبية هي التي تقدم ابداً وتأمر وما يفعل الصبي إلا ان

---

(١) نفس المصدر: ١٢٦.

يتبع ويأتمر[١].

وقد كثرت الفواحش- على الاخص في الامم الراقية في بادىء الامر بصورة غير منتظمة فمثلاً ان النساء اللواتي اتخذن من الفحشاء حرفة برأسها في امريكا كان يقدر مجموعهن – على اقل التقدير – بين اربعمائة وخمسمائة الف[٢] وفي فرنسا كان عدد البغايا المحترفات قبل الحرب العالمية الاولى نصف مليون[٣] فكان عليهن ان يستخدمن لهذه الحرفة الجرائد، والبطاقات المصورة، والتلفون، ورقع الدعوة الشخصية حتى جاء قوم فمهدوا الاسباب لا كراء النساء وتقدموا بحرفة البغاء الى ان اصبحت تجارة دولية منظمة[٤]، كما صرح موسيو (فردينان دريفوس) احد اعضاء المجلس الفرنسي قائلاً:

(ان حرفة البغاء لم تعد الان عملاً شخصياً، بل قد اصبحت تجارة برأسها، وحرفة منظمة، بفضل ما تجلب وكالاتها من الارباح الغزيرة فلها في هذه الايام وكلاء يهيئون (المواد الخام) واخرون يتجولون في البلاد ولها الان اسواق منظمة تستورد فيها وتصدر منها الفتيات والصبايا كالاموال التجارية، واكثر ما يطلب في هذه الاسواق من الاموال هو بنات دون العاشرة[٥].

---

(١) نفس المصدر: ١٢٨.

(٢) نفس المصدر: ١٣٠.

(٣) نفس المصدر: ٩٩.

(٤) نفس المصدر: ٨٥.

(٥) نفس المصدر: ١٠٠.

ويكتب (بول بيورو): (ان هذا العمل(احتراف البغاء) قد اصبح في زماننا نظاماً محكم التركيب يجري بها شئت من التنظيم على ايدي الموظفين، والعاملين المأجورين، والخطباء، والمحاضرون، والاطباء، والقابلات، والسياح التجار، ويستعمل له كل جديد من فنون النشر، والعرض، والاعلان[١] .

ومن اكبر اسواق البغاء في امريكا عواصم (نيويورك) و (ريودي جنيرو) و (بونس آيرس)، ولكل من المركزين الاكبرين من مراكزه التجارية في مدينة (نيويورك) مجلس تنفيذي ينتخب رئيسه وامينه بطريقة الانتخاب المألوفة ولكل من تلك المراكز مستشارون من رجال القانون يراقبها مصالحها اذا هي وقعت في قضية قانونية، ثم تستخدم تلك المراكز نخاسين لمراودة الفتيات عن انفسهن يتجولون في البلاد بحثاً عن الصيد.

ومن امتداد نفوذهم في المجتمع انه عنى رئيس رابطة الجالية بـ (شيكاغو) ذات مرة باحصاء عدد الفتيات المغويات في مدة خمسة عشر شهراً فعلم انه وردت على مكتب الرابطة رسائل (٢٠٧٠٠٠مائتين وسبعة الآف) فتاة اخبرن فيها المكتب بكونهن في الطريق الى شيكاغو.[٢]

---

(١) نفس المصدر: ص١٠٠.

(٢) نفس المصدر: ص١٣١ – ١٣٢.

الرأسمالية الجديدة

رد الفعل:

كان النظام الرأسمالي الديموقراطي يحافظ بالقسوة والعنف على حرية التجارة المطلقة التي تمخضت عن تلك المظالم والمآسي النابية ولم يكن للسلطات الحاكمة ان يضع حداً لهذه الجرائم الاجتماعية الشاملة بتحديد حرية الاقتصاد لان الرجال الماليين كانوا يكمون الافواه بالرشي، والرصاص، .. ويتباكون على الديموقراطية التي تنص على حرية الاقتصاد المطلقة وتجعلها فوق القانون ومنال الحكومات.

وحيث كان النظام الديموقراطي يوفر – ايضاً – حرية الصحافة والخطابة والمظاهرة والتصويت أخذت تضج الصحف وتعج الشوارع والبرلمانات والمعامل بالمقالات الثائرة، والخطب النارية الحامية، والمظاهرات الصاخبة، والاضرابات الطويلة المطالبة بالضرب على ايدي التجار المستأثرين وتوفير حقوق العمال والمستخدمين.

وكانت الانتفاضات المتلاحقة تضطرب بالامن والتجارفكانت تتلقى المقاومة من السلطات والتجار معاً، وحيث لم يكن يقودها غير الشعور بالحقوق السليبة كانت تقدم الضحايا وتخفق في المطاف الاخير، غير ان هذا الشعور الذي اختمر الاذهان ونضج وتجسم حتى حفز بالجماهير التي تتفجر حماساً ونشاطاً الى الشوارع والمجتمعات جعل يكسب التجارب الثمينة من المزالق التي مر بها عبر

نضاله الطويل، كما تطور الى صورة مغرية كسبت السلطات إلى جانبها وتطور منطقها أيضاً، فأخذت الجماهير تنادي: إن الدولة الجمهورية لا تكون إلا مظهراً لمصالح الجمهور الذين ينظمون قوتهم السياسية في صورة هذه الدولة فأي شيء إذن يدعو إلى الاحرار على ان تكون الحكومة الجمهورية محدودة العمل ضيقة النفوذ، كما كانت الحكومات الملكية من قبل. إن الواجب على الحكومة الجمهورية أن تعمل للمصلحة الجماعية على الوجه الايجابي، واذا وجدت المظالم في المجتمع فعليها أن تعمل على تداركها بوضع القوانين وبتدخلها الاداري المسلح كادت التجار أن تخسر المعركة تجاه هذا المنطق، كما خسرت البرلمان اليوم أن اصبح حق التصويت مشاعاً للجميع.

بركان الحرب:

لولا ان انفجر بركان الحرب التي هزت العالم هزاً ونازعت الارواح وأطاشت الافكار وانتهزت الفرصة التجار، فرفعوا اجور العمال قليلاً ورفعوا الاسعار أضعاف ذلك وتناسى العمال مطاليبهم واستسلموا للاقدار التي تحلق على رؤوسهم والبلاء الذي يحيق بهم وانصرفت الحكومات عن الشعوب وطلباتها واخذت تختلس أنفاسها الاخيرة وهي تطفوا وترسب في غمرات الحرب.

انفجارات:

فأهدرت حقوق العمال وتضاعفت قسوة الرأسمالية وكان لا بد من ذلك، غير ان الارض أخذت ترتجف وتلاحقت على الرأسماليين ضربات قاسية من

مطارق حديدية أيقظتهم في مخادعهم، فقد قامت الشيوعية في روسيا حتى استئصلت دابر البورجوازية بالحديد والنار وانفجرت (الفاشية) و (النازية) في (إيطاليا) و (المانيا) فحصرتا البورجوازيين والعمال - جميعاً - في نطاق جبري ونظام حديدي .

هذه الانفجارات الرهيبة حاسبت الرأسمالية والقت بصيصاً من الضوء على جرائمها الوحشية وهددتها بالمصير الاسود القريب، فما انفكت تقبل في نظامها الاقتصادي الحر القديم بما كانت تلقاه من ضغط العمال وقوة الجمهور المتزايدة تارة ومن تلقاء نفسها أخرى، التعديلات التالية :

تعديلات:

١- رفع اجور العمال والمستخدمين والتقليل في ساعات العمل، والرفق في احوال الاشتغال، وإعفاء النساء والاطفال من العمل والخدمة - في بعض الاحوال - والاحتفال بنفس العامل وصحته، والعمل على تحسين بيته وبيئته بالنسبة لها من قبل، والتدارك - ولو بشيء يسير - عند مصابه بضرر في البدن والترويج لبعض مشروعات التأمين الاجتماعي.

٢- قد سلموا بصفة رسمية في كل شعبة من شعب الاقتصاد بنقابات العمال والاجراء ومنظماتهم من حيث هي ممثلة لهم ومجازة بالمفاوضة عنهم، كما اعترفوا بمشروعية بعض التدابير العملية التي تساعد العمال والاجراء لحمل المستأجرين[١] وأصحاب المعامل على إجابة مطالبهم.

---

(١) المستأجرون رجال مثرون وفي اكثر الاحيان لهم علاقة بالسلطات يستأجرون الارض أو ←

٣- فوضوا للحكومة صلاحية التحكم بين رأس المال والعمال وكذلك عينت الصور القانونية والبنود القضائية والجنائية المختلفة لفصل الصراع القائم بينهما.

٤- اعترفوا بالمبدأ القائل: (ينبغي ان يفرض على الاستثمار الفردي من القيود والحدود مالا يعود معه مضراً بالمصلحة الاجتماعية ولا يقوم بفرض مثل هذه القيود والحدود إلا الحكومة) المحايدة نسبياً.

٥- نهضت الحكومة ببعض الخدمات الاقتصادية العامة كالبريد، والتلغراف، والتلفون، والقطر، وإنشاء الطرق والشوارع وتعهدها، وإنبات الغابات، وتوزيع المياه في المدن والبساتين والاراضي الزراعية، وتوليد الكهرباء وتوزيعها، وتحديد العملة ورقابتها.

٦- وفر للعمال والاجراء الحق في الاشتراك مع أصحاب الشركة، وذلك بتقسيم الشركة إلى سهام رخيصة يستطيع العامل الوضيع أن يدخر من اجره كل يوم شيئاً حتى يشتري به بعض السهام، وقد اختيرت في بعض البلاد صور ينقد العمال والاجرا فيها – وفقاً لقواعد معينة – قسماً من اجورهم ومشاهراتهم ويضم الجانب الاخر منها إلى رأس مال الشركة من قبلهم . وهكذا اصبح كثير من العمال والاجراء شركاء في ملكية شركتهم، أو مجموعة شركاتهم الائتلافية حتى ان في بعض المعامل

←

القرية أو المقاطعة من ملاكها، اونة جبراً وطوراً إختياراً، ثم يعاملون العمال والفلاحين معاملة الاقطاعي نفسه بل أقسى وأمر.

الثقيلة نحو ٨٠٪ او ٩٠٪ من عمالها شركاء في ملكيتها، ولا تزال نسبة شركتهم في نمو مطرد بمالهم من السهولة في اشتراك الاسهم بالتقسيط من الاموال ما يؤمن حاجاتهم لأنهم يعملون بأجور ضئيلة، أو لا يجدون العمل.

فلنأخذ قضيته من القضايا الحياتية كقضية تأمين المساكن، ونذكر على سبيل المثل ما جاء في (سجل الوقائع) الموضوع من قبل اللجنة الوطنية للحزب الديموقراطي في الولايات المتحدة من: أن ١٥ مليون شخصاً يعيشون في الاحياء الرثة القذرة وأن شروط السكن غير متوفرة في ١٣ مليون بناية (أي ربع مجموع البنايات) وأن ٧ ملايين بناية في المدن غير صالحة للسكن من جراء تداعيها بصورة رهيبة.(١)

افناء البضائع:

الكثير من الغلة، والفواكه، والمعلبات، والبضائع الاخر تفسد أو تبور على أثر الاحتكارفيحرقونها، أو يقذفونها في البحر كل عام، وربما تصاب الاسواق بالتخمة نتيجة لتدفق الانتاج فيهدد الرأسماليين بتخفيض الاسعار، فيعمدون إلى استعمار الشعوب الضعيفة لصرفها فيهم، أو يحرقونها قبل أن يأتوا بها إلى السوق خشية الرخص والرخاء كي تبقى الشعوب جائعة حتى لا يعز عليها دفع الاثمان الفادحة بازائها.

---

(١) خروشوف. الارقام التوجيهية، ط موسكو: ٦٩ .

إهمال العجزة:

ففي المجتمع الرأسمالي لا تعتبر الدولة، ولا المجتمع، ولا الطبقة المالكة نفسها مسؤولة عن كفالة أولئك الملايين الذين يتعطلون عن العمل رغم قدرتهم عليه، أولا يقدرون على العمل لكبر سنهم أو صغرها، أو يعجزون عنه موقتاً أو دائماً. أما التأمينات الاجتماعية فأنها أسماء اكثر مما هي حقائق وإن وجد بعض هؤلاء معونة – على سبيل المصادفة – فهو حظ لا تأمين ونظام.

تشنج الاقتصاد:

فالرأسماليون يرفعون الاسعار – حينما يشاؤن – إلى ارقام خيالية ويحدثون القحط المصطنع بخطط مرسومة ومؤامرات يحبكونها بطرق المساومات السرية والمقامرات التجارية التي تلعب بالتجارة لعب الامراء بالشعوب.

دوران التجارة:

وهذه الالاعيب الصبيانية التي يزاولها التجار تتضخم فتصيب الشعوب بصدمات اقتصادية منهكة فيكون رد فعلها نوبات الكساد والبوار التي تنتاب الاقتصاد العالمي غب كل فترة مسعورة ونشاط محموم ينبجس في صميم التجارة العالمية.

ذلك أن جشع التجار يحفزهم إلى الاكثار من التطورات التجارية والتلونات في استنزاف ثروات الشعوب باختلاق الاساليب الفنية في ابتداع المفاتن الكمالية وأدوات التسلية والترف والاغراء فيلهون بذلك عن إنتاج البضائع الاساسية، غير أن الناس لا يشعرون بشيء في باكورة الامر، وإنما يقبلون على اقتناء هذه البدائع الخلابة فينهمك التجار في الاستزادة منها وتطويرها، وإطلائها بشتى

المغريات .هكذا ينقضي دور متحفز نشيط في تاريخ التجارة وفجأة يشعر الناس بأن جيوبهم قد فرغت أو تكاد فيتراجعون عن شراء الكماليات وفجأة يحس التجار أن المخازن والاسواق قد نفضت اخر (لتر) من البضائع الاساسية عندما يرون أن البضائع الكمالية الواردة الى مخازنهم لا تستهلك بسرعة مناسبة فيتوقفون عن الطلب، والصناع عندما يرون هذا الوضع يمسكون عن الانتاج والرأسمالي حينما يتفرس التوتر وعلائم الخطر يمتنع عن الاقراض ويستعجل في استرداد ما أقرضه من قبل، وعندما تلمح الحكومة ضعف ميزانيتها تحدد نفقاتها، وهكذا تخفف المعامل والمصانع إنتاجها وتخفض الاسعار إلى ارقام اسمية ويقلل العمل وتسف الاجور فتعم البطالة ويكشر الكساد عن أنيابه وكل خطوة تقهر هكذا تقهقر خطوات عديدة أخرى معها حتى أذا وقف التجار على نقطة التحول وعرفوا أن الناس مقبلون على البضائع الاساسية – على حين ندرتها – تحولوا عن موقفهم السلبي إلى إنتاج واستيراد البضائع الاساسية فتدب الحركة في اسواق البضائع الاساسية ويخيم الكساد على أسواق الكماليات، عند ذلك يقرر المصير لطائفتين فتحتم الخسارة على أصحاب المعامل التي تنتج أدوات البذخ والترف وأرباب المخازن المتخومة بالكماليات بينما يكتب الموز لتجار المواد الغذائية والانشائية، ومالكي معامل النسيج وسائر البضائع الاساسية.

هكذا تفرط تجار من حلبة التجارة وينظم اخرون من الطبقة الواطئة إلى المباراة، وهذا الداء المعروف بـ: (دوران التجارة) يلاحق الرأسمالية ملاحقة الظل للانسان.

تفسخ المجتمع:

وهذا النظام لا يحترم حاجات الافراد ولا يدع المجتمع على ما يجب ان يكون عليه، وأنما يقدس ما يجلب الاموال بسرعة وسهولة، وليتحطم المجتمع كله على أكوام النضار، فحتى الان تعتبر المنافع الشخصية مقياساً وهدفاً للحياة، ولا يزال الاقتصاد العالمي يتركز على الربا، والاحتكار، والخمر، والقمار.

اخماد الثورة:

هذه النقائض والنقائص، والكثيرة من أمثالها لا تزال موجودة في الرأسمالية الجديدة المقيدة كما كانت في الرأسمالية الحرة، في القرن التاسع عشر، وذلك ما يدل على أن الرأسماليين لم يفكروا ولن يفكروا في اتخاذ التدابير الجذرية لمعالجة هذا النظام وفق المبادئ الانسانية النبيلة والذي حصل حتى الان ان الطبقات البرجوازية ظلت تعدل مناهجها على قدر ما لقيت من ضغط العمال واحست بخطر الشيوعية بين آن وآخر وبقدر ما يخفف سورة العامة وغضباتها النكراء ويسد الطريق على الشيوعيين في استغلال رئاسة العمال ويخدر الاعصاب الثائرة على الرأسمالية والرأسماليين دون أن تكون هناك أية رأفة بالعمال، او اي تقدير لحقوقهم ومشاعرهم.

تقرير:

فالنتيجة الملخصة ظهر ان هذا النظام فاشل لا يستطيع حل المشكلة الاقتصادية وهي توزيع السلع والخدمات على الافراد وتشجيع الطبقات وغذيها بالحقوق القانونية المسلحة، ولم يستطع ان ينظم الاقتصاد في نطاق الاديان

والاخلاق فاضطر الى الى تحطيم الاديان والاخلاق وجماع القيم والفضائل وهكذا جرد المجتمع من الايثار والتراحم والتعاطف والثقة المتبادلة وكل ما يرفه عن الانسان في الحياة وابدلها بعراقيل وقيود مضنية وصراع عسكري مسلح.

وهاته الفكرة المادية الهوجاء عصفت بالمجتمعات الرأسمالية حتى جعلتها على جرف هار يتأرجح للسقوط، ثم انطلقت تصب على العالم الاستعمار والحروب، كما ان كل بند من بنود هذه الفلسفة وكل ما جاء فيها من تفاصيل واحكام مغلوطة متفاقمة التناقض تعرقل سير الاقتصاد وتحرفه عن منهاجه الكامل الصحيح .

هذه هي الرأسمالية:

وتلك بعض سيئاتها ومفاسدها التي اباحتها بكل صفاقة وجرئة تبعاً لحرية التجارة والاقتصاد التي اعلنتها باديء ذي بدء، فصبت العذاب الاليم على رأس الانسان وهي الان وبعد ما وقفت على اخطائها وجرائمها لا ترضى ان تعلن انهزامها من الميدان عناداً لا لشيء، ولقد آن للناس ان يعرفوا الفكرة الرأسمالية لا تصلح شيئًا من حياتهم الاقتصادية، فلا بد ان ينبذوها لا الى الاشتراكية ولا الى الشيوعية فهما اسوأ من الرأسمالية، بل الى الاسلام.

الاقتصاد الشيوعي

فكرة الشيوعية:

يزعم قادة الشيوعية إن الإنسان بفطرته الأصيلة ليس مجبولاً على الاستئثار والاستغلال ، وإنما البيئة هي التي تطبعه بطوابعها وتوحي إليه بكل ذلك ، ومن الممكن تجريده من الميول الشريرة والعقلية الفردية حتى يلبى نداء العقلية الجماعية والمدنية المركزة في الإنسان وعندما يحقق ذلك يقضي بصورة تلقائية على الصراع القائم بين إنسان وإنسان كنتيجة طبيعية لتسابقهما على المنافع الشخصية المعينة ويعود الإنسان ملاكاً طهوراً مجرداً عن حب الذات والظهور، والاستغلال، والاستئثار، والاستعلاء ،... ويصبح فوق منال النوازع والجواذب الداخلية والخارجية ، وينصهر في بوتقة الاجتماع حتى يتسم بنكران الذات نكراناً تاماً ، فلا يكاد يشعر بكيانه ومصالحه الفردية ، وإنما ينتصب تجاهه الاجتماع ومصالحه فهو أبداً يعمل ويعمل للاجتماع ولا يتذكر نفسه إلا عندما تلح عليه الحاجة فيتناول من البضائع ما يشبعها دون أيما ترف ثم يستمر في الجهاد والتضحية بنفسه ومواهبه في سبيل الاجتماع ، عندئذ يخرج الإنسان من مملكة الحيوان إلى دولة الإنسان وتنطبق عليه الصيغة الشيوعية (من كل حسب مقدرته ، ولكل حسب حاجاته) .

ولا تقع هناك معارك تحتاج الى تدخل المحاكم في فصلها، فالصراع ابداً يكون على المصالح الفردية المتزاحمة ولا تبقى في المجتمع الشيوعي مصالح فردية، كما

لا توجد هناك مباراة في ميدان حتى ينشب الصدام على النتيجة، وبعد ذلك لا تبقى حاجة او فائدة للدولة هنالك يعود الانسان الى حالته الطبيعية، ويلغي القيود والحدود المفتعلة كما كان اول يوم وضع قدميه على الأرض، فقد كان يعيش في مجتمع شيوعي تسوده الفطرة البشرية الطاهرة غير الملطخة بالحضارة والمدنية.

تلك هي فلسفة الشيوعية الاساسية التي انفصلت منها القوانين والبرامج وتتلخص هذه الفلسفة في الصيغتين التاليتين:

١- فطرة الإنسان ليست مختمرة بحب الذات ، أو الاستغلال والاستعباد، وإنما هي فطرة جماعية لا فردية ، وانما طبعتها البيئة بطوابع يمكن تجريده منها وإعادته إلى ما كانت عليه أول يوم .

٢- إن المراحل التي مرت بها البشرية عبر التاريخ والقرون هي :

أ-الشيوعية الأولى .

ب-الرق .

ج-الإقطاع .

د-الرأسمالية .

هـ-الشيوعية الثانية .

مرحلة التطبيق:

فيستنتجون من ذلك كله انه لا بد من اعادة الفترة الشيوعية الاولى لاسعاد البشرية وازدهارها ولا بد لذلك من:

١- استيلاء (البروليتاريا)[١] المتمثلة في الحزب الشيوعى على الحكم بالقوة والعنف.

٢- القضاء على رأس المال والربح الناتج منه.

٣- القضاء على كل ما يعزز كيان الفرد ويوقظ فيه النزعة الفردية وذلك بانتزاع الملكية الفردية وبعثرة العائلة .

٤- تأميم وسائل الإنتاج[٢] بمصادرة الثروات وجعلها ملكاً للمجموع.

٥- القضاء على الطبقات وعلى البروليتاريا ذاتها بصفتها طبقة.

٦- تجريد المجتمع من الدين والأخلاق وكل ما يعرقل سير الشيوعية من القوانين السائدة في البلاد.

٧- إجبار الأفراد على العمل حسب طاقاتهم .

٨- توزيع البضائع حسب حاجات الأفراد .

٩- القضاء على الدولة .

وللتدليل على صدق هذه النقاط نسجل تصريحات زعماء الشيوعيين.

---

(١) كلمة روسية معناها: طبقة العمال.

(٢) التأميم: هو سيطرة الدولة على الممتلكات وتصريفها في مصالح الشعب بصفتها ممثلة لمجموع الافراد.

ديكتاتورية البروليتاريا:

أول ضرورة من ضرورات قيام العهد الشيوعى هو استيلاء طبقة البروليتاريا على الحكم بالقوة والعنف كما يصرح بذلك كارل ماركس وفردريك انجلز: (... حتى الساعة التى تنفجر فيها هذه الحرب بشكل ثورة علنية وتؤسس البروليتاريا سيطرتها – بعد القضاء على البرجوازية(١) – بالشدة والعنف...)[٢]

ويسترسلان الى حيث يقولان: (.. اما هدف الشيوعيين المباشر فهو الهدف نفسه الذي ترمى اليه جميع احزاب العمال أي تنظيم البروليتاريا في طبقة وهدم سيادة البرجوازية واستيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية[٣].

ثم يؤكدان ذلك – ايضاً – : (ان المرحلة الاولى في ثورة العمال هى كما رأينا تشييد البروليتاريا في طبقة سائدة والاستيلاء على الديموقراطية وتستخدم البروليتاريا سيادتها السياسية لاجل انتزاع رأس المال من البرجوازية ولا يتم ذلك الا بخرق حق التملك ونظام الانتاج البرجوازي بالشدة والعنف (٤) .).

فالخطوة الاولى من خطوات الشيوعية هى: ان تتسنم البروليتاريا السلطة السياسية بالشدة والعنف وهدفها الاخيرحذف الديموقراطية لتبقى الدكتاتورية والارهاب المتسرب الى جميع جوانب الحياة، وكانت وصية كارل ماركس بذلك

---

(١) كلمة افرنسية معناها: الطبقة الوسطى من مالكي وسائل الانتاج.

(٢) (البيان الشيوعي): ٤٠.

(٣) نفس المصدر: ٤٣.

(٤) نفس المصدر: ٥٢ –٥٣.

تستند الى حجج هى: (ان مجرد قيام انقلاب شيوعى لا يكفى لتحقيق مبادئ الشيوعية لان العبرة بالتنفية، فالطبقة الرأسمالية التى تسحقها طبقة العمال ستحاول دائماً التآمر ضد الثورة الشيوعية كما ان الطبقة العاملة ينقصها دائماً العلم والتنظيم لانها جاهلة وغير منظمة بحكم نشأتها، ومن هنا سيصبح حتماً على العمال ان يواجهوا مشكلتين خطرتين هما:

اولاً: عدم قدرة الطبقة العاملة على حكم نفسها بنفسها عندما تؤل اليها السلطة.

ثانيا: خطر قيام الطبقة الرأسمالية بمحاولات ناجحة باسترداد سلطتها المسلوبة، ولذلك ينبغى ان تقوم على اثر الانقلاب الشيوعى دكتاتورية عمالية عمادها هيئة مختارة من قادة العمال المثقفين تتولى الحكم وتهيأ الشعب للنظام الشيوعي[1].

وبعدما جاء (لينين) الى الحكم اخذ يردد نفس النغمة معلناً ان حكومته لم تقم الا بالقوة والدكتاتورية: (من المؤكد ان جميع الناس يرون ان البلاشفة[2] كانوا يستطيعون البقاء في الحكم لا اقول سنتين ونصف سنة، بل حتى شهرين ونصف شهر لو لا نظام الطاعة الصارم، لو لا نظام الطاعة الحديدي حقاً في حزبنا[3] ...)

---

(١) (النظام الشيوعي): ٦٧.

(٢) البلشفيك معناها: الاقلية مقابل المنشفيك التي معناها الاكثرية والبلشفيك هو حزب الشيوعيين سمو حزبهم بهذا الاسم حيث كانوا اقلية .

(٣) ستالين . (اسس اللينينية)، ص٩٧ -٩٨ نقلاً عن لينين من كتابه: (مرض الطفولة في الشيوعية): ص ١٧٣.

فلولا الدكتاتورية العاصفة التى تذرع بها لينين واوصى بها كارل ماركس وانجلز لما كتب البقاء للحكومة الشيوعية لا سنتين ونصف سنة بل ولا شهرين ونصف شهر.

ثم رأى لينين ان القوة التي تتسلح بها الحكومة السوفياتية والحزب الشيوعي لا تستقل بكبت الاصوات، لذلك ضمّ اليهما قوة البروليتاريا، ففرض عليها الدفاع عن الحكومة الشيوعية: (... ولكن في الدولة البروليتارية التي هي من النوع الانتقالي كدولتنا لا يمكن ان يكون الهدف النهائي لكل عمل تقوم به الطبقة العاملة سوى تقوية الدولة البروليتاريا وتقوية سلطة الدولة التي تمارسها طبقة البروليتاريا وذلك بالنضال ضد كل ما يقع من تشويهات بيوقراطية(١) لهذه الدولة(٢)...).

فلما كان دور ستالين وقام بالاعمال القاسية التي تقزز منها النفوس وتقشعر منها الابدان حاول تبرير موقفه فقال عام ١٩٣٤م: (لماذا نتفاخر بسلطتنا الطاغية؟ ولماذا نتفاخر باجراءات القمع الصارمة التي نلجأ اليها؟ ولماذا نتفاخر بسلطتنا المطلقة؟ الجواب هو اننا نتفاخر بها لانها سبيلنا الى النصر والنجاح ولن نفلح في تدعيم النظام الشيوعي إلا اذا اتصفنا بالصرامة والقسوة والطغيان والاستبداد، ... كل ذلك ريثما تتحقق الثورة الشيوعية العالمية(٣).

---

(١) (البيوقراطية – ضد الديموقراطية – معناها الفردية.

(٢) لينين. ((حول دور النقابات ومهماتها)) ط دار الفارابي، ص١١.

(٣) (النظام الشيوعي): ص٢٥.

وصرح عام ١٩٢٨: (.. اوصانا لينين بان نكون قساة عتاة في معاملتنا مع اعدائنا في الداخل والخارج، ونحن لا نريد ان ندع اعدائنا في الداخل والخارج يعملون ضدنا، بل انه يتعين علينا ان نمنعهم بالقوة من ذلك، ولهذا نعتبر الوسائل العنيفة القاسية التي نعامل بها خصومنا عملاً مشروعاً له ما يبرره مهما بدا هذا العمل استبدادياً وطاغياً)[١].

ولقد جعل ماركس القوة قانوناً وحقاً فقال سنة ١٨٦٠م: (القوة هي التي تحدد مصير كل شيء فالقوة هي القانون الطبيعي الذي يكشف عن نفسه في كل ميدان، ولهذا فاننا نؤمن بأن الحق كامن في القوة ونؤمن بأن القوة هي سبيلنا الى النصر)[٢].

وسار على خطته لينين حيث قال سنة ١٩٠٥م: (فلتكن سياستنا قائمة على اساس القوة فبالقوة نرهب خوصومنا وبالقوة يحترمنا انصارنا وبالقوة نحطم النظام القديم وبالقوة نقيم نظاماً جديداً ان القوة هي مفتاح النصر)[٣].

ثم اضاف على ذلك قائلاً سنة ١٩٢٢: (ليس الشيوعي الصادق هو ذلك الشخص الذي يؤمن بتجريد خصمه من قوته فحسب، بل الشيوعي الصادق هو ذلك الشخص الذي يقتل خصمه بعد ان يجرده من قوته فالموت هو الشيء الوحيد الذي يريحنا من خصومنا)[٤].

---

(١) (النظام الشيوعي) ص٢٤.

(٢) (النظام الشيوعي) ص٢٢.

(٣) نفس المصدر: ٢٢.

(٤) نفس المصدر: ٢٣- ٢٤.

وقد اخذ استالين يفسر دكتاتورية البروليتاريا سنة ١٩٣٠م: (اريد ان اوضح لكم ان تعاليمنا تسمح لنا بالطغيان ،ألا نسمي نظامنا دكتاتورية البروليتاريا، ان هذه الدكتاتورية المستبدة هي سلاحنا في المعركة)[١].

وقال ستالين عام ١٩٣٣م: (يجب ان يكون مفهوماً اننا نؤمن بالاستبداد، ونؤمن بالطغيان، ونؤمن بالعنف لان نظامنا الثوري القائم على اساس القضاء على الطبقات يتطلب الالتجاء الى كل هذه الوسائل)[٢].

مصادرة رأس المال:

وفي الثورة واللحظة التي تقيض فيها البروليتاريا على زمام الحكم تبتدر الى القضاء على رأس المال والربح الناتج منه، كما يقرر ذلك ماركس وانجلز: (ان المرحلة الاولى في ثورة العمال هي – كما رأينا – تشييد البروليتاريا في طبقة سائدة والاستيلاء على الديموقراطية، وتستخدم البروليتاريا سيادتها السياسية لاجل انتزاع رأس المال من البرجوازية ومركزة جميع وسائل الانتاج في ايدي الدولة، ولا يتم ذلك الا بخرق حق التملك ونظام الانتاج البرجوازي بالشدة والعنف، أي باتخاذ تدابير، وتختلف هذه التدابير –طبعاً– اختلافاً كبيراً في مختلف الاقطار غير انه يمكن تطبيق التدابير التالية، بصورة عامة في اكثر البلاد تقدماً ورقياً:

---

(١) نفس المصدر: ص ٢٤.

(٢) نفس المصدر: ص ٢٤.

١- نزع ملكية الاراضي الكبرى وتخصيص الريع العقاري لتغطية نفقات الدولة.

٢- فرض ضرائب متصاعدة جداً.

٣- الغاء الوراثة.

٤- مصادرة جميع املاك المهاجرين العصاة المتمردين[١].

ولا يغفل انجلز ان يؤكد هذا المعنى: (وحينما تقبض البروليتاريا على زمام الحكم تحول وسائل الانتاج الى تملك الدولة وبذلك تتخلص من طابعها البروليتاري[٢].

ثم يكرر مناداته بذلك باعتبارها النقطة المركزية في تشييد الكيان الشيوعي: (... تتولى البروليتاريا على سلطة الدولة وتحول وسائل الانتاج باديء ذي بدء الى ملكية الدولة[٣].

القضاء على الملكية الفردية:

ويتلو ذلك كله حملة عاصفة، للقضاء على الملكية الفردية بصورة واسعة، وان لم تكون رأس المال .! فان من يملك ملكية معينة، باستطاعته ان يستغني عن الدولة، ولو فترة قصيرة، فيتمرد على مقدساتها، وذلك ما تخشاه الحكومة

---

(١) (البيان الشيوعي): ص ٥٢ -٥٣.

(٢) فردريك انجلز، (الاشتراكية بين الخيال والعلم) ص٧٢.

(٣) لينين ، (الدولة والثورة)، نقلاً عن انجلز ص ٢١- ٢٢.

الشيوعية، ولذلك تعمد الى انتزاع الملكية الخاصة من جميع الافراد، كي يظلوا محتاجين الى الدولة عند كل وجبة طعام.

هكذا نجد ماركس وانجلز يصرحان : (.. وعلى هذا فباستطاعة الشيوعيين: ان يلخصوا نظريتهم بهذا الصدد في هذه الصيغة الوحيدة، وهي: القضاء على الملكية الخاصة.[١]

ثم نجدهما يسجلان هذه الصيغة في موضع اخر: (ان ظروف معيشة المجتمع القديم قد اضمحلت، ولم يبق لها اثر في ظروف معيشة البروليتاريا، فالبروليتاري محروم من الملكية[٢] وحاول لينين تنفيذ هذه الخطة واضاف اليها قائلا: عام ١٩٢٠م (يجب ان يكون مفهوما: ان العامل الذي يعمل في معمل من المعامل لا يملك نفسه، فالمعمل هو الذي يملكه[٣].

وليس من العجيب ان يدلي لينين بهذا التصريح بعدما تلقى من اسياده البيان التالي: (ان كل الطبقات التي كانت تستولي على السلطة فيما مضى، كانت تحاول تثبيت اوضاعها المكتسبة، باخضاع المجتمع باسره لاسلوب التملك الخاص بها، ولا تستطيع البروليتاريا الاستيلاء على القوى المنتجة الاجتماعية، الا بهدم اسلوب التملك الذي كان خاصاً بهذه القوى أي بهدم كل اسلوب للتملك

---

(١) (البيان الشيوعي) ص٤٣.

(٢) نفس المصدر ص٣٩.

(٣) (النظام الشيوعي) ٤٧

مرعى الاجراء الى يومنا هذا. ولا تملك البروليتاريا شيئا خاصا بها، حتى تصونه وتحميه ! فعليها اذن ان تهدم كل ضمانة خاصة، وكل امان خاص موجود[١].

وعلى ضوء هذه التعاليم صرح استالين سنة ١٩٢٧م : (ان النظم الاقتصادية التي تؤمن بها الشيوعية، هي النظم التي تعتمد على ثلاثة اسس، هي أولاً: الغاء الملكية الفردية، الغاءاً تاما، وثانيا: القضاء على نظام الطبقات، قضاءاً تاما، وثالثا: احتكار الدولة لكل مصادر الثروة احتكاراً تاما،.. ولهذا فاننا نعارض كل النظم الاقتصادية التي لا تقوم على هذه الاركان الثلاثة[٢].

واضاف قائلا سنة ١٩٣١م : (نحن لا نسمح لاحد بادخال المال، واستخدامه في شراء العقار ! ذلك اننا نناهض كل ضرب من ضروب الملكية الخاصة[٣].

ولقد كان لينين يتبجح ببيانات اسياده ويضيف عليها اشياء واشياء ولكن اسياده كانوا يتفلسفون ويكتبون، وما اسهل ان يفرغ الانسان خواطره على الورق، كما ان لينين – ايضا – قضى شطراً من حياته وكانت الاحلام تداعب خياله، وهو يترنح على اراجيح الاوهام، فكان يكيل الخطط ويفصلها بلا حساب. وما ان بلغ مرحلة التطبيق حتى اصطدم بالواقع الحي، الذي حد من طيشه، وفل نشاطه وعزائمه، فجعل يرزح تحت الكابوس الذي اعده لنفسه،

---

(١) كارل ماركس وفردريك انجلز. (البيان الشيوعي) ص ٣٩.

(٢) (النظام الشيوعي) ٤٦

(٣) نفس المصدر : ٤٨.

فلنسمع الى زفراته: (.. ولكنه من الصعب الى ما لا حد له، محو الطبقات، فان الانقسام الى عمال وفلاحين ما يزال قائما، فاذا اقام الفلاح على قطعة من الارض واستاثر بفائض قمحه، أي القمح الذي لا يحتاج اليه، لا لنفسه ولا لماشيته، في حين يظل جميع الاخرين بلا خبز، فان هذا الفلاح يستحيل اذ ذاك الى مستثمر...

ينبغي ان يشتغل الجميع وفقا لبرنامج مشترك، على ارض مشتركة وفي المصانع والمعامل المشتركة، وفقا لنظام مشترك[١]).

ثم جعل يستصرخ الشيوعيين لينظموا البروليتاريا في كفاح مشترك عليهم يؤدون مسؤليته : (ان الاخلاق الشيوعية، انما هي الاخلاق التي تخدم هذا النضال، وتوحيد الشغيلة ضد كل ملكية صغيرة، لان الملكية الصغيرة تضع في يدي فرد واحد ما ابدعه المجتمع باسره، ان الملكية بنظرنا ملكية مشتركة[٢]).

بعثرة العائلة:

ان بعثرة العائلة واشاعة النساء، من الشيوعية كجزء لا يتجزأ منها فالمجتمع الشيوعي – كما يقول لينين – انما هو شيوعية في كل شيء[٣] والعائلة تعرقل طريق الاقتصاد الشيوعي في الصميم !! فهي - اولا – تهدر فيضا من نشاط رب الاسرة، لحماية مصالحها، والدفاع عنها، والولاء للاسرة يعوق الشيوعي عن القيام بواجباته العامة والخاصة، وربما يدفعه الى مخالفة النظام، وذلك ما تأباه

---

(١) لينين . (مهمات منظمات الشباب) ص١٧ ط موسكو.

(٢) لينين نفس المصدر: ١٨

(٣) لينين نفس المصدر: ٢٣

الشيوعية كما صرح بذلك ستالين سنة ١٩٣٠م : (ما دمنا ننكر الاديان، فاننا لا نستطيع ان نأخذ بالاراء القائلة بان للاسرة قداسة ... فكل القداسات زائفة. نحن لا نريد ان يكون للاسرة اي نوع من انواع القداسة... مثلما لا نريد ان يصبح الولاء العائلي، عائقا يحول دون تحقيق اهدافنا[(١)] .

وكما صرح من قبله لينين عام ١٩٢٢م : (حن لا نؤمن بالافكار المثالية من الاسرة، فهذه الافكار المثالية تنادي بجعل الاسرة مجتمعا ذا كيان خاص له استقلاله ... ونحن لا نؤمن بمثل هذه المثالية، التي تشجع على جعل الوطن مجموعة من الاسرات المستقلة[(٢)] .

وفيما بعد رأى استالين ان يكشف النقاب بكل صراحة، فماذا يلجمه عن التصريح بنواياه ؟ أليس هو الدكتاتور الجبار؟ فليقل بكل وقاحة وصفاقة! : (.. دعوني اذكر لكم بصراحة : انه من الخطر على حياتنا السياسية تشجيع ذلك المفهوم الخاطيء للاسرة، واقصد بذلك الاراء القائلة بأن هناك ما يسمى : الولاء للاسرة! فالولاء الوحيد المسموح به هو الولاء للدولة[(٣)] .

ثانياً: ان الشيوعية تفرض العمل الاجباري على جميع القادرين من الرجال والنساء على حد سواء[(٤)] والعائلة تشل هذه الحركة، لانها تشغل النساء بالاعمال

---

(١) ((النظام الشيوعي) ص٥

(٢) نفس المصدر: ٥٠

(٣) نفس المصدر : ٥٠

(٤) (دستور الاتحاد السوفياتي)) ص٥ المادة١٢ .

البيتية، حتى لا يسنح لهن القيام بالاعمال الخارجية

ثالثا: ان فشل ماركس في الغرام الذي عصف به في غضون شبابه، هو الذي دفعه الى الانتقام من البورجوازية، عن طريق الدعاية للشيوعية[١] وتبعا لذلك نجد ان حملات ماركس على العائلة، تختلف عن هجماته على الرأسمالية والبرجوازية فتراه ينادي – في سخرية واستهزاء: (يا للهول !.. حتى اشد تطرفا تسخطهم نية الشيوعيين، هذه الفاضحة المرذولة).

ثم يحاول ان يطمئن نفسه تجاه هذه الغضبة القاصفة حتى من اشد الناس تطرفا فيتسائل: علام تتركز العائلة؟ أليست تتركز على رأس المال؟ فاذن لا مبرر لهذا القلق! فسيقضي على رأس المال وبالطبع يقضي على العائلة:

(ولكن على أية قاعدة تتركز العائلة البرجوازية في الوقت الحاضر إنها تتركز على رأس المال والربح الفردي! والعائلة بكامل كيانها، وتمام بنياتها، ليست موجودة إلا عند البرجوازية فقط! ولكن تتمتها هي الالغاء القسري لكل عائلة بالنسبة للبروليتاريا، ثم البغاء العلق).

وبعد ذلك يؤكد: أن الصلات الع)ائلية سوف تنفصم! فان الصناعة الكبرى تستخدم الاولاد وتحولها الى تجارية بسيطة:

(ان تشدق البورجوازيين الفارغ عن العائلة والتربية، وعن الاواصر

---

(١) وللتفصيل أنظر: محمد سعيد رمضان البوطي في((المذهب الاقتصادي بين الشيوعية والاسلام) ص١٤-١٥.

والصلات العذبة، التي تربط الولد بأهله، يصبح يوما بعد يوم سخيفا ممضا!! اذ ان الصناعة الكبرى تهدم كل صلة عائلية عند البروليتاريا وتحول الاولاد الى مواد تجارية بسيطة وادوات عمل صرفة).

وحيث سجل ماركس لنفسه الانتصار نراه يستلقي على قفاه، ليضحك من العقلية البورجوازية، التي تستنكر إشاعة النساء... زاعما:

أن هراء البورجوازيين سوف لا ينفعهم، فقد كانت إشاعة النساء موجودة لدى البورجوازيين أنفسهم بصورة مكتومة وغاية ما ينتقمون من الشيوعيين: أنهم يريدون إسقاط النقاب، قائلين: ما هذا النفاق؟ فما دامت الاشاعة موجودة، فلتكن رسمية صريحة! ولنستمع إلى قهقهات ماركس ومن حوله إمعانة، يساعدونه في الضحك البذيء:

(لشد ما يضحكنا هذا الذعر فوق الاخلاقي، الذي توحيه الى البورجوازيين إشاعة النساء الرسمية... ليست بالشيوعيين حاجة إلى إدخال إشاعة النساء، فهي تقريبا كانت دائما موجودة[1].

وعندما سئل أنجلز: ما هو وقع النظام الشيوعي في العائلة؟

أجاب: (سيجعل علاقات الرجل مع المرأة، علاقات ودية محضة، متقصرة على الاشخاص (المشتركين بها)! دون ان يكون للمجتمع أدنى تدخل فيها.[2]

---

(١) كارل ماركس وفردريك انجلز (البيان الشيوعي) ص٤٧-٤٨.

(٢) (التعاليم الشيوعية) ص٣١.

تأميم وسائل الانتاج:

وبعد ما تم القضاء على رأس المال، ومصادرة جميع الملكيات العامة والخاصة، يجب تسليمها إلى الدولة: ممثلة المجموع[١] لتصرفها في مصالح الشعب، وفق موازين عدل تضعها الدولة بنفسها!. دون ان يكون لاحد أي تدخل فيها. كما ينص على ذلك الدستور السوفياتي: (تحدد الحياة الاقتصادية، للاتحاد السوفياتي، وتدار بموجب مشروع الدولة، للاقتصاد الوطني[٢].

اكتساح الطبقات:

وبعدما تستلم البروليتاريا مقاليد الحكم، وثروات الشعب: مجموع الممتلكات الفردية والجماعية، تنعطف على الناس، لتفرض عليهم العمل الاجباري كما يصرح به ماركس وانجلز: (جعل العمل إجباريا للجميع)[٣].

وتلغي الاسواق والنقود! لأن كل فرد يتقاضى عن عمله اليومي، من البضائع ما يشبع حاجاته، فلا تبقى حاجة الى الاسواق أو النقود: (وعندئذ يصبح في وسع السلطة المركزية، أو اية هيئة مركزية إقتصادية وإجتماعية أخرى . أن تدير كل الانتاج الاجتماعي، وان توزع المنتجات في مصلحة المجتمع. بدون

---

(١) لقد مرت النصوص على ذلك في (مصادرة رأس المال) و (القضاء على الملكية الفردية).

(٢) (دستور الاتحاد السوفياتي) ص٥ المادة١١ .

(٣) (البيان الشيوعي)ص٥٣ المادة ٨

توسط السوق، وبدون استعمال النقد الذي لن يبقى ضروريًا[١] .

فتندمج الطبقات في طبقة واحدة، هي : البروليتاريا العاملة... وما تفتأ البروليتاريا ذاتها، أن تحطم طبقيتها.! كي لا تكون طبقة متحيزة إزاء مجموع عناصر الشعب الذي انصهرت فوارقها ومميزاتها الذاتية منها والعرضية واندمجت في صيغة واحدة، هي: الشعب، يرسم هذا المصير المشترك لألبروليتاريا وغيرها ماركس وانجلز : (فاذا كانت البروليتاريا في نضالها ضد البورجوازية، تبني نفسها حتما في طبقة، وإذا كانت تجعل نفسها بواسطة الثورة طبقة حاكمة، ثم بصفتها طبقة حاكمة تهدم بالعنف والشدة نظام الانتاج القديم، فأنها بهدمها نظام الانتاج القديم، تهدم في الوقت نفسه ظروف التناقض والتناحر بين الطبقات، وتهدم الطبقات بصورة عامة، وبذلك تهدم أيضا سيادتها ذاتها، من حيث انها طبقة[٢] .

فالطبقات يجب أن تهدم.! ولكن انجلز يرى أن الطبقات سوف تنهدم بصورة طبيعية، كما أنها تكونت بصورة طبيعية، وحتمية، في الوقت نفسه: (... وهكذا سوف تتلاشى الطبقات، بمثل الحتمية التي ظهرت فيها[٣] ...).

---

(١) (الاتحاد السوفياتي في مائة سؤال وجواب)ص١٤٠ن. دار البديع.

(٢)(البيان الشيوعي)ص٥٤

(٣)لينين (الدولة والثورة)ص ٢٠ نقلا عن انجلز

(... ولكنها إذ تفعل ذلك تقضي على نفسها بصفتها بروليتاريا[١]).

وقد مضى- خلال التصريحات المتقدمة، وسيأتي، وفر من النصوص التي تؤكد: أن المجتمع الشيوعي يجب ان يحطم الطبقات، ويقضي- حتى على البروليتاريا بصفتها طبقة!!.

الغاء الاديان:

من المبادئ المركزية في الشيوعية وإزاحة الاديان حتى عن قلوب الافراد!! وذلك أن الاديان أية كانت تربط الفرد بالله، الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والارض، وتحرم على الانسان القتل، والاضطهاد، والكذب والخداع، والغش، والسلب، والفحشاء.. فاذا علم الفرد – بواسطة الايمان– ان التوسل بهذه الوسائل، محظور عليه، والملائكة يسجلون جميع اعماله في كتاب لا يظل ربي ولا ينسى، والله من ورائهم محيط... فاذا كان الشيوعي مؤمناً بهذه المبادئ فسوف لا يستخدم الوسائل المحرمة، في سبيل خدمة الشيوعية، بل يتخلى عن الشيوعية في اللحظة التي عرف فيها هذا المبدأ الهدام.. وهكذا تخسر- الشيوعية مصالحها في كل مجال... ولذلك عمد قادة الشيوعية الى تبني المبدأ القائل: (الغاية تبرر الواسطة!)، التي تبيح للانسان اجتراح السيئات كلها في سبيل انتصار القضايا الشيوعية، كي لا يتوقف الشيوعي عن ارتكاب الحرام لتقدم، او ازدهار مبدئه، فتخسر المنظمة الشيوعية ربحا متاحا!..

(١)نفس المصدر ص٢١-٢٢

كما ان الاديان لو ظلت تسود البلاد، اندحرت الشيوعية، ولم تجد لها نصيرا، حتى ولا واحدا! لأن الشيوعية – على أحسن تقدير – نظام مختلف يناهض نظام الاديان، ولن يستبدل المؤمن دينه بنظام مختلف!!!

لذلك كله نجد الشيوعيين المبدئيين يكرسون جهودهم لازاحة الاديان عن مجال النشاطات العامة، كي يبلغوا بذلك نشر نفوذه، ويحاولون خنق نور الايمان في قلوب الشيوعيين المخدوعين، حتى يطمئنوا من استسلامهم الكامل، وانقيادهم الصادق، لتنفيذ الخطط الجهنمية الموحات إليهم...

كما صرح بهذه الحقيقة ستالين عام ١٩٣٨م: (يجب على الشيوعي المخلص: ان ينكر الدين فالدين يمنع المؤمن من التوسل بالكذب، والخداع، والغش، والتضليل في نشر الدعوة التي يريد نشرها... اما الشيوعي المخلص الذي ينكر الدين ولا يؤمن به، فانه يستطيع: ان يحرر عقله من افكار الدين المثالية... وهكذا يستطيع : ان يتوسل بكل الوسائل من كذب الى خداع، الى تضليل، الى غش، في تحقيق الاهداف الشيوعية[١].

ولهذا الغرض تبنوا (الديالكتيك) كفلسفة اساسية يركزون عليها مبدئهم ... معتزين بافكار (هيجل) و (ولودفيغ فورباخ) و (دارون) و (فرويد) ... مرددين مع (هراقليط): ذلك الرجل الاغريقي: (العالم هو واحد لم يخلقه اي إله، او اي انسان! وقد كان ولا يزال وسيكون شعلة حية الى الابد، تشتعل وتنطفيء تبعاً

---

(١) النظام الشيوعي ص٥٤.

لقوانين معينة[١] ...

هكذا نجد كارل ماركس وفردريك انجلز يهتفان، بكل وقاحة وصفاقة: (... وما القوانين والقواعد الاخلاقية، والاديان بالنسبة اليه (العامل) الا اوهام بورجوازية، تستتر خلفها مصالح بورجوازية[٢] ..).

بهذه الاتهامات والتشويهات الفارغة، يحاول ماركس :ان يشوه الاديان ويقضي عليها، قبل ان تقضي عليه، غير ان لينين اخذ يعبر عن الواقع الجاثم في وجهه حيث رأى ان الدين يكون سداً منيعا امام افكار الاشتراكية، لذلك جعل يحارب الدين اقترابا من الواقع الاشتراكي، فصرح عام ١٩٠٢م (كلما تحررنا من نفوذ الدين، ازددنا اقترابا من الواقع الاشتراكي...ولهذا يجب علينا: ان نحرر عقولنا من خرافة الدين[٣] .

ومن هنا اخذ يطلق التهم والافتراءات على الدين عله ينفر الناس منه فقال لينين سنة ١٩٠٥م : (الدين هو افيون الشعوب ... فالدين ورجل الدين يخدران اعصاب المظلومين والفقراء ويجعلانهم يرضخون للظلم[٤] وحيث لم تنجح مؤامراته ضد الدين بالالفاظ المتبجحة، جعل يوجه حزبه لمحاربة الدين قائلاً

---

(١) ستالين (المادية الديالكتيكية) ص ٢٧.

(٢) (البيان الشيوعي) ص ٣٩.

(٣) (النظام الشيوعي) ص٥٢.

(٤) (النظام الشيوعي) ص٥٢.

سنة ١٩٠٥م: (ان حزبنا الثوري لا يستطيع ان يقف موقفا سلبيا من الدين ... فالدين خرافة وجهل[١] وحيث كان ذلك قبل الثورة الشيوعية في روسيا، كان يرهب غضبة الشعب اذا اطلعوا على الحاده وكفره فكان يوصي حزبه سنة ١٩٠٥م : (يجب : ان تهتم عناصرنا التي تقوم بالدعاية للشيوعية، بنشر الالحاد والدعوة له، ولكن بطرق سلمية خفية[٢].

وصرح عام ١٩٠٥م : (لماذا لا نعلن في برامجنا اننا ملحدون؟ اننا نفعل ذلك لكي لا نزود خصومنا بسلاح يهاجموننا به... فعدد المؤمنين بالله لا يزال يفوق عدد الملحدين[٣].

وبعدما سيطر الحزب الشيوعي على روسيا، وساد الارهاب وزجوا بالمؤمنين، في اللحود والسجون، وخنقوا اصوات الشعب، حتى ذابت في ازيز الرصاص وهدير المدافع، سقط النقاب واذا بستالين يقول عام ١٩٢٧م : (اننا نقوم بالدعوة ضد الدين الان، لاننا اقوى من ان ينال خصومنا منا عن طريق التشهير بالحادنا ... لقد كنا نحرص في الماضي على عدم اعلان الحادنا لاننا لم نكن اقوياء، اما الان فاننا نعلن بصراحة اننا ملحدون، واننا نرى في الاديان خطراً على الحضارة الانسانية... فالاديان افيون مخدر[٤].

---

(١) نفس المصدر: ٥٣.

(٢) نفس المصدر: ٥٢.

(٣) نفس المصدر: ٥٢.

(٤) نفس المصدر: ٥٢.

واردف ذلك عام ١٩٤٤م قائلا : (نحن ملحدون ... ونحن نؤمن بان فكرة الله خرافة، ونحن نؤمن بان الايمان بالدين يعرقل تقدمنا ونحن لا نريد ان نجعل الدين مسيطراً علينا، لاننا لا نريد ان نكون سكارى[١] .

وليس من المدهش ان يتجرأ ستالين بهذه الكلمات البذيئة بعدما سمع لينين عام ١٩١٣م وهو يقول : (ليس صحيحا . ان الله هو الذي ينظم الاكوان ... وانما الصحيح هو ان الله فكرة خرافية، اختلقها الانسان ليبرر عجزه !.. ولهذا فان كل شخص يدافع عن فكرة، انما هو شخص جاهل عاجز[٢] .

وبعدما سمعه وهو يقول – ايضا – عام ١٩١٥م : (الدين مرتبط بالظلم دائمًا، ... فحيثما يوجد الظلم يوجد الايمان بالدين... واذا ما تخلصنا من الظلم ، وجب ان نتخلص من الدين... بل ان تخلصنا من نفوذ الدين يساعدنا على التخلص من الظلم[٣] .

وهكذا نجد ستالين يذهب ليتمم خطط لينين، فقال عام ١٩٣٧م (يجب ان يكون مفهوما : ان الدين خرافة ... وان فكرة الله خرافة ... وان الالحاد هو مذهبنا[٤] .

وتقدم ستالين خطوة جريئة عام ١٩٢٨م حيث اراد نشر الالحاد في الجيل

---

(١) نفس الصدر: ٥٣.

(٢) نفس الصدر: ٥٣.

(٣) نفس الصدر: ٥٣.

(٤) نفس المصدر: ٥٤.

الصاعد عن طريق التربية في المدارس: فقال : (يجب ان تقوم التربية في المدارس على اساس انكار الدين، وعلى اساس انكار الله[١] وتوسع ستالين عام ١٩٣٣م فاراد ان ينشر الالحاد في الوعي العام فقال: (الثقافة النافعة هي التي تحرر عقول الناس من استبداد الدين ... والتعليم النافع هو التعليم الذي ينشر الالحاد ... والرأي العام الصالح هو الرأي العام الذي لا يؤمن بأية افكار سوى الافكار الماركسية[٢].

وعلل ذلك عام ١٩٣٥م فقال : الدين هو الذي يغرس في نفوس الناس الافكار والاخلاق المثالية التي لا وجود لها في الواقع ... ولهذا نحارب الدين، لاننا لا نريد ان تتغلغل في نفوس النشء آراء مثالية زائفة[٣].

محاربة الاخلاق:

مما يحرص عليه الشيوعيون، لنفس الغرض الذي من اجله يحاربون الاديان، وذلك ان الشيوعية تزاحم الاخلاق، في الخطوط المعاكسة !!، حتى لو بقيت النفوس مؤمنة بالاخلاقة الانسانية النبيلة، لكفرت بالشيوعية، واساليبها، واهدافها، على ضوء ذلك نجد لينين يلتجىء الى تفسير الاخلاق بكل ما يخدم النضال الشيوعي ... ويجعل الشيوعية هدفا ووسيلة للحياة، كي لا يفكر الناس في غيرها، ويكرسوا طاقاتهم لخدمتها، دون ان يعيقهم منها دين او ضمير او

---

(١) نفس المصدر: ٥٤.

(٢) نفس المصدر: ٤٥.

(٣) نفس المصدر: ٤٥

اخلاق، فيقول لينين: (غالبا ما يزعم : ان ليس لنا اخلاق خاصة بنا ، وفي معظم الاحيان تتهمنا البورجوازية: نحن الشيوعيين باننا ننكر كل الاخلاق، وتلك طريقة لتشويش الافكار لتضليل العمال والفلاحين، باي معنى ننكر الاخلاق، وننكر السلوك ؟؟ بالمعنى الذي تبشر به البورجوازية التي كانت تشتق هذه الاخلاق من وصايا الله وبهذا الصدد نقول : بالطبع اننا لا نؤمن بالله ونعرف جيداً جدا: ان رجال الدين، وكبار الملاكين العقاريين كانوا يتكلمون باسم الله لكي يؤمنوا مصالحهم كمستثمرين[١] ... ان كل اخلاق من هذا النوع مستقاة من مفاهيم غريبة عن الانسانية غريبة عن الطبقات، ان كل اخلاق كهذه ننفيها وننكرها ونقول : انها تخدع العمال والفلاحين، وتغشهم وتحشو ادمغتهم حشوا : اننا نقول: ان اخلاقنا خاضعة تماما لمصالح نضال البروليتاريا الطبقي ان اخلاقنا تنبثق من مصالح نضال البروليتاريا الطبقي[٢].

فالظلم والاضطهاد، والغش، والخداع، وسائر المظالم والجرائم، من صميم الاخلاق ما دامت تخدم نضال البروليتاريا الطبقي، واما الاخلاق الفاضلة، التي تناقض الشيوعية، وتبرز مساوئها، ومفاسدها، فانها تخدع العمال والفلاحين !!

---

(١) ليس من العجيب ان يكفر لينين بالله والاخلاق، تلبية لنداء الشيطان، واستسلاماً لعواطفه الفاجرة، ومصالحه الفردية الرخيصة، وارضاءاً لحزبه ومبدئه ... ولكن الذي يثير العجب انه كيف لا يستحي ان يتهم بكل صفاقة جميع المؤمنين بالله بـ (انهم كانوا يتكلمون باسم الله لكي يؤمنوا مصالحهم كمستثمرين ...) ولكننا نفقد هذا العجب متى استمعنا اليه في الكلمات التالية !

(٢) لينين (مهمات منظمات الشباب) ط موسكو ص١٥

لماذا ؟ لانها تربح عنهم قسوة الشيوعية، وتكسح عنهم سكرات الاغراء ويذهب لينين إلى حيث يقول : إننا لا نؤمن بالاخلاق الابدية.[١]

وإننا نفضح جميع القصص والحكايات الكاذبة، الملفقة حول الاخلاق[٢] فليفضح البراهين والحكم الصادقة الواردة حول الاخلاق الانسانية النبيلة ، ان كان من الصادقين، ولكن الواقع ان زعماء الشيوعية، كاذنابهم لا يملكون الحجج والبينات وانما يطلقون دعاواهم الفارغة، ثم يؤيدونها بالسخرية، و الاستهزاء السخيف ليطمسوا بذلك الحقائق البارزة، ويحسبون ان الدكتاتورية الفكرية تنجح كما نجحت دكتاتوريتهم الخارجية... وقد فصل (انجلز) قاعدة مركزية للاخلاق يميز بها الحسن من القبيح فقال عام ١٨٧٧م : (اننا نرفض شتى المحاولات التي تحاول ان تفرض علينا اخلاقا تسند الى (المثاليات) : ذلك اننا نؤمن : ان الاخلاق هي نتاج الاوضاع الاجتماعية، ولما كانت الاوضاع الاجتماعية متغيرة فان مفاهيم الاخلاق لا بد ان تتغير ... ان الاخلاق التي نؤمن بها هي كل عمل يؤدي الى تحقيق انتصار مبادئنا، مهما كان هذا العمل

---

(١) يزعم الشيوعيون ان كل شيء يتطور، حتى الاخلاق – فمثلا – كان الظلم قبيحا في القرن العاشر،اما في القرن العشرين فقد اصبح حسنا، وكذلك قتل الابرياء، والسرقة والخيانة، كانت من الرذائل ، فاصبحت – في ظل الشوعية – من الفضائل وعلى ذلك يبني لينين قوله: (اننا لا نؤمن بالاخلاق الابدية) لان الاخلاق عنده متطورة، فالخالق الواحد يكون حسنا وقبيحا تبعا للظروف ! .

(٢) نفس المصدر: ٢١

منافيا للاخلاق المعمول بها[١] . وعن هذه النظرية عبر لينين قائلا : ان ما يقوم في اساس الاخلاق الشيوعية، هو النضال في سبيل ترسيخ الشيوعية، وانجاز بنائها. ذلك هو ايضاً اساس التربية الشيوعية والتثقيف الشيوعي، والتعليم الشيوعي[٢] .

وبعدما تركزت هذه القاعدة كمبدأ اساسي فمن الطبيعي ان ينجم منها قول لينين عام ١٩١٠م : (يجب على المناضل الشيوعي الحق: ان يتمرس بشتى ضروب الخداع، والغش، والتضليل...

فالكفاح من اجل الشيوعية، تبارك كل وسيلة تحقق الشيوعية[٣] . فالمناضل الشريف يجب عليه : ان ينبذ الاخلاق، ويعرف: ان الاخلاق في سحق الاخلاق مهما تطلبت ذلك مصالح البروليتاريا، اما اذا حفزه الوازع الديني على اعتناق مبادئه الاخلاقية ومثله العليا فان لينين حدد موقفة حيث قال عام ١٩١٨م: (إذا لم يكن المناضل الشيوعي قادراً على أن يغير أخلاقة وسلوكه وفقاً للظروف، مهما تطلب ذلك من كذب وتضليل وخداع، فانه لن يكون مناضلا ثوريا حقيقيا[٤] .

---

(١) (النظام الشيوعي) ص١٨.

(٢)لينين (مهمات منظمات الشباب) ص ٢٢.

(٣) (النظام الشيوعي) ص ٢٠ -٢١.

(٤) نفس المصدر ص ٢١.

انه ليس شيوعيا محترفا، لانه لا يتطوع للافكار الشيوعية، أما الشيوعي الحق فهو الذي يتوصل الى تحقيق الاهداف الشيوعية، بما تتطلبه الظروف الخاصة من التضحية بكل شيء حتى بالاخلاق والكرامة والضمير كما قال لينين عام ١٩٢٠م: (ان المناضل الشيوعي الثوري الحق هو ذلك الذي يبذل كل تضحية يفرضها عليه تحقيق الهدف الشيوعي، ولو تطلب الامر التضحية بالاخلاق والكرامة والضمير ... فالهدف المثالي الحق هو تحقيق المجتمع الشيوعي)[١].

وذلك لأن الشيوعية هدف نبيل يجب التوصل اليه . أما الواسطة فلتكن ما تشاء!! أو ليست الغاية تبرر الوسطة؟ هذا هو منطق لينين عام ١٩٢١م عندما قال: (يجب أن يكون مفهوما: أن الشيوعية غاية نبيلة وان تحقيق الغاية النبيلة يتطلب في كثير من الاحيان استخدام وسائل غير نبيلة ولهذا فان الشيوعية تبارك شتى الوسائل المناهضة للاخلاق، مادامت هذه الوسائل تساعد على تحقيق أهدافنا الشيوعية)[٢].

ونجد نفس النغمة تردد على لسان ستالين فقد صرح عام ١٩٢١م (لن نكون ثوريين مناضلين بحق، الا إذا طبقنا دائما ما تعلمناه من (ماركس) عن ضرورة استخدام كل الوسائل الاخلاقية، وغير الاخلاقية في كفاحنا من أجل الشيوعية)[٣].

---

(١) نفس المصدر ص ٢١.

(٢) نفس المصدر ص ٢١.

(٣) (النظام الشيوعي) ص٢.

وفي عام ١٩٣٨م بعدما انتشرت الشيوعية في شتى الاقطار، أراد ستالين أن يزودهم بنفس السلاح الذي نجح به في روسيا، ويغذيهم بتلك الافكار التي استمدها من اسياده الشيوعيين فاذا به يوجه اليهم هذا النداء: (أن الشيوعي المخلص في الدول غير الشيوعية، هو ذلك الذي يعرف كيف يقضي على نظم الحكم غير الشيوعية، بلا هوادة وبلا رحمة وبلا شفقة... وهو ذلك الذي يستعين بكل وسائل التضليل، والخداع، وسعة الحيلة، لفرض النظم الشيوعية على البلاد التي يعمل فيها[١].

وكان قبل ذلك في عام ١٩٢٨م قد ادلى إلى عملائه في البلاد غير الشيوعية بهذا التصريح: (نحن نبارك كل عمل يؤدي الى التعجيل بتحقيق الشيوعية الدولية... ولهذا نبارك كل ضرب من ضروب التخريب الداخلي والفتن، والمشاحنات، والاضطرابات... فكل هذه الامور تؤدي الى التعجيل بالثورة الدولية[٢].

تحطيم القوانين السائدة:

وقيام الثورة الشيوعية العالمية، هو الحلم الاشقر، الذي ظل يداعب الشيوعيين جميعا. فمنذ عام ١٨٦٢م كان كارل ماركس يقول: (لا بد أن يأتي يوم تصبح فيه العلاقات الشيوعية، هي العلاقات التي تحكم كل مجتمع في شتى انحاء العالم... ولا بد ان يأتي يوم يصبح فيه العالم كله شيوعيا[٣].

---

(١) نفس المصدر: ٤٤

(٢) نفس المصدر: ٥٨.

(٣) نفس المصدر: ٥٥.

وبعدما جاء لينين الى الحكم رأى ان القوانين السائدة في البلاد غير الشيوعية رغم انها غير صالحة ولكنها خير من النظم الشيوعية، ولا بد ان تغري تلك القوانين الشيوعيين الذين يتبادلون العلاقات مع غير الشيوعيين، ولا بد ان يتمخض ذلك عن قيام ثورة داخلية ضد الشيوعية لذلك عمد لينين إلى احداث توتر العلاقات بين شعب روسيا وشعوب العالم، ووضع السياج الحديدي بين البلاد الشيوعية، والبلاد غير الشيوعية، كي يأمن انتشار الوعي السياسي في بلاده... وقد عبر ستالين عن هذه الحقيقة عام ١٩٣٤م ولكنه سكبه في اسلوب اخر، حيث قال : (دعوني أذكر لكم بصراحة أن نظامنا الشيوعي في الداخل سيظل مهدداً بالخطر، مالم نفلح في تحقيق الشيوعية الدولية... فما دامت الدول المحيطة بنا مناهضة للنظام الشيوعي، فانها لن تكف عن محاربتنا ... ولهذا يجب التعجيل باشعال نار الثورة الشيوعية العالمية[١].

وفي عام ١٩٢٠م صرح لينين بذلك عندما قال: (لقد نجحنا بفضل القوة، ولهذا لن نتخلى عن هذه القوة إلا بعد أن نحقق ثورتنا العالمية... ولكن هذه القوة ستظل سلاحنا في كل وقت[٢].

فما دامت في العالم نظم غير شيوعية، فان الشيوعية – بذاتها– مهددة– بالخطر المحدق، دون ايما محاولة من أحد، لذلك لا بد للحكومة الشيوعية أن تشهر السلاح لكبت الانتفاضات والحركات الداخلية، ولا تستطيع أن تضع السلاح

---

(١) نفس المصدر: ٥٦.

(٢) نفس المصدر: ٢٢.

إلا اذا سيطرت الشيوعية على العالم كله، حينما يطبق الظلام، فلا يرى أحد بصيصا من الضياء... ومع ذلك فلا يمكن وضع السلاح بحال، لان الشيوعية غير ملائمة للطبائع الاصلية، فهي لا تنسجم مع العواطف حتى تتقبلها بسلام بل الواجب أن تفرض على الناس فرضا...

فلا بد من تطبيق الشيوعية على العالم كله، كي تحرس شيوعية روسيا

وإلا فانها محاطة باشباح الخطر التي ترتجف في كل مكان .. وقد اشار الى ذلك لينين عندما قال: (يجب أن نعلم الشيوعيين في كل مكان، كيف يعملون على تحقيق الثورة الشيوعية العالمية... فالنظم الشيوعية في اية دولة شيوعية، لا تصح ولا تزدهر، الا إذا قامت الثورة الشيوعية الدولية، لتحرسها[١].

وقد صرح بذلك ستالين – ايضا– عام ١٩٢٦م قائلا: (لن يستقر نظامنا الداخلي، إلا إذا نجحت الاحزاب الشيوعية في إشعال نيران الثورة في كل مكان بالعالم[٢].

العمل الاجباري:

إن حب الذات يوزع الانسان الى الخلود في التسلية، والنكول حتى عن ابسط المتاعب والاعمال، فهو بنفسه تواق الى الهدوء والارتياح وسوف يضرب الانسان أن يحرك إصبعه إلا إذا كان هناك وازع أقوى من حب الارتياح، ينبعث

---

(١) نفس المصدر: ٥٥.

(٢) نفس المصدر: ٥٨.

من حب الذات – ايضا– فالانسان يسمح لنفسه أن يضحي بشطر من راحته، إذا كانت هناك منفعة راجحة، توفر للانسان من وسائل الراحة مقدارا أوسع من كمية التضحية، التي يتطلبها الموقف،– فمثلا– الفرد يعمل ٨ساعات شريطة ان ينال كفائه من الراحة ١٦ ساعة.... كما انه مستعد للعمل ١٦ ساعة متى علم ان ذلك يوفر له اسبوعا من الراحة –مثلا–...

وكذلك يتدرج الانسان في ارهاق نفسه متى ضمن له مدد من الراحة المدخورة، يمكنه سحبها متى شاء، وذلك لا يكون الا بالمنافع الشخصية المتكافئة.

أما اذا علم الفرد: انه لا ينال جزاء عمله وجهاده موفورا، وانما يسلب منه ريع انتاجه، ومكاسب جهاده بصورة منتظمة الزامية، فلا بد ان يدب فيه روح التبرم، ويلتجئ الى الاضراب عن العمل، والنظام الشيوعي حيث يعرف ذلك، يقرر ان يكون العمل اجباريا للجميع، حتى يعملوا، لا رغبة في الانتاج، بل خشية العقوبات... فنرى كارل ماركس وفردريك انجلز عندما كانا يضعان الخطوط العريضة للشيوعية التطبيقية في اكثر البلاد تقدما ورقيا، يجعلان المادة الثامنة منها: (جعل العمل اجباريا للجميع[1]) حتى ان نوع العمل ، ومكانه، اجباري ليس لاحد ابداء رأيه في الموضوع، بل الدولة تحدد لكل فرد عملا، يؤاخذه على تركه، كما صرح بذلك ستالين عام ١٩٣١م: (نحن لا نتساهل مع اولئك البلهاء، الذين يظنون: أن حق العمل يعني حق اختيار الوظيفة او العمل

---

(١) (البيان الشيوعي) ص٥٣.

او المكان الذي يعلمون فيه... فنحن نحدد نوع العمل ومكانه وفقا لما تتطلبه اوضاعنا الاقتصادية[(١)] .).

وليس للعامل حرية ترك العمل، فانه يعتبر بذلك عنصراً هداما للنظام الشيوعي، يجب مؤاخذته قبل ان يفت في عضد النظام السوفياتي ، ذلك ما قاله لينين عام ١٩٢٢م : (يجب ان يكون مفهوما ان اي عمل في اي مصنع من المصانع، هو عمل حددته الدولة للعامل... ولن نتساهل باية حال من الاحوال مع العمال الذين يهجرون اعمالهم... فامثال هؤلاء العمال يعتبرون، في نظرنا، عناصر هدم لنظامنا السوفيتي[(٢)]).

ولقد مر الكلام على العمل الاجباري تحت عنوان : اكتساح الطبقات.

رفع النقود والاسواق:

فيجب على الجميع: ان لا يفرطوا في اداء مسؤلياتهم، المرسومة من قبل الدولة، دون ايما تردد او نقاش... كما تجني الدولة ارباح مكاسبهم وتقرر لهم معدلا من الاجور، غير ان النقود لا تحول اليهم ابداً لان البضائع كلها ترصد في مخازن الدولة، فماذا يصنعون بالنقود؟ زيادة على ان الاجور لا تفضل عن عيش مقتر كي يحتاجوا الى النقود ليتركوها بل اجور اليوم تستهلك في اليوم ذاته. على هذا الضوء لا تبقى حاجة الى النقود والاسواق، بل العامل يتقاضى

---

(١) نفس المصدر ص٤٨.

(٢) نفس المصدر ٤٧.

ازاء عمله البضائع... كما ينص على ذلك في كتاب:

(الاتحاد السوفياتي في مائة سؤال وجواب ص١٤٠ وقد مر ذلك تحت عنوان اكتساح الطبقات)!!!

القضاء على الدولة:

وبعدما تنفذ الدولة، المتمثلة في البروليتاريا الحاكمة، جميع هذه المخططات، وتؤدي مسؤلياتها كاملة... وتروض الشعوب على ان تعيش الشيوعية، بنفسها، ودون أيما حافز او جاذب... تبقى لحكومة البروليتاريا مهمة اخرى يجب تنفيذها حتى تكمل رسالتها الشيوعية، وهي ان تتقلص، رويدا ... رويدا... وتتفتت – هي بنفسها – قليلا .. قليلا.. حتى تتبخر سلطتها وتذوب هي في مجموع الشعب لان الشعب لا يسمح بتوسط الدولة بينه وبين افراده...

عندئذ يتحقق حلم البشرية، ويخرج الانسان من حظيرة الحيوان الى الفردوس الاعلى، وحكومة الضمير، وتعود الشيوعية الاولى، التي قضى عليها دور الرق، والاقطاع، والرأسمالية..

تلك هي نظرية الشيوعيين عن الدولة.. فليتحدث عنها القادة المبدئيون للشيوعية!! وليكن ذلك فردريك انجلز !.. فلنسمع اليه وهو يقول:

(.. وحينما تقبض البروليتاريا على زمام الحكم تحول وسائل الانتاج الى تملك الدولة، وبذلك تتخلص من طابعها البروليتاري، وتتخلص من كل تمييز

وتناقض طبقي في المجتمع، وبالنهاية تقضي على وجود الدولة، كدولة[١]).

فآخر عملية يلزم على البروليتاريا القيام بها هي القضاء على الدولة، فالدولة غير مسموح بها الا لتؤدي واجبات معينة تحتاج الى امكانات الدولة، مسؤلياتها فلا معنى لبقائها في حكومة البروليتاريا التي تفرض قوة اجنبية على الشعب، ان الدولة ابدا توجد لفرض قوة خاصة على مجموع الشعب .. ومكافحة الاصوات المعارضة بالقوة والتعذيب، وحيث ان حكومة البروليتاريا نزيهة عن كل هذه المظالم فهي – بالطبع – مستغنية عن الدولة، بل انها ترفض الدولة، ولا تسمح ببقائها، تلك حجة انجلز ضد الدولة : (وحيث ان الدولة وجدت لتمثل المجتمع باكمله تمثيلا رسميا، فتجسيمها عمليا لا يمكن وجودها، الا حينما يقتصر على تمثيل الطبقة، التي تفرض نفسها لتمثيل المجتمع بكامله ولكن حين تصبح حقيقة تمثل المجتمع على اختلاف طبقاته، تصبح عندئذ لا ضرورة لوجودها، وحين لا توجد طبقات تحت الضغط والظلم، وحين لا يوجد صراع من اجل البقاء، في فوضى الانتاج، ينعدم التصادم، والافراط في التناقض، الناتج عن تلك الفوضى، وعندئذ لا تبقى وظيفة ولا حاجة للدولة!! واول حركة تقوم بها الدولة، في سبيل فرض تمثيلها الصحيح لكامل المجتمع، تأميمها وسائل الانتاج باسم المجتمع، فتكون في الوقت اخر حركة تقوم بها باعتبارها دولة. وعندئذ حكم الافراد يفسح مجالا للانتاج، فيصبح له مكانة في الادارة والتوجيه.

---

(١) فردريك انجلز (الاشتراكية بين الخيال والعلم): ص ٧٢.

حيث ان المجتمع لا يتسامح قط، مع وجود دولةبينه وبين افراده[(١)]).

وليس هذا فحسب ! بل اكثر من ذلك، ان قيام طبقة معينة بفرض ارادتها على المجتمع الواعي، ليس امراً مزعجاً فقط، بل يعرقل سير الامة والاقتصاد، والسياسة، لانه يحدد نشاط وطاقات الافراد ببرامجه الخاصة فيقل انتاج الامة، ولا يمكن اطلاق الحريات الكاملة في كل مجال الا بألغاء ذلك الجهاز الموجه للمجتمع : الدولة،يصرح بذلك انجلز قائلا: (... ويعني هذا ان نمو الانتاج الى درجة صالحة، وتملك وسائل الانتاج والمنتجات من قبل طبقة، كالسيطرة السياسية، وتوحيد وثقافة، والتحكم بالتوجيه الاجتماعي العقلي، من قبل اي طبقة، لا تصبح امورا مزعجة فقط، بل تكون ايضا عقبة كأداء في سبيل التقدم الاقتصادي والسياسي، والعقلي[(٢)]).

ثم يتفلسف لذلك، وكيف ان المجتمع اذا خرج من حكومة طبقة معينة، واستطاع ان يتمتع بأقصى- حرياته ومواهبه، يكون حكومة انسانية يسودها الضمير، ويسيطر عليها العقل، يعيش في المرة الاولى تحت رقابة الانسانية المتحررة، ثم يسبح في الاحلام، ويحلق في سبحات تلك الاجواء المثالية، كشاعر يعتصر قلبه صورا وألوانا، فلنصغ الى ترانيمه!.: (.. حينما سيطر المجتمع على وسائل الانتاج، لا يعود يأخذ الانتاج صفة البضاعة اعني بوضع حدود لطريقة تملك الانتاج، التي كما رأينا، تجعل المنتجات تتحكم بالمنتج، فالفوضى في الانتاج

---

(١) نفس المصدر ص ٥٢ — ٥٣.

(٢) نفس المصدر ص ٧٥.

الجماعي، تفسح مجالا للتنظيم الوعي المثالي، والصراع لاجل الوجود الفردي يتلاشى. ولا نستطيع الا من تلك اللحظة ان نقول بان الانسان خرج أكيدا، من مملكة الحيوان، حيث يكون عندئذ قد استبدل شروط الوجود الحيواني، بشروط وجود إنسانية حقيقية. ومجموعة شروط الوجود، التي سيطرت حتى الان على الناس، تصبح عندئذ خاضعة للرقابة الانسانية ،وببلوغ الانسان السيادة على التنظيم الاجتماعي، يبلغ بذلك للمرة الاولى السيادة، والوعي على الطبيعة ذاتها فالقوانين التي يفرض وجودها في المجتمع حتى الان معتبرة كقوانين طبيعية غاشمة، تفرض على الانسان سلطة غريبة.... ولكن منذ هذه اللحظة ستصبح القوانين من إبداعه، وخلقه هو.. فمن هذا التاريخ سيبدىء الانسان في بناء تاريخه بيديه، بناءاً واعياً مدركا بأن الاسباب الاجتماعية، التي يحركها دوما تنتج بتقدم النتائج، التي يريدها، وعندئذ تخرج الانسانية من مملكة القدر لتدخل في مملكة الحرية[1]).

كان بارقة أمل كانت تلوح لانجلز، او استبدت به الهواجس في هدئة الظلماء فجعل يهذي بهذه الاساطير: (منذ هذه اللحظة..):

(فمن هذا التاريخ...)

غير ان الليل لم يجرف هذه الاطياف، بل ظلت تراود أفكار لينين – وحتى بعد ان مرت به تجارب قاسية – فنراه يقول – ناقلا عن انجلز– (تتولى البروليتاريا على سلطة الدولة، وتحول وسائل الانتاج بادي ذي بدأ الى ملكية

---

(١) نفس المصدر ص٧٦-٧٧.

الدولة لكنها إذ تفعل ذلك تقضي- على نفسها بصفتها بروليتاريا وتقضي- على الدولة بصفتها دولة ... ان الدولة لم تلغ بل هي تفنى...[١]).

ويؤكد ذلك مرددا كلام انجلز: (... وان ظلت غير ملائمة لحزب ليس برنامجه الاقتصادي اشتراكيا، بصورة عامة بكل بساطة بل شيوعيا على وجه الدقة، لحزب هدفه الاخير حذف كل دولة، وحذف الديموقراطية بالتالي[٢]).[٣].

---

(١) لينين (الدولة والثورة)ص٢١-٢٢.

(٢)نفس المصدر ص١٠٠

(٣)ليس نقلنا لتصريحات لينين وستالين، غفلة او خلطا للمبادئ، فأنا اعلم أن لينين وستالين إشتراكيان وليسا بشيوعيين وتصريحاتهم ليست حجة على الشيوعية، غير أنهما عندما يشرحان كلام ماركس او انجلز، أو يجريان على نظريتهما فان تصريحاتهما حجة على الشيوعية ولذلك تجد في كل موضوع اننا لا نكتفي بتصريحاتهما بل نسجل أيضا من تصريحات ماركس أو انجلز.

حساب الشيوعية

فشل الشيوعية:

هناك طريقتان، نتخذ كلا منهما قاعدة لمناقشة الشيوعية:

١-التساؤل عما اذا كانت النظرية الشيوعية، امرا واقعيا يستطاع تطبيقة.؟! ام هي فكرة من نوع (المثاليات) التي تتأبى على الواقع، ويلفظها الصعيد التطبيقي؟ مع فرض الاقتناع بعدالتها، وعدم خطورتها.

٢-البحث عن الخسائر والاضرار التي تستتبعها الشيوعية، والاخطاء، والاغلاط التي نتشوك بها النظرية الشيوعية...

مثالية الشيوعية:

ان أهم نوع من أنواع الفشل لمبدأ ما، هو ان يكون ذلك المبدأ مستعصيا على التطبيق، وان يكون التاريخ قد أعلن عجزه عن تطويعه لحقبة، من حقبه الزمنية، واول ما يسترعي الاذهان من التحلل النابع من التطرف الشيوعي هو التسائل التالي:

استجواب:

هل النظام الشيوعي نظام يمكن تطبيقه على صعيد المجتمع، كما امكن وصفه على صعيد الورق.؟ أم انه وهم يعيش في الخيال، ولا يبرز للنور إلا ويثير التهريجات والفوضى في الاتجاهات والافكار، حتى اذا تبرع المتطفلون بالوسائل لتطبيقه، طار من أكف دعاته كما يطير الوهم، وانسحب كما تنسحب الاطياف امام أشعة الصباح!؟؟

اضغاث احلام:

ثم يأتينا الجواب سلبيا: (نعم! إنه نظام مثالي غير صالح للتطبيق !!!) فقد كان ماركس رجلا متشائما ناقما على الحياة، وكافرا بالضياء والنور والسعادة... [١] حاول الانتقام من البشر الذي لم يركع امامه واطاح به في بؤرة المنبوذين.... فكان كلما آوى الى مخدعه جعل ينحت من تجاعيد دماغه هذه الافكار والنبوءات، ولم يلتقطها من واقع المجتمع والحياة بل كان يتنقب في الماء، ويتصيد السمك في الهواء، فأصبحت اشبه بالاوهام، منها بالمبادىء والدساتير، وكانت قفزته الخيالية انتفاضة عاطفية فجائية، عقبها سقوط اكثر إمعانا في الفجائه..... ولكنه كان يعيشها جذلا مغتبطا... ثم انجرف معه تلميذه وزميله أنجلز... فتعاونا على إطلاء أفكاره ونشرها في الاوساط الناقمة الثائرة، كالعمال والفلاحين الذين هم أبعد الطبقات عن الوعي والثقافة، فتقبلها الكثيرون، لا رغبة فيها، بل خشية من الانظمة التي كانت تسود ذلك اليوم، ورزحوا تحت كابوسها طويلا...

وكان كارل ماركس يؤمن بأفكاره إيمانا عميقا، وحتى دفع بأنجلز ليبشر بها، ويعلن تطبيقها، ولكنها لم تغن من الحق شيئا... حتى إذا ظهر لينين على المسرح واستعاد نشاطه، وتجمع قواه. واندفع بكل ثورة وحماس ليطبق أفكار ماركس وتنبؤاته... فاذا بها انفزرت كما تنفزر فقاقيع الصابون... واسقط في يده أن رأى نفسه يتحطم على صخرة الواقع...

---

(١) تدلنا على ذلك تراجمه.

ارتداد عن الشيوعية:

فابتدر الى نسخ النظريات الشيوعية، وابتداع نظرية اخرى هي الاشتراكية... وحيث كان قد ألب الجماهير حوله باسم المبادئ الماركسية، ورأى الناس مغرمين بتلك المبادئ، لا بما يختلقه ارتجالا تحت ضغط الظروف والملابسات... وهاله ان يعلن عجزه وانهزامه من الميدان، وفشل المبادىء الماركسية، خشية ان يتفرق الناس من حوله، وينتهز الفرصة (حزب المنشفيك) المناوىء للشيوعية، ويعود قيصر الى العرش وينكل بلينين وزبانيته شر تنكيل...

لهذه العوامل، وغيرها.. حاول ان يوفق بين نظرياته والمبادىء الماركسية، ماوسعه الامر... واعلن ان الشيوعية لاتنزل علينا عفوا من السماء، وإنما يجب ان نصنعها بأيدينا عبر نضال طويل، يجب ان نخوضه ويخوضه كل فرد روسي... فلنستمع إليه وهو يقول:

(والمجتمع الشيوعي انما هو شيوعية في كل شيء الارض مشتركة، والمعامل مشتركة، والعمل مشترك، تلك هي الشيوعية، فهل يمكن ان يكون ثمة عمل مشترك؟ اذا كان كل أمرئ يستثمر قطعة من الارض لحسابه الخاص، إن العمل المشترك لا ينشأ دفعة واحدة! هذا غير ممكن! ولا يهبط من السماء! انما ينبغي اكتسابه، إنه ثمرة آلام طويلة، ينبغي إنشائه، وهو ينشأ في غمرة النضال[1]).

---

(١) لينين مهمات منظمات الشباب ط موسكو ص٢٣.

فاعتبر نفسه في فترة الانتقال، زاعما: استحالة القفزة الفجائية من المرحلة الرأسمالية، الى الشيوعية، دون ان تتخللها المرحلة الاشتراكية.

فقال: إننا يجب ان نحقق الاشتراكية لنعبد الطريق الى الشيوعية، وزعم ان هذه كانت فكرة ماركس وانجلز، ليبرر قصوره وعجزه، ونقل عن أنجلز، التصريح التالي:

(.. إذن فقد كان من المحال بصورة مطلقة، بالنسبة الى ماركس، كما بالنسبة الى ان نستعمل مثل هذا التعبير المطاط، للتعبير عن وجهة نظرنا الخاصة لكن الامور تختلف اليوم فيمكن التساهل بقبول مثل هذه الكلمة، (اشتراكي ديموقراطي)، وإن ظلت غير ملائمة لحزب ليس برنامجه الاقتصادي اشتراكيا بصورة عامة، بكل بساطة، بل شيوعيا على وجه الدقة[١] ..).

وربما كان يلقي الذنب: ذنب عدم تطبيق الشيوعية على تأخر البلاد، زاعما اننا نقوم بشيء من التراجع في اداء مسؤوليتنا لان تأخر البلاد الاقتصادي، لا يسمح لنا بتطبيق الشيوعية، ولكننا بهذا التراجع نستمد نشاطا مضاعفا لنرجع الكرة الحاسمة على رواسب الرأسمالية، والاشتراكية القائمة في سبيل تطبيق الشيوعية، قائلا: (... إنهما: (الحزب الشيوعي والحكم السوفياتي) يقومان بشيء من التراجع، لكي يستطيعا حين يصبحان أحسن استعدادا، ان يستأنفا الهجوم على الرأسمالية إن التجارة الحرة، والرأسمالية مسموح بهما اليوم، بصورة خاصة، وهما

---

(١) لينين الدولة والثورة ص ١٠٠ نقلا عن أنجلز.

تتطوران على أن تكونا خاضعين للترتيبات، التي تضعها الدولة... إن مشاريع الدولة التي حولت الى مشاريع اشتراكية، تتبنى المبدأ المسمى بمبدأ المردود التجاري، أي إنها تعمل على أساس تجاري، وهذه الحالة نظر لتأخر البلاد[١]).

وحيث كان يحمل هذه المسؤولية على تأخر البلاد، حاول استنزاف طاقات العمال والفلاحين، لترميم الاقتصاد، وذلك بجعل كل فرد عضوا في الحزب الشيوعي، ليستفرغ مواهبه وامكانات في تشييد البناء الشيوعي دون ايما قيد او شرط لذلك نراه يطلق هذا النداء: (... أما نحن فينبغي لنا أن ننظم كل الاعمال... بصورة يستطيع معها كل عامل وكل فلاح أن يقول: إنني عضو في هذا الجيش الكبير، جيش العمل الحر[٢]).

وكان أبدا يمني الناس بانه سيقيم الشيوعية في اليوم القريب...

فنجده مرة يقول: (..وسأعرف بنفسي كيف أقيم النظام الشيوعي[٣]).

وأخرى كان يؤمل الناس بقيام الشيوعية بعد عشر او عشرين عاما قائلا: (ينبغي على الجيل الذي يبلغ اليوم الخامسة عشرة من العمر، والذي سيعيش في المجتمع الشيوعي، بعد عشر، او عشرين سنة ان ينظم دروسه ... [٤]).

---

(١) لينين (حول دور النقابات ومهماتها) ص٦.

(٢) لينين (مهمات منظمات الشباب) ص٢٨.

(٣) لينين (مهمات منظمات الشباب) ص٢٨ .

(٤) نفس المصدر: ٢٨ .

لقد انطوت حياة لينين، وخلفه استالين وهو الاخر أيضا لم ينجز تطوير الاشتراكية الى الشيوعية بل علقه على ثلاثة شروط:

(فاولاً، يجب ان يؤمن بشكل متين، انما متواصل لكل الانتاج الاجتماعي...).

وثانياً: يجب لتحقيق الانتقال ... رفع الكولخوزية ..

وثالثاً، تأمين تقدم ثقافي للمجتمع يتيح لجميع اعضائه تطوير مؤهلاتهم الجسدية والفكرية تطويرا متناسقا ....[1]).

لقد كان لينين يهيب بالناس ان يعملوا لبناء الشيوعية، التي ستتحقق بعد عشر او عشرين عاما ... وأهاب ستالين بالناس أن يعملوا لتحقيق الشروط الثلاثة ولم يختلف عن لينين وستالين سائر زعماء الشيوعية فانهم جميعاً كانوا يلهجون بهذه النغمة ... ولكن واحداً منهم لم يتخط هذه الخطوة ... وان حملوا الناس باسمها اعباء واعباء ...

ولقد انقضى عشر سنين، وعشرون سنة ... وبلغ الاتحاد السوفياتي العقد الخامس من عمره وانجز مكاسب وانتصارات(!) ولا يزال خرشوف يمني بقيام المجتمع الشيوعي ، لتغرير السذج البسطاء فنراه يقول: (... ونحن نسير

---

(١) (الاتحاد السوفياتي في مائة سؤال وجواب) ص١٣٨-١٤٠ نقلا عن ى . ف ستالين في كتابه (القضايا الاقتصادية الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي).

نحو المجتمع الشيوعي...[١]).

ويقول: (... وعما قريب ستأخذ هذه البلدان، شأنها شأن الاتحاد السوفيتي، في بناء المجتمع الشيوعي...[٢]).

وتجد هذه التصريحات وغيرها تتميز بطابع التسويف ... غير ان خروشوف يأبى في بعض الاحيان حتى هذا التسويف، فهو يجد الامور طوع يديه، مهما كانت تصريحاته، فلا يجد حرجا من التصريح بالواقع الراهن لذلك يصرح بان الانتقال الى المرحلة الشيوعية جد بعيد، فان بعض البلاد السوفيتية لم ينتقل بعد الى مرحلة الاشتراكية، فكيف تسنح لها الانتقال الى الشيوعية؟ : (كيف يجري في المستقبل تطور البلدان الاشتراكية، نحو الشيوعية ؟ هل يمكن لنا ان نتصور وضعاً يتوصل فيه بلد من بلدان الاشتراكية الى الشيوعية؟ ويطبق المباديء، الشيوعية في الانتاج والتوزيع، بينما سائر البلدان لا تزال متأخرة جداً، عند الاطوار الاولى من بناء المجتمع الاشتراكي ان هذا الوضع قليل الاحتمال[٣]).

والواقع ان الانتقال الى الشيوعية قليل الاحتمال بل غير ممكن بكل صرامة فان لينين حرف الشيوعية تحريفاً جذريا، وكون نظاما جديداً قابلا للتطبيق، وان اعتبره المرحلة الانتقالية كما صرح بذلك ستالين : (اما الحقيقة كلها عن اللينينية، فهي انها لم تقتصر على بعث الماركسية، بل خطت فوق ذلك خطوة اخرى الى

---

(١) خروشوف (في الارقام التوجيهية) ص ٧٤ ط موسكو.

(٢) نفس المصدر: ٩٧.

(٣) نفس المصدر: ١٦٢.

امام، بتطويرها الماركسية في الظروف الجديدة للرأسمالية، ولنضال البروليتاريا الطبقي[(١)]).

كل ذلك ينتج ان الشيوعية لم تطبق، وانما ظلت حتى الان حلما شروداً، رغم المحاولات السخية، التي اهدرها الحزب الشيوعي، الذي اخضع لارادته جميع المواهب والطاقات، وهذا اكبر دليل على فشل هذا النظام، وعدم صلاحيته لتوجيه المجتمع وتنظيمه.

يتسائلون:

وعلى اعقاب ذلك يسئلون: ولكن هل يعتبر عدم تطبيق النظام الشيوعي عيبا في النظام نفسه ؟ ام يعتبر عيباً في اولئك الذين لم يطبقوه؟

والجواب: ان عدم تطبيق نظام من الانظمة حينما يكون بسبب جبن انصاره، او عدم اخلاصهم لمبدئهم، فان ذلك العيب يكون راجعاً الى القادة، ومن الظلم ان يحمل على النظام جريرة اقترفها اصحابه المسؤولون!!

اما لو كان عدم تطبيق ذلك النظام ناشئاً عن استعصائه، وعدم تطويعه للواقع، ومصادمته للفطرة، ومناقضته لنواميس الاشياء . فلا شك ان ذلك يكون نقصاً في النظام.

والواقع انا لا نستطيع ان نتهم قادة الشيوعية، من لدن ماركس الى خروشوف، بعدم الاخلاص لمبدئهم، او العمل على عرقلة النظام الشيوعي

---

(١) ستالين (أسس اللينينية) ص٢.

والحيلولة دون تطبيقه .. وبالرغم من محاولاتهم الصادقة بقيت الشيوعية بمعزل عن واقع الحياة . لاستعصائها على التطبيق، ومناوئتها لفطرة الاشياء وهي التي اورثت جهادهم هنا الفشل الذريع.

اخطاء الشيوعية:

ليست بي حاجة الى تعداد اخطاء الشيوعية، فان الشيوعية كلها مجموعة اخطاء واغلاط ... ولا نجد بنداً من بنودها بريئاً من الطيش والتناقض . فان مباديء الشيوعية، لا تعدو الافكار التالية :

١- فطرة الانسان مجردة عن الميول، والغرائز، والاستئثار ..!

٢- اختلفت عن البشرية المراحل الخمسة التاريخية: الشيوعية الاولى، الرق، الاقطاع، الرأسمالية، الشيوعية الثانية!..

٣- ولا بد من : استيلاء البروليتاريا على الحكم.

٤- القضاء على رأس المال، والربح الناتج منه!

٥- القضاء على الملكية الفردية .

٦- القضاء على العائلة .

٧- تأميم وسائل الانتاج.

٨- القضاء على الطبقات.

٩- الغاء الدين، والاخلاق، وتحطيم سائر القوانين السائدة.

١٠- جعل العمل اجباريا للجميع.

١١- توزيع البضائع حسب الحاجات، ورفع الاسواق والنقود.

١٢- القضاء على الدولة .

تجريد الانسان من الميول:

فاما اعتبار الانسان مجرداً من الميول المتأصلة في طبيعته، فهو خطأ تنقضه الفلسفة الديالليتيكية ذاتها !!.

فان (دارون) و (فرويد) اللذان نشرا بذور الديالكتيك، يقرران في الحيوان كما في الانسان الغرائز الجامحة، والميول الشرهة، ويفسران جميع مظاهر الانسانيات والديانات بهما، ويعرفانهما مبعث الظواهر البشرية كلها ... وهذا التفسير الجنسي للسلوك البشري، ليس تفسير للسلوك الفردي وحده، وانما هو كذلك. محور الحياة الاجتماعية. منذ بدأ التاريخ البشري حتى اليوم..

كان دارون قد قال : (في عالم البقر تنطلق الثيران الفتية الشابة تريد ان تزو على امها. فتمنعها سيطرة الاب. المسيطر على القطيع. فتنشب معركة حامية . بين الثيران الفتية . والاب الشيخ . يتكتل فيها الابناء ضد ابيهم حتى يقتلوه . ثم يقتتلون فيما بينهم. كل منهم يريد ان يستخلص الام لنفسه فيموت الضعاف في المعركة . او ينعزلوا . ويبقى ثور واحد يستولي على الام ويصبح هو قائد القطيع).

وجاء فرويد ينقل عن دارون هذه الاسطورة القذرة . غير انه نقلها (ايضاً) من عالم الحيوان الى عالم الانسان . فقال: (حدث في البشرية الاولى. يحدث في عالم البقر احس الابناء برغبة جنسية نحو امهم التي ولدتهم ولكن سطوة الاب كانت تمنعهم من هذه الشهوة الاثمة. فتآمر الاولاد على قتل ابيهم . ليتخلصوا

من سطوته . ويستأثروا بأمهم . واستيقظت الارض ذات صباح على صيحات مجنونة وصرخة مروعة: لقد نفذ الاولاد ما تآمروا عليه).

ويذهب فرويد الى حيث يدعي : الجنس هو كل شيء . وكل شيء نابع من الجنس .. فيقول: (الطفل يرضع ثدي امه بلذة جنسية ويتبول ويتبرز بلذة جنسية. ويحرك عضلاته بلذة جنسية... ويرتبط بامه بشعور جنسي. (كما ترتبط الطفلة الانثى بابيها بشعور جنسي).

لسنا بصدد مناقشة هذا الهراء الفارغ مناقشة موضوعية ولكنا نستخلص من ذلك كله : ان المادية الديالكتيكية تؤكد: ان الفطرة البشرية الاصلية مختمرة بالوان من الميول العاطفية والغرائز الجنسية. والاستبداد والاستئثار.. اذن فكيف يمكن استخلاص الانسان من نزواتها الطائشة دون ايما كبت داخلي. او خارجي؟؟

فاذن ! انهارت الدعامة الاولى، من دعائم الشيوعية، القائلة: بان الانسان بطبيعته الاولية مجرد عن الميول والغرائز، والبيئة هي التي تفرضها عليه، ويمكن تجريد الانسان منها بتبديل البرامج الاجتماعية، وتعقيم البيئة منها!!!

مراحل التاريخ:

تتركز الفكرة الشيوعية – في المرحلة الثانية – على مبدأ دارون القائل: بالتطور الطبيعي الحتمي للبشرية في كل شيء ... فهي كما تنتقل من الصيد الى الرعي، الزراعة، الى الصناعة ... وتتطور من الخرافة، الى التدين، الى العلم ... كذلك تنتقل من الشيوعية، الى الرق، الى الاقطاع، الى الرأسمالية. الى الشيوعية ...

وهذه الفكرة مغلوطة، بالغة في الغلط ..

فاولا: من ذا يقول: ان البشرية مرت بهذه المراحل؟ واي تأريخ يسجل: ان الانسانية الاولى كانت شيوعية؟ وحقا، ان من السخف ان يدعي المرء مثل هذا الادعاء الطائش، الذي لا يعتمد على اي مدرك او دليل ...

ثانياً، ان المصادر التي تروي لنا اخبار البشرية الاولى، لا تعدو الكتب السماوية، واحاديث الانبياء والائمة عليهم السلام . وهي جميعا تؤكد: ان البشرية الاولى لم تكن شيوعية، وان اول بشر وجد على سطح الارض وابو الانسان. (آدم — ع) كان نبيا وذريته كانوا مؤمنين وكافرين، كما هم الان مؤمنون وكافرون ...

فاذن! اين وجدت الشيوعية الاولى؟ اكثر الظن ان الشيوعية الاولى تكونت ، وعاشت، وماتت، في خيال داروان وزبانيته واذنابه!! كما ان الشيوعية الثانية لم توجد الا في اوهام ماركس، وانجلز، ولينين وعملائه.

ثالثاً، ان القول بالمراحل المتعاقبة للبشرية: الرق، ثم الاقطاع، ثم الرأسمالية، خطأ مفضوح، فان التواريخ تحدثنا: انها لم تكن مراحل متتالية، بل كانت ظواهر متقارنة لفساد الاجتماع، فكان يعدم الرق، والاقطاع، والرأسمالية، في المناطق الخاضعة للاديان الصحيحة، كما كانت توجد ثلاثتها بمجرد انطلاقها من حدود الاديان...

وحتى قبل نصف قرن كانت الرأسمالية تعيش الى جانب الرق، والاقطاع، واليوم نجد الرأسمالية والاقطاع معا الى جانب اسلوب متطور من الرق، يلائم القرن العشرين، هو استعباد المستعمرين لمستعمراتهم!

فتلخص من ذلك كله: ان تفسير التاريخ بهذه المراحل الخمس اكذوبة مرتجلة تائهة !

حكومة البروليتاريا:

اول ما تنجزه الشيوعية استيلاء البروليتاريا: (الطبقة العاملة على الحكم، وهو الركيزة الثالثة في الفكرة الشيوعية... وهو خطأ لـ:

١- ان توجيه الاجتماع، وادارة السياسة الداخلية والخارجية، وتنظيم الاقتصاد والثقافة، والشرطة، والجيش، ... يتطلب مزيداً من الوعي والمواهب. والتجارب والعمال ابعد طبقة عن الكفاءات والامكانات، والطاقات الفكرية الخلاقة الكافلة لتولي دفة الحكم بيقظة وحكمة أناة ... فهل من الصحيح تفويض مصير الملايين الى طبقة لم تؤت نصيبا من الوعي الاجتماعي . والتنظيم السياسي. بعذر: انهم كانوا مضطهدين او انهم يكدحون اكثر من اية طبقة اخرى؟؟!

ب – صحيح ان العمال يقومون بدور هام في الانتاج. وفي خدمة الاجتماع. ويبذلون من الجهد ما يستحق التقدير. ولكن مجرد قيامهم بالعمل لا يعني ان الطبقة المختارة المفضلة على سواها. فالاجتماع يحتاج الى جهد تعاوني مشترك منظم، يقوم به العمال. والمهندسون والمفكرون. والمبتكرون. والجيش والشرطة، والمدراء، والمعلمون، والطلاب والكتاب... على حد سواء، كشركاء في تنظيم الاجتماع، وضمان توفير الرخان، والحيلولة دون طغيان انسان على انسان. فالعمال يساهمون بالجهد البدني كما غيره يساهم في الجهد الفكري . او البدني ايضاً.

وبعد ذلك فلا يوجد مبرر لتفضيل العامل، على من يؤدي مسؤليته الاجتماعية، بحجة ان العامل نواة الاجتماع فالمدير – كذلك – نواة الاجتماع لولاه لشاع الفوضى . وسحق العامل وانتاجه معاً كما لا يوجد ما يدعو الى القول بان العامل يعيش بحق لانه يأكل انتاج نفسه . والاخرون متطفلون على العامل لانهم يأكلون انتاجه، ففي وسعنا القول بان الجندي يحيا بحق لانه يحمي نفسه، والعامل متطفل على الجندي لانه يتفيأ ظلاله، ولولاه لما استساغ الحياة ... وكذلك سائر الافراد الذين يقومون بخدمة اجتماعية !! فكل فرد يبذل جهدا له ان يتقاضى ثمنه سواء تمثل هذا الجهد في الطاقة البدنية او الذهنية او في الطاقة الميكانيكية التي توفرها الالات نيابة عن اصحابها .

ج – ثم لو اعترفنا لصدق نظرية لزوم دكتاتورية البروليتاريا هل ان جميع العمال يتصدرون المناصب، ام بعضهم دون بعض؟؟ لا يمكن رفع جميع العمال الى الحكم . لان الدوائر تضيق بهم . فلا بد من تفضيل بعضهم على بعض. وذلك لا مبرر له .!

ثم لو رفعوا العمال الى الحكم فمن ذا يقوم باداء مسؤليتهم في الانتاج؟ ومن هم المعينون بكلام ماركس: (اذ ان الصناعة الكبرى تهدم كل صلة عائلية عند البروليتاريا وتحول الاولاد الى مواد تجارية بسيطة وادوات عمل صرفة[1])؟ الا يشمل ذلك اولاد العمال؟ اذن فالعمال يحولون الى مواد تجارية بسيطة. وادوات عمل صرفة. ولا يرفعون الى المناصب. اما دفة الحكم . فيوليها غيرهم.

---

(١) البيان الشيوعي: ٤٨.

فالنتيجة الملخصة: ان (حكومة البروليتاريا) سراب يحسبه الظمئان ماءاً حتى اذا جائه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه.

الدكتاتورية:

وتتعارض نظرية (دكتاتورية البروليتاريا) مع الحريات العامة التي ينبغي ان تتوافر للمحكومين . فالدكتاتورية فكرة لئيمة . مهما اختلفت اشكالها والوانها. ولا يشفع لها ان تكون دكتاتورية البروليتاريا. لانها تكشف عن عدم تطويع الشعب لتلك الحكومة. سواء أكانت تلك حكومة العمال . او البيوقراطين او الاستقراطيين او الارستقراطيين او الرأسماليين والحكومة الشعبية ابدا ليست بحاجة – في تنفيذ برامجها – الى التوسل بالدكتاتورية، والقسوة، والاضطهاد، وانما تتوسل بها الحكومات الاجنبية عن روح الشعب، التي تفرض عليه سلطات غريبة عن حاجاته واهدافه) فالتجاء الحكومة الشيوعية الى الدكتاتورية تنم عن انها ليست حكومة من الشعب وللشعب، وانما هي حكومة ضد الشعب ورغم الشعب ...

فلا بد اذن من الغاء الدكتاتورية، واستبدالها بالحرية .!!

رأس المال وربحه:

يحسب الشيوعيين: ان رأس المال والربح الناتج منه، يلازمان – ابدا – الاستغلال، والاحتكار، والربا .. وبالتالي تكوين الطبقات المتعاكسة... ولا يفقهون ان تلك نتائج رأس المال المطلق اما رأس المال والربح الناتج منه المحددان ، فلا ينتجان شيئا من تلك السيئات ...

بمقتضى هاته الفكرة الضيقة يحكم الشيوعيون بوجوب القضاء على رأس المال والربح الناتج منه . في حين ان رأس المال والربح الناتج منه، من العوامل الاساسية في توفير الانتاج، وتحسينه وتوزيعه !اما ضرورة وجود رأس المال فل:

ا - ان دفع اجور العمال، والمستخدمين، والمبتكرين، والمدراء امر واجب الاداء في الوقت المعلوم، ولا يحتمل التسويف والانتظار الى ان يتم اخراج السلعة وتسويقها، وذلك لا يكون الا مع وجود رأس المال . ولا يمكن ان يأخذ العمال والمستخدمون كميات متكافئة من نفس السلعة التي ينتجونها، لان حاجاتهم لا تختصر في سلعة معينة وانما تحدو بهم الى الوان شتى من السلع والخدمات ... لذلك لا بد لهم من الاجور والمكافئات النقدية، ولا بد للاجور والمكافئات النقدية من رأس المال !!

ب - ان رأس المال هو الذي تهيأ به المعامل والمصانع، وتشتري به آلات التي لا بد منها في توفير الانتاج وتحسينه وتخفيف قسوة العمل ... كما انه لا بد من رأس المال في شراء الخامات واستخراجها من المناجم ! .

ج - وبدون رأس المال، لا يمكن ضمان استمرار الانتاج - سيما في الازمات الاقتصادية - فصاحب رأس المال يغامر بثرواته، لانه يدفعها وهو يعلم انها لا ترجع اليه الا بعد انتاج السلعة وبيعها، وهذه مغامرة بالنسبة الى من لا يعرف مدى ما سيصيب سلعته من رواج او بوار .. كما ان صاحب رأس المال ربما يضطر الى التضحية بشطر من امواله في سبيل تحسين الانتاج اذا انتج الرأسمالي الاخر سلعة اروع واباعها بأبخس ثمن - تبعاً لعوامل قد

تحدث في الاقتصاد – فيضطر كل من التجار الى تحسين سلعته وبيعها بثمن زهيد، تحت ضغط التنافس الحر ... وذلك لا يكون الا بوجود رأس المال .. نعم لا بد من تحديد رأس المال، كي لا يطغي ويفسد اكثر مما ينتج ويصلح !!

واما ضرورة وجود الربح الناتج من رأس المال فلولاه لم يقدم احد على الاشتراك في حلبة التجارة، والمغامرة بامواله في سبيل اللاشيء، لان التجارة لا تربح ابداً، فالتاجر قد يجهد ولا يربح، وربما يخسر اصل المال فلو لم تكن هناك رغبة ملحة في الربح، تجافا كل فرد باموله عن الاسواق ووقفت التجارة، وشاع الكساد، وتفشي العطل..

غلطة ماركس:

ولكن ماركس حيث لا يؤمن بملكية الربح الفائض عن رأس المال يتسائل:

(كيف يقدر مال ما ان يربح ، ويصبح اكثر من نفسه ؟ اننا لا نجد في المنتوج الا ما يساوي المال المدفوع للعامل، وقيمة العمل – اي القيمة الذاتية للمنتوج – وتآكل الآلات .. فمن اين اتى الربح ؟ اكانت هناك قوة سحرية تجعل راس المال اكثر من هذه القيم؟) ثم يفسر هذه الظاهرة بان الرأسمالي انما يكسب الفرق بين الاجر الذي يعطيه للعامل،والقيمة الحقيقية للمنتوج اي ان الربح يأتي على حساب نفع العامل ومن وراء الاضرار بحقه، واذن فالربح لصوصية ظالمة، ينبغي القضاء عليها.

ان ماركس يعدد سعر الخامة، واجر العامل، ونفقات العمل فيرى ان الواجب ان تباع البضاعة بنفس الثمن – مثلا – اذا كان ثمن الخامة ٢ قرشاً، واجر العامل ١ قرشاً، والنفقات الاخرى ١ قرشاً، فالمجموع – ٤ قروش.. فلو باعها صاحب رأس المال بـ ٥ قروش، يرى ماركس . ان هذا القرش الخامس زائدا ! فيتفلسف له، من اين اتى؟ ينتهي الى ان اجر العامل لم يكن قرشاً واحدا، وانما كان قرشين، وحيث دفع صاحب رأس المال للعامل قرشاً واحدا، فهو اذن سرق منه القرش الاخر، الذي استأثر به.. مع ان هذا خطأ مفضوح !

لان صاحب رأس المال يعمل ايضاً، غير ان عمله ليس عملا يدويا ولست ادري كيف ان المهندس يستحق الاجور؟

والمدير يستحق المكافئة؟ اما صاحب رأس المال – الذي هو بمنزلة المدير العام في بعض الاحيان، وبمنزلة المهندس والمدير في بعض الاحيان – لا يستحق شيئا، حتى اذا وفر لنفسه قسما من سعر البضاعة يعتبر لصاً؟!!.

والواقع ان صاحب رأس المال لا يقل عن المدير، فلا يعتبر لصا لو استوفى نصيبه. كما ان المدير والمهندس، والعامل كذلك، فكما ان البضاعة لا تخرج من دون عمل العامل، كذلك لا يمكن الانتاج من دون تنظيم وتوجيه صاحب رأس المال ...

وفي نفس الوقت نعترف بلزوم ان لا يغالي صاحب رأس المال في تحديد الاسعار، كي لا ينال اكثر من نصيبه الشرعي.

اما كيف يسمح لإصحاب الشركات العالمية، ان يستوفوا الارباح السخية، لعدة كلمات يلفظونها كل يوم في لاقطة التلفون ؟ فمثلهم مثل الوزراء، الذين يحتكرون المناصب الخطيرة، وراتبهم – على اي حال – اكثر من راتب موظف بسيط، مع ان عملهم اليومي اقل بكثير من عمل ذلك الموظف... وهذا حق، لان نوع العمل يختلف، وتبعا لذلك تختلف كمية الاجور، لان للعمل الخطير مسؤلية خطيرة والقيام بالمسؤلية الخطيرة ربما يستتبع خسارة جسيمة، فلا بد ان يكون في الطرف المقابل منفعة راجحة حتى ينهض فرد من الطامحين بعبئها ...

فاذن لا بد من تقرير مشروعية رأس المال، والربح الناتج منه ...

والشيوعية لا تقضي على رأس المال قضاءًا تاما، وانما تحولها من ايد الى ايدي، وسنبحث عن ذلك تحت عنوان (التأميم)[١].

الملكية الفردية:

ان حرية الفرد في اختيار العمل الذي يروقه، وتؤهله له ملكاته ومواهبه ... وحريته في ان يرصد لنفسه ريع انتاجه ومكاسبه ... لان الحرية – لا القيود والاستعباد – هي التي تفسح المجال للتنافس الحر والسعي نحو الكمال، وانطلاق طاقة الابتكار، فحين توفر الحرية للافراد، بطريقة عادلة عمادها (تكافؤ الفرص).

---

(١) لقد اسهبنا في الرد على هذه المادة من النظام الشيوعي لاني لم اجد من انجلز الواقع حقه!

يشعر الافراد بما لديهم من كرامة، كما يجعلهم يكيفون حياتهم كما يريدون، فيتقدمون الى الامام، يوسعون البحث عن وسائل جديدة لتنفيذ وتحقيق ما يريدون. والنظام الذي يكفل الحرية الفردية، اقدر على استفاد موارد البشر والطبيعة .. فالرغبة الجامحة المنبعثة من المنافع الشخصية، هي التي تثير في الانسان طاقة الابداع والاختراع وتتيح للافراد حق زيادة الدخل بالوسائل المشروعة، وتؤدي الى انتشار الرخاء ...

على حين ان مصادرة الحريات، تجعل من الافراد آلات آدمية وتنشر نوعا من السخرة الاقتصادية، فحيث تحدد الدولة مقررات الافراد والسيطرة على الانتاج، تعدم التنافس، وتقتل الابتكار، وتنجز النشاط والتحفز في الانسان، فيضعف تدفق الانتاج، وبراعته وتحد سير التقدم الاقتصادي في المباريات الاقتصادية العامة ...

فاذن لا بد من الملكية الفردية. والا لنقلص الاقتصاد الوطني، والدخل الاهلي.

القضاء على العائلة:

من اسخف ما في النظام الشيوعي، فانهم يحاولون القضاء على العائلة لاطلاق الشهوة الجنسية، والارتواء الجنسي الفاجر، وذلك هدف جد تافه، بالقياس الى ما يستتبعه من خسائر فادحة على الاقتصاد والاجتماع نذكر منها ما يلي :

١- ان رئيسي العائلة الرجل والمرأة، يقومان بجميع الاعمال البيتية، وهذه الاعمال كثيرة باهضة جدا، ولكن الرغبة العاطفية نحو العائلة تحفز الرجل والمرأة الى انجاز هذه الاعمال، وتنسيهما الاتعاب والمصاعب، حتى لو لم تكن هناك عائلة، لم يقم احد بشطر من تلك الواجبات، فرجل العائلة يؤدي – على الاقل – ضعف ما يؤديه رجل الفرد ... فلو الغيت العوائل فاضت الاعمال عن معدل العمال .. لان رب الاسرة ينهض باعبائها خارج ٨ ساعات العمل المرسوم، فاذا تحطمت العائلة، اصبحت التكاليف المنزلية داخل برنامج ٨ ساعات العمل ...

٢- ان حضانة الاطفال، وتربيتهم، وتنشئتهم، مما يقوم به رجل وامراة، ويظمنان اشباع جميع حاجاتهم الاقتصادية، والاجتماعية، والنفسية، اما لوبعثرت العائلة، كان على الدولة ان تخصص كميات كبيرة من الاموال، والموظفين والعمال والمستخدمين والنساء ... للقيام بتلك الحاجات، التي تصبح اجتماعية، بعدما كانت فردية ...

ان الاحصاءات المتكررة في اكثر البلاد الراقية، اعلنت: ان غالبية اطفال الملاجيء ينشاؤن قليلي الذكاء والمواهب، تبعا للروتين السائد على الاعمال العامة، فتموت العبقرية في نفوسهم الرشيقة، وتتحجر عواطفهم البضة، بينما نجد اطفال البيوت ينشاؤن متوفري الملكات والامكانات لانهم ينالون من حضانة الام ومرونتها وحنانها الكمية المعينة من العناية المنسجمة مع نداءات فطرتهم، التي تعلنها جرس البكاء، ويحددها الاعراض ومهما كان نظام الملاجيء، فانه لا يبلغ حنان الام.

فلا بد ان من الابقاء على العائلة، حرصا على نواميس الاجتماع..

التأميم:

ما عسى ان تفعله الشيوعية، باحتكارها مصادر الانتاج، وتأميم الملكيات ؟ اتريد القضاء على البرجوازية والرأسمالية ؟ ام تريد سلب ثروات الشعب ؟ ..

والواقع ان النظام الشيوعي، لم يحاول القضاء على البرجوازية والرأسمالية، وان هتف المغفلون بذلك !! فقبل الشيوعية كانت ثروات البلاد تحت ايدي افراد الشعب، غير ان التوزيع كان جائرا، لذلك انقسم المجتمع الى ثلاثة طبقات متباعدة، الرأسمالية، البرجوازية، الطبقة العاملة والفقراء ... وجائت الشيوعية فسلبت مجموع الثروات من افراد الشعب وحولتها الى قاصات الدولة، فاصبح الشعب كله فقراء، واصبحت الدولة رأسمالية جبارة.

فاذن الشيوعية لم تقض على رأس المال، وانما وجدته في ايدي الشعب فانتزعته بالشدة والعنف . واستأثرت به فكانت النتيجة أن ظهر رأس المال في اقسى مظاهره، عبر التاريخ والقرون، لان الزمان لم يشهد رجلا واحدا يقبض على مجموعة ثروات عشرات الملايين من البشر حتى ان (فرعون) و (قارون) و (نيرون) و (هولاكو) و (جنكيز) وسائر المردة والطواغيت لم يبلغوا ما يبلغه رئيس الحكومة الشيوعية..

فاذن لا يصح مصادرة رأس المال، وتأميمه، لانه يبقي رأس المال وانما يتحول من ايد الى ايد، ويصبح اقسى مما كان عليه في اي نظام اخر..

الطبقات:

ان النظرية الشيوعية تقسم المجتمع ابدا، الى طبقة عاملة كادحة هي البروليتاريا ، وطبقة مستغلة مستثمرة متطفلة على المجتمع هي: البورجوازيون والرأسماليون، ويختلفون – على صعيد الورق – الصراع الدائب العاصف بين هاتين الطبقتين... وهذا النوع من التقسيم لطوائف المجتمع ينطوي على مغالطة مقصودة، فمجرد وجود جماعة من المفكرين، وجماعة من العمال، وجماعة من الموظفين، وجماعة من الضباط العسكريين، وجماعة من اصحاب رؤوس الاموال في اي مجتمع من المجتمعات.. لا يعني بالضرورة : ان هذا المجتمع موزع الى طبقات متباينة متصارعة...

كما ان قيام العمال بالعمل، وبذل الجهد البدني، لا يجعل منهم طبقة قائمة بذاتها، مستغنية عن سائر الطبقات... ومجرد استخدام اصحاب رؤس الاموال لاموالهم في الانتاج، لا يلازم الاستغلال والتطفل .. فالعامل يملك طاقة بدنية، والمهندس يملك طاقة فكرية، وصاحب رأس المال يملك طاقة مالية، فاذا ما تعاونوا على الانتاج يجب ان يوزع الفائض بينهم، ولكن يجب – ايضا – ان يكون التوزيع عادلا، لينال كل مكافأته الكاملة، كي لا تبعد الشقة بين الطبقات، ولا ينشب الصراع بينها ويلغي تألب الطبقات ضد بعضها البعض فاذا نال كل منجزات جهوده، او ارباح طاقاته ومواهبه، فاي شيء يدعو لتحطيم الطبقات، وتسويتها في طبقة موحدة، هي طبقة الكادحين ؟؟؟ وانى ينشب الصراع والتناقض؟.

ان الاعمال التي تبني كيان الاجتماع، قد تكون فكرية، واخرى تكون جسدية، ويتقسم كل منهما الى العمل البسيط، والعمل القاسي، المستعصي ... وتبعا لاختلاف هاته الاعمال سهولة وصعوبة، تختلف اجورها والا لما تطوع اي فرد للقيام بالاعمال القاسية، وآثروا النهوض بالاعمال الهينة البسيطة ... وباختلاف الاجور تلك، تتكون الطبقات ...

تلك هي الفلسفة الطبيعية لتكون الطبقات !! ، فماذا تريد ان تفعله الشيوعية؟

هل تحاول ان تجعل الاعمال المتباينة – كلها – في مستوى واحد – تكوينا – من حيث الارهاق الفكري والجسدي ؟ وهذا محال ! لان الاعمال مختلفة، شائت الشيوعية ام لم تشأ.

ام هل تريد ان تعتبر الاعمال المختلفة في مستوى واحد، وتسبغ عليها كميات متساوية من الاجور والتقدير؟ وهذا جحود للفضيلة، وانكار للجميل .. فان تسوية رئيس الحكومة، بكانوس البلدية، من حيث التقدير والاجور، كفر بالحق وظلم، وجفاء... ومتى كان ذلك فسوف ينكل الجميع عن تحمل المسؤليات الخطيرة، ويتوانوا الا عن البسيط الحقير منها..

او تبغي الشيوعية، ان ترفع الناس جميعا الى ارفع مستوى من الثقافة الواعية، ثم يدعهم ليزاولوا الزراعة والصناعة وينتظموا بانفسهم تنظيما مثاليا؟ ان كان ذلك فسنتحدث عن مثالية هذه الفكرة تحت عنوان (إلغاء الدولة).

فلا مناص اذن، من اقرار الطبقات، غير انه يجب تعديلها، والعمل لتكوين مجتمع متقارب الطبقات، القائمة على اساس المواهب والاعمال..

الاديان والاخلاق:

ليست الاديان والاخلاق سلعة رابحة في القبر، ويوم القيامة، وبين الجنة والنار فقط ! ولكنها قوانين هبطت من السماء لتنظيم الارض، وتنسجم مع طبيعية الانسان . انسجاما دقيقا عميقا... ولقد لمحها ماركس امامه سداً راسخا شامخا يكسر نبض التيار مهما كان قويا جارفا، فوجه اليها حملة ظالمة مسلحة ليزيحها عن الطريق، حتى يمكنه تطبيق نظامه الكافر...

ولقد نفذ لينين مخططاته القذرة، ومؤامرات ضد الحق والبشر، ولكنه ذاق الامرين، كرد فعل طبيعي لالغاء الاديان والاخلاق لان الاديان والاخلاق، هي التي تعصم البشرية، دون اقتراف الجرائم واحداث الفساد الشامل، والفوضى العارمة، واغتيال الحقوق والاموال والنفوس .. فاذا تعرى الانسان من الاديان والاخلاق، وعرف ان مدى نجاحه في الحياة انما يقدر بمقياس المنافع الشخصية، فاي شيء يحجزه عن التوصل الى هدفه – مهما كان رخيصاً – حتى ولو تطلب سحق مئات الالوف من الابرياء؟

ان المحاكم والشهادات وجميع الدوائر والادارات.. انما تلتزم بوظائفها، لو عرفت نفسها تحت رقابة دقيقة من الدين والاخلاق، وسوف تنحرف عن مناهجها – لو لم تؤمن بالدين والاخلاق –حتى ولو كان عليها الف رقيب ورقيب...

ان في بلادنا التي لا تزال تتسم بطابع الدين نجد الحكام والشهود والرقباء، يحكمون بالباطل ازاء دراهم معدودة، مع ان في بلادنا لا يزال اسم الحرية باقيا ويمكن الاستئناف، او توجيه الدعوى الى الحاكم والشاهد والر قيب، فكيف يكون الامر في البلاد التي تسودها الدكتاتورية المطلقة، من قبل فئة معينة، تحكم بالشبهة ، وتقتل بالتهمة، ولا هدف لها الا انجاز مصالحها واغراضها، ونحن لا نطلق تلك جزافا وانما نستلهمها من الانباء التي تخترق الستار الحديدي بين الفينة والفينة !!

وقد خصصت الحكومة السوفياتية – في الوقت الحاضر – للعيون والبوليس السري ودوائر الامن ، الميزانية، اكثر بكثير مما ارصدته لتأمين الاقتصاد الوطني، واشباع حاجات مجموع الشعب... ولقد كانت الحكومة الاسلامية تبعث رجلا واحدا- بصفة- : (الوالي) لتنظيم لواء كامل، فكان وحده ينهض بذلك العبء الفادح، دون ان يحتاج الى معاون، او امن ... ومتى قايسنا هذا بذاك عرفنا مدى الخسارة التي تحملتها الشيوعية بالغائها للاديان والاخلاق !!!

اما تحطيم القوانين السائدة، هو الثاني الذي يتوسل الشيوعيون له بشتى الوسائل والحيل، وهو حق لو كان هناك نظام خير منها، واريد استبدالها به، لان جميع هذه القوانين السائدة، فاسدة غاشمة، ولا مراء في ذلك ولكن الحق ان الشيوعي اطغى واقسى منها فلا يصح سحقها، لتطبيق النظام الشيوعي، فبعض الشر اهون من بعض!

فاذن لا بد من الابقاء على الاديان والاخلاق، وتشجيعها وتنميتها كما لا يصح استبدال القوانين السائدة بالنظام الشيوعي ...

القوة والعنف:

تعتمد الشيوعية، في مكافحة الاديان والاخلاق، والبورجوازية والرأسمالية، وتحطيم السلطات والقوانين السائدة على الانقلاب الثوري عن طريق القوة والعنف، رغم ما تنطوي عليه هذه النظرية الهوجاء من مجافاة لما فطرت عليه الانسانية، من النزعة السلمية، والرغبة عن الظلم والاضطهاد، ومعاداة المبادئ التي تحرض على القتل ونشر الفوضى ، والولوغ في الدماء، والاستهتار بالارواح والكرامات، والمثل والمقادير..

ومن طبيعة النظم التي تفرض نفسها عن طريق القوة والعنف، والثورات الدامية، انها لا تردد في الالتجاء الى نفس الوسائل، في اخضاع المواطنين لارادتها، واستغلالها الاقتصادي، والاجتماعي والسياسي، والواقع ان الشيوعية التي تشجع الانقلابات الدامية في الحياة الفكرية، والاجتماعية والسياسية، ترتكب اقسى جريمة مروعة في حق الشعوب التي تقع تحت سيطرتها، لان الثورات الدامية ابدا تصحبها جرائم نكراء، اهونها احداث الحروب الداخلية، ثم المجازر الرهيبة...

عن طريق تأليب الطبقات على بعضها البعض، وشل الاقتصاد والانتاج، والتضحية بالحريات العامة، واهدار الحقوق والكرامات... في سبيل تمكين فئة معينة من القبض على زمام السلطة، ولا بد ان تثمر هذه الوسائل حكومة دكتاتورية فجة قاسية، لا تؤمن بالشعوب ومصالحها ...

وبالفعل حدثت هذه النتائج الوخيمة على اثر الانقلاب الشيوعي في روسيا ببشاعة وقسوة خياليتين!!!

فلا بد اذن من حذف الانقلاب الثوري، والقوة والعنف عن قائمة المبادئ، والا انتجت الانقلاب الثوري والقوة والعنف فالبر يثمر البر ، والشوك يولد الشوك ...

اجبارية العمل:

لماذا يكون العمل اجباريا، ان كانت الشيوعية لانقاذ العمال من قسوة البورجوازية والرأسمالية؟؟ وكيف تكون مصادرة حريات العمال واجبارهم على العمل، لو كانت الشيوعية حكومة العمال؟..

ان ماركس كان يصب احقاده على الرأسماليين والبورجوازيين لانهم كانوا يستعبدون العمال (!) فهل هناك استعباد اقسى من اجبارهم على العمل، وسلبهم كافة الحريات والضمانات القانونية؟ ان الرأسمالية – رغم علاتها – كانت تقرر حرية العمل والعمال، وكانت تعترف بحرية العامل في ان يعمل اولا يعمل، وباسم مكافحة هذا النظام تكونت الشيوعية فاذا بها تقرر اجبارية العمل.

عمل النساء والاطفال:

كما ان الشيوعية تسوى بين الرجال والنساء والاطفال في اجبارية العمل، ولم تفلت من حوزتها الخشناء، لا النساء ولا الاطفال!! ولقد اسلفنا[1] تباكي

(١)-لقد اعتمدنا في انتقاد الرأسمالية على الاحصاءات وانتقادات ماركس في كتابه رأس

ماركس وصرخاته المسعورة الكاذبة ضد الرأسمالية لانها سلطت عصاها على النساء والاطفال ايضا ولم يكفها ما صنعت بالرجال[1] والان نجد نفس ماركس يفعل ما فعلته الرأسمالية من استخدام النساء والاطفال، ويأبى الا ان يضيف عليه، فيجعل العمل اجباريا للجميع، ليصدق انتصاره العميق للنساء والاطفال بصورة خاصة (!).

توزيع البضائع لا النقود:

تحاول الشيوعية ان يعمل كل فرد حسب اقصى طاقاته ومواهبه عملا اجباريا لا يمكنه التخلف منه لحظة، ولو واحدة، ثم يتقاضى كفاء هذا العمل المرهق، وهذا الاستعباد الابدي ... من البضائع بمقدار ما يشبع حاجاته الاساسية فقط!.

ونحن عندما نلاحظ كتاب (رأس المال) لكارل ماركس، بأجزائه الثلاثة، نجده مكرساً في لعنة واحدة يصبها على الرأسمالية والرأسماليين لانهم يسرقون من العمال فائض انتاجهم ونراه الان يسوق العمال وانتاجهم جميعا ...

كان ماركس حاول ان يكرس في مبدئه الهدام مجموع القذارات والدناءات والسخافات، ويضيف اليها افكاره التي هي شر منها جميعا، ثم لا يستحي ان ينادي بأعلى اصواته: الحرية... العدالة... السلام... العمال... الحقوق..

←

المال، ليكون القارئ على بصيرة من مواقع نظر ماركس على الرأسمالية – دون ان نكرر القول – فلننظر الان هل رفعت الشيوعية مظالم الرأسمالية ام اضافت عليها؟؟.

(١)- انظر :((رأس المال)) كارل ماركس ج٢٢ ص ٢٢١ – ٢٩٤ + و ج٣ ص١٥١.

النسـاء... الاطفـال... ويتبـاكى عـلى الحريـات المضـطهدة ، والحقـوق السـليبة، والبشرية التي تتلوى تحت عصا رأس المال...

الدولة:

ان الدولة هي السـلطة الموجهـة لنشـاطات الشـعب، وحيـث انهـا تملـك جميـع الطاقات الجبارة، تستطيع من فرض ارادتها عـلى الشـعب، بحيـث لا يشـذ عنهـا احد، فاذا كانت الدولة منبعثة مـن صـميم الشـعب، ولمصـالح الشـعب، وتبنـت نظاما ينسجم مع العواطف، والغرائز، والاتجاهات الفطرية المركـزة في الانسـان، لا تحتاج الى اعمال مزيد مـن النشـاط، واسـتخدام القـوة، والعسـف والارهـاق.. وانـما يكفـي ان تحـد مـن نشـاط المنحـرفين بتـوجيههم ، او قمعهـم اذا الحـوا في الشذوذ وهكذا يتقلص جهاز الدولة، الى ان تبلـغ حـد المراقبـة عـلى الشـعب مـن بعيـد ، كـما لا تحتـاج عندئـذ الى السـلطات التنفيذيـة لان الشـعب يعملـون معهـا كجنود متى تفرسوا فيها الخير والصلاح... ولكن يجب ان تبقى لتكـون كموجـه ومؤدب للشعب، وكحامية عن العدو . شأنها شأن راعـي القطيـع الـذي يحرسـه من السباع، ويرد الشاذ، والشريد، او كفلاح الحقل يتعهـده بالسـقي والتهـذيب، ويطارد عنه اللصوص ... فلا بد من بقائها ولكن بصورة بسـيطة، ومتعاونـة مـع الشعب... ولا يمكن الغائها ما دام هناك اناس يتشذرون عن الطريـق عـن عمـد او لا عمد .

اما اذا كانـت الحكومـة اجنبيـة مفروضـة عـلى الشـعب او تبنـت نظامـا جـائرا تلفظه فطرة الانسان وركـائزه الذاتيـة الاساسـية، وتتحامـاه الطبـائع، وتنبـو عـن اطاعتها اومجاراتها، فلا بد حينئذ - لو ارادت البقاء – مـن اسـتخدام صـلاحيتها

وامكاناتها، واستباحة القسوة في البطش والتنكيل كي لا تفلت من يديها الزمام، ولا يتمرد عليها الشعب بضربة قاضية تطويها في بطون التواريخ ...

ومهما كانت الحكومة الشيوعية، فانها لا تستطيع من تغيير طبيعة الانسان، ولن تقدر على ان تخلق من الناس ملائكة، لا يتجاوزون حدودهم المرسومة لهم... زيادة على ان الحكومة الشيوعية اجنبية عن غرائز الشعب وحاجاته، فتكون من النوع الثاني، التي لا بد لها من تنفيذ اقصى صلاحياتها وقواها، لتبقى على كيانها رغم مجموع الشعب...

فاذن لا يمكن الغاء الدولة، كما كان يحلم به ماركس واذنابه .!!

خاتمة:

لقد تلخص -من ذلك كله- ان الشيوعية ليست الا مجموعة الاغلاط، فكل بند من بنودها خطأ مفضوح لا يمكن الغض عنه.. وانها مبادئ اسطورية، بعيدة عن طبيعة الانسان وواقع الحياة... ورغم المحاولات القاسية، والضحايا الكثار التي قدمها لينين... وحيث لم تكن هذه الفكرة منتزعة من صميم الحياة تذرعت بالدكتاتورية... وسلبت الحريات.. وفرضت الافراد أدوات ميكانيكية بسيطة مسخرة لانجاز واجباتها... ثم اصطدمت بالأديان... والاخلاق... والقوانين.. فألغتها... واحتكرت مصادر الانتاج والملكيات الخاصة.. وقضت على العائلة.. وحاولت تحطيم الطبقات...وتكفلت توزيع البضائع بنفسها ليكون مصير الناس وحاجاتهم طوع إرادتها.. وهتفت باسم العمال والفلاحين لتكسبهم قوة هائلة عمياء... وارتكبت شتى الجرائم والمهلكات علها تفلح في فرض نفسها على الشعب، ولكنها فشلت.. وفشلت... فهي إذن فاشلة!!

هذه هي الشيوعية:

التي تغري وتعجب الكثيرين.. والواقع ان الشيوعية لا تغري ولا تعجب لو عرفها الناس كما هي ولكن قادة الشيوعية بادروا الى ستر اخفاق الشيوعية، وجرائمها وسيئاتها، خلف ستار حديدي، بصورة فنية دقيقة، ثم انطلقوا في الارض: ان هلموا الى الفردوس الاعلى، ودار السلام، والحرية، والسعادة، والرخاء، والحضارة، والتقدم والعلم والجمال... مستغلين في ذلك حقد الطبقة الكادحة الفقيرة على الاوضاع والمستثمرين، وسرعان ما تفعل هذه الدعاية المغرية مفعولها السحري، فينصاع الفقراء السذج الى توجيهاتهم متجمهرين، بدافع التغرير، او التلوين من طعم المحنة – على اقل تقدير – حتى اذا نجحت الثورة الشيوعية انفلق الستار الحديدي، ليتسع لهم فينغلق عليهم... ومع انغلاق الستار الحديدي، يفتحون اعينهم على القوانين المروعة الرهيبة... وسوف تشملهم حملة التطهير، اما من اعلن نقمته على الاوضاع، أو انهم بعد ولائه للحكومة، فسوف تطويه السجون، ومعسكرات السخرة، ومجاهل سيبيريا، حسب خطورته، وتفاهته.(١)

---

(١) لقد اصبح البحث اوسع من موضوع الكتاب، وذلك بغية ان نعطي نظرة موجزة كاملة عن المبدأ الشيوعي، ولكي لا نرتكب جريمة تجزئة الفكرة الواحدة.

الاقتصاد الاشتراكي

الاقتصاد:

الاقتصاد الاشتراكي:

بعث الاشتراكية:

تلك المآسي والويلات التي استعرضنا شطرا منها في الاقتصاد الرأسمالي، احدث برما، وانفجارا شاملا في الوعي العام، وسادت في الاوساط المضطهدة فكرة الانقلاب، وحيث كانت نقمتهم تنصب على النظام الاقتصادي الرأسمالي، عمدوا الى تشخيص الداء، وتعين الدواء[1] ليكونوا نظاما ناضجا متبلورا حتى يسنح لهم تطبيقه غب اكتساح الرأسمالية، وخرج الجميع من بحوثهم الطويلة، بالاتفاق على تصديق اللائحة التالية: التي تتضمن الخطوط العريضة للمبدأ المسمى بـ(سوسياليزم) اي (الجماعية) بازاء (الفردية) التي تبناها النظام الرأسمالي.

أما النقاط الرئيسية في اللائحة، فتتلخص في:

(ان مصدر الاخطاء والشرور – في عالم الاقتصاد – إنما هو (الملكية الفردية) ولا بد لتنظيم الاقتصاد العادل من اخذ التدابير التالية:

١- إلغاء الملكية الخاصة الغاءاً كلياً او جزئياً.

٢- تنظيم الانتاج والتوزيع بواسطة المجموع.

٣- تحقيق نوع من المساواة الفعلية).

تلك هي الجذور المركزية للاقتصاد الاشتراكي، المتفق عليها لدى الجميع...

---

(١) والواقع انهم عرفوا الداء، ولكنهم لم يعرفوا الدواء كما لم يعرفوا مبعث الداء، فظنوا: ان الملكية الفردية، هي مبعث الداء، عندما كان اطلاق الملكية مصدر الداء، لا اصل الملكية الفردية، وتبعا لهذا الخطأ أخطئوا في جميع التدابير التي اتخذوها لمكافحة هذا الداء.

وبعد الاتفاق على هذه الاسس تشعبت واختلفت المذاهب وتناقضت وتضاربت الآراء، وتحيزت إلى كل مذهب كتلة من الناس... غير أن هذه المذاهب لم تفتح طريقها إلى التطبيق غير:

١- الاشتراكية العلمية: الماركسية اللينينية.

٢- الاشتراكية النازية.

٣- الاشتراكية الفاشية.

ونحن لا نناقش هذه المذاهب مناقشة موضوعية مجردة، لأن أصحابها لا يعيرون اهتماماً للمباحث الموضوعية النظرية كما لا نبحث عن سائر المذاهب الاشتراكية، التي أعلن الزمان والتأريخ عجزها وفشلها، لأنها صوت إن صح فقد بح، والمذاهب الطائشة في العالم كثيرة لا تجلب الانتباه.. ونبتدئ بـ .

اشتراكية روسيا:

ويجدر بي – قبل البدأ – أن أنوه الى الحقيقة التأريخية، والعوامل التي دفعت بهذه الاشتراكية الى الوجود:

لم تكن اشتراكية روسيا قبل ثورة اكتوبر، مبدءاً أو فكرة قائمة بذاتها، وإن كان ماركس قد وضع النظرية الشيوعية كاملة، ولكن ماركس لم يضع تصميم هذه الاشتراكية، وإنما ارتجلها لينين بعد ثورة اكتوبر تدريجا وفي غمرات الصراع مع البشرية... فقد كان يقود الجماهير باسم الشيوعية ولكنه بعدما نزوى على العرش، وحاول تطبيقها، استعصت عليه واصطدم بالواقع الحي، الذي لم يتطوع له... فكان يقاسي الامرين، بين ضغط الجماهير من الرفاق، التي كانت

تطالبه بتطبيق الشيوعية، وبين الواقع الحي الذي ابى عليه تطبيق الشيوعية... لذلك كان يأخذ المادة من النظام الشيوعي، ويحاول تطبيقها، حتى إذا استعصت عليه حرفها كما تنسجم مع الواقع، وكلما سئل عن ذلك اعتذر: بأن الشيوعية لا تطبق فجئة، ولا تنزل من السماء، ونحن نطوي فترة الانتقال. وحيث كانت تأبى عليه غلوائه أن يعلن عجزه، وفشل الشيوعية، جعل يمني الناس بقيام الشيوعية بعد حين.

فمجموعة الأنظمة التي طبقها لينين، كمرحلة بدائية لشق الطريق الى الشيوعية هي: (الاشتراكية الماركسية اللينينية) التي ظلت حتى اليوم —

سائدة في روسيا ومستعمراتها بغية ان تؤدي إلى الشيوعية، كما يهتف بذلك خروشوف: (... والاحزاب الماركسية اللينينية تعتبر أن الهدف النهائي هو بناء المجتمع الشيوعي، ولكن المجتمع لا يمكن له أن يقفز من الرأسمالية إلى الشيوعية، دون أن يجتاز المرحلة الاشتراكية من تطوره، قال لينين:

(إن الانسانية لا تستطيع الانتقال مباشرة من الرأسمالية إلا الى الاشتراكية) (المؤلفات، المجلد ٢٤ص٦٢).... رغم كل الفرق بين المرحلة الشيوعية والمرحلة الاشتراكية، لا يوجد سد يفصل بين هاتين المرحلتين... وما من تقويم يعين موعد مجيء الشيوعية. ولن تأتي أبدا لحظة نستطيع فيها أن نغلق بابا ونعلن قائلين: (إن بناء الاشتراكية قد انتهى) ونفتح بابا آخر ونقول: (لقد وصلنا إلى الشيوعية).[(١)]

---

(١) خروشوف (الارقام التوجيهية...) ص١٤٠-١٤١ ط موسكو.

فأذن لم تنته بعد فترة الانتقال، ولا زالت اشتراكية لينين هي الطابع العام لروسيا ومستعمراتها كما ينص على ذلك الدستور السوفيتي المادة الاولى:

(إن اتحاد جمهوريات السوفيت الاشتراكية، دولة اشتراكية(١).)

وتتلخص الخطوط العريضة لهذا النظام في المواد التالية:

١- دكتاتورية الحزب الشيوعي

٢- مصادرة كافة الحريات

٣- تحديد الملكية الخاصة

٤- مساواة الرجل والمرئة في الحقوق والواجبات

٥- تأميم موارد الثروة العامة والخاصة

٦- توزيع البضائع حسب مشروع الدولة

٧- إجبارية العمل

فأما

دكتاتورية الحزب:

كان ماركس، ولينين، والحزب الشيوعي يعدون العمال والفلاحين بانهم

---

(١) الدستور. القانون الاساسي، لاتحاد جمهوريات السوفيت الاشتراكية، مع التعديلات والاضافات التي تقرر إدخالها أثناء دورات اجتماع السوفيت الاعلى: الاولى والثانية، والثالثة، والسادسة والسابعة والثامنة ص٣.

سيتولون قيادة روسيا فور تنازل قيصر عن الحكم وستحظى البروليتاريا بسيادة الامة وزعامتها، إذا عملت على زوال قيصر، وهذه الوعود الخلابة كانت تستخف العمال الذين كانت تلتهب ظهورهم تحت سياط رأسمال المال والعمال – أبدا – أقوياء مضطهدون، وصدر القوى المظلوم بركان لا يخبو إذا انفجر.

دور الطبقة الكادحة:

ولهذه الحقيقة استعارهم الحزب الشيوعي، من مزارعهم ومعاملهم، ليكونوا عمالا عنده، لا في الانتاج الاقتصادي، بل في الانتاج الثوري، ليكونوا له الجيش الباسل الامين، في الانقضاض على الحكم القيصري وإشعال نار الثورة عليه. أما جزائهم، فلا يعدو الوعود المغرية التي استلموها سلفا عن الحزب... كما افصح عن ذلك انجلز عام ١٨٧٢: (علمنا كارل ماركس: أن الصراع الطبقي الذي يحقق لنا الشيوعية، يعتمد أول ما يعتمد على القوة... ولهذا وقفنا إلى جانب العمال، لأن العمال هم أقوى طبقة في المجتمع[١]).

وما إن نجحت الثورة، حتى تقدم الحزب الشيوعي، وأزاح العمال والفلاحين عن الطريق، امراً إياهم أن ينصرفوا مشكورين، فقد نجحت الثورة، ولا مهمة غيرها، وقبض الحزب الشيوعي، والحزب الشيوعي وحده على زمام الحكم..

---

(١) (النظام الشيوعي) ص٢٣.

وحيث لم تكن الثورة – حتى ذلك الحين – ناضجة مضمونة النجاح كان الحزب يوجه بطشها وعنفها نحو أذناب قيصر، ودعاة القيصرية، وحزب المنشفيك: – المناوء للحزب الشيوعي – والرأسماليين، والبورجوازيين والاقطاعيين وكان بحاجة ماسة الى استخدام العمال والفلاحين، في القضاء على هؤلاء، وإنجاز مكاسبه الدامية... لذلك كله عندما طالب العمال والفلاحون قيادة البلاد من الحزب الشيوعي، استمهلهم، معتذرا بأننا في احرج ساعات الصراع مع اذناب الحكم البائد والبورجوازية والرأسمالية، وهذه فترة حاسمة لا بد للنجاح فيها مزيداً من الوعي السياسي والتجارب الكافية سيما وأن المستعمرين – من وراء الحدود – لنا بالمرصاد، وأنهم ينتهزون الفرص للتربص بنا، والقضاء علينا قضاءاً مبرماً، الان دعونا نكافح هؤلاء، ونثقفكم تثقيفاً دقيقاً، ثم نسلم الحكم اليكم، ونحن الان إنما نعمل نيابة عنكم، بصفتنا منظمة مثقفة منكم، ولا فضل لنا عليكم فانصرفوا الى أعمالكم مجتهدين، فقد عاد الحكم اليكم، واسترجعتم كافة الحريات بايديكم...

ازاحة الطبقة الكادحة:

بهذا المنطق المعسول والمواعيد المنمقة، خدع العمال والفلاحون، وراحوا إلى معاملهم واراضيهم فرحين مستبشرين، وراح الحزب الى تركيز منظماته وقواته، والتغلغل في جميع الاوساط، كما اطلق حملات التطهير من كل جانب، للقضاء على اعداء الشيوعية، باسم مكافحة الرأسمالية والبورجوازية، والقيصرية... حتى أمن الحزب مستقبله وساد الارهاب وخفقت الاصوات، وتغنى

الرصاص، وأعلن الحزب دكتاتوريته الكاملة... كان اول رأس هشم تحتها هو رأس الطبقة الكادحة، إذ قام الحزب بتشكيل (الكولخوزات): المزارع التعاونية، وراح يجبر الفلاحين على الانضمام اليها عن طريق تهديدهم بمصادرة ممتلكاتهم، تحت لائحة من قوانين الجور والاستعباد.

مجازر وسجون:

هنالك ثارت حفيظة العمال والفلاحين، واندفعوا ثائرين لحقوقهم وكراماتهم، وثورتهم... فقد علموا ان كل الجهود والاتعاب الخيالية التي بذلوها في سبيل الشيوعية، عادت لعنة عليهم، فأخذوا يقاومونها مقاومة صادقة، واعترضهم الحزب بالحديد والنار... حتى قدر: أن من قتل من الطبقة الكادحة، في سبيل هذا المشروع بنحو ١٩٠٠٠ر٠٠٠ نسمة وحكم على نحو ٢٠٠٠ر٠٠٠ نسمة بعقوبات فادحة مختلفة، كما نفي عن البلاد نح٠٠٠، ٤٠٠٠ او ٠٠٠، ٥٠٠٠ نسمة، حتى ان اخلص الرفاق، وأكبر دعاة الشيوعية، لم يكد يصبر على ما اقترفه الشيوعيون داخل بلادهم، في سبيل تنفيذ مشروع الزراعة الاجتماعية وحدها، من قتل لملاكي الاراضي الادنين، والمتوسطين بمنتهى القسوة والعنف.(١)

والتجىء العمال والفلاحون... الى احراق الكثير من محاصيلهم، وتبديد مواشيهم واموالهم، كي لا تقع فريسة في ايدي الحزب... ونشأت عنها المجاعة

---

(١) أبو الاعلى المودودي (اسس الاقتصاد...) ص٧٩.

الرهيبة عام ١٩٢٩ ... وحور الحزب دستوره ثلاث مرات عام ١٩٢٤ و ١٩٣٦ و ١٩٤٤ . غير ان يد التحريف لم تنل المواد المركزية التي اثارت غضبة الشعب.

وراح لينين يزأر في وجوههم: (ان من يضعف ولو قليلا في نظام الطاعة الحديدي، في حزب البروليتاريا يساعد البورجوازية في الواقع ضد البروليتاريا[١]).

ومنع اللجوء الى الاضراب، كما اعطى الصلاحيات الكاملة للنقابات في معالجة الحوادث بأسرع ما يمكن، واذا استعصت عليها، او تفاقمت المشاكل، فعليها ان تراجع السلطات العليا، قائلا: (... وينبغي عليها (النقابات): ان لا تخفى عن العمال والجماهير الكادحة، ان اللجوء الى النضال الاضرابي، في دولة تتولى البروليتاريا السلطة السياسية فيها، امر تفسره وتبرره فقط، تشويهات بيوقراطية للدولة البروليتارية. فواجب النقابات في حالة حدوث احتكاكات ومنازعات.. ان تساهم في حل هذه النزاعات بأسرع ما يمكن... واما ان ترجع الى المراجع العليا في الدولة[٢]..).

وجعل يزعق في وجه الحزب، كي يأخذ موقفا حازما لا ستئصال دابر التمرد على النظام، دون ان تحدد جرائمه البربرية، الرقة والعاطفة الانسانية، مناديا عام ١٩٢٠:

---

(١) ستالين. (اسس اللينينية) ص٩٩ نقلا عن لينين في كتابه (مرض الطفولة) المجلدات الكاملة الجزء٢٥ص١٩.

(٢)لينين (حول دور النقابات ومهماتها) ص١٢-١٣.

(يجب ان تكون القوانين التي نطبقها في بلادنا صارمة، ويجب ان تتميز بحمل المواطنين على اطاعتها، ويجب ان يبلغ احترام هذه القوانين أقصى الحدود، فنحن لا نتساهل مع اي فرد يتجاوز سلطة الدولة[١]).

وعقبه ستالين عام ١٩٥١:

(ان الشيوعي الذي يتسامح مع الخارجين على القانون الشيوعي، لا يقل عداوة لنا عن اعداء الشيوعية، ولهذا فاننا لا نرحم الرفاق الشيوعيين، الذين لا يطبقون القانون الشيوعي بقسوة وصرامة[٢]).

هكذا سحقت الطبقة الكادحة، التي دارت على اكتافها الثورة وظل الحزب الشيوعي دكتاتورا جائرا، معلنا انه سوف لا يتنازل عن الحكم، وان فترة الانتقال لا تزال مستمرة، وانها لا تنقضي في اليوم القريب وأطلق لينين كلماته الصارمة:

(ان الحزب هو الزعيم السياسي للطبقة العاملة... ان الحزب هو اركان الحرب لكفاح البروليتاريا[٣]).

وجعل ستالين يربط الطبقة الكادحة بعجلات الحزب قائلا: (ان نقابات العمال هي اجهزة تابعة لأجهزة الحزب[٤]،(ان نقابات العمال كلها يجب ان تكون

---

(١) (النظام الشيوعي)ص٢٨.

(٢) (النظام الشيوعي)ص٣٠.

(٣) ستالين (اسس اللينينية) ص٩٠ نقلا عن لينين في كتابه (مرض الطفولة في الشيوعية) ص١٧٣.

(٤) (النظام الشيوعي) ص٤٨.

في خدمة الحزب[(١)]، (ان الحزب يضع لانتاج كل عامل منسوبا معيناً يجب عليه ان يبلغه[(٢)]).

مصادرة الحريات:

وبعدما قرر النظام الاشتراكي كالنظام الشيوعي دكتاتورية الحزب كان من الطبيعي تقرير مصادرة الحريات! ولقد كانت الدكتاتورية، التي اعلنت اول يوم – باسم البروليتاريا – اقوى حجة على ان هذا النظام لا ينسجم مع طبائع الافراد، كما لا يمكن تنفيذه إلا بالقهر والارغام. وكيف ينال الشعب حرياته، والنظام الاشتراكي، هو وحده مصدر القوانين التشريعية، والجزائية، وهو يحدد كافة الاعمال والافراد، بحدود ضيقة جائرة، ولا يعترف للانسان بأية كرامة لو لم يقتنع بصدق أنظمته وقوانينه، ومنطق دعاته: اننا يجب ان ننشر فكرتنا حتى ولو كان في ذلك فناء مئات الملايين من الناس. ولقد صرح لينين عام ١٩٢٠: (نحن نعرف: ان نظامنا الجديد لا يحظى بتأييد كثير من المتذمرين. ولكننا لن نحفل بهؤلاء المتذمرين... بل اننا لن نسمح لهم بالتذمر.. وكل متذمر ضدنا هو في الواقع عدو لنا. ونحن لا نرحم أعدائنا، ولهذا لن نرحم المتذمرين[(٣)]).

فاذا لم يكن هناك مجال للتذمر على النظام، فهل يبقى معنى لسائر الحريات الواسعة النطاق، التي يشرعها كل نظام؟. ولكن ستالين لا يكتفي بعدم التذمر

(١) (النظام الشيوعي) ص٤٨.

(٢) (النظام الشيوعي) ص٤٩.

(٣) (النظام الشيوعي)ص٢٣.

على النظام، وإنما يريد أن يكون الجميع شيوعيين، أما من لم يؤمن بالشيوعية، فلا تشمله الرحمة، فقد هتف عام ١٩٣٥: (نحن لا نرحم أحداً ممن لا يؤمنون بالشيوعية[١]).

وحيث كان بعض الرفاق ينتقد هذه الدكتاتورية المقيتة – فقد خدعوا باسم الحرية، وأصبحوا من الرفاق لينالوا أوسع الحريات – فردهم لينين عام ١٩٢١ بهذه الكلمات النابية: (يقع كثير من الناس في خطأ فاحش، هو الاعتقاد بان القوانين يجب أن تحمي الحريات، ونحن نرد على هؤلاء البلهاء، قائلين: إن القوانين لا توضع لحماية الحريات، وإنما توضع لحماية الدولة[٢]).

فأذن جميع الحريات محظورة في البلدان الاشتراكية، لأن القوانين لم توجد لتحمي حريات الشعب، وإنما وجدت لحماية مصالح الدولة، المتكونة من الفئة الخاصة.

تحديد الملكية:

ليس لأحد – في النظام الاشتراكي – حق امتلاك أي شيء إلا الأجور التي يتقاضاها من الدولة، إزاء جهوده أو خدماته، وله الحق في التقتير على نفسه، ليدخر الزائد عن استهلاكاته، فاذا تجمعت لدية ثروة كان له أن يشتري بها الأدوات المنزلية البسيطة، أو أن يبني داراً، ويقتني عدة طيور ومواشي...

---

(١) نفس المصدر ص٢٤.

(٢) نفس المصدر ص٢٨.

(...توجد في الاتحاد السوفياتي ملكية شخصية، للمداخيل المتأتية من عمل المواطن واستثماراته، وللبيت الذي يسكنه، واقتصاده المنزلي المساعد، ولسلع الاستعمال المنزلي، والاستعمال الدارج، وسلع الاستهلاك[١]).

ثم يؤكد ذلك ويفصله: (.. فلكل مواطن سوفياتي الحق في أن يتصرف كما يشاء بادخاراته التي هي ثمرة عمله. ويستطيع أن يستعملها لبناء مسكن او فيلا لنفسه. أو أن يشتري بها سيارة أو أي شيء اخر كما يريد كل شيء يتوقف على اجرته، وإدخاراته المتأتية من عمله[٢]).

فللانسان – في روسيا – الحق في ادخار قسم من اجوره، كما يوفر له الحق في ان يشتري بها سيارة أو يبني داراً... ولكن... هل في وسعه ان يدخر شيئاً من اجوره؟ او انها تقصر حتى عن حاجاته الاساسية؟؟ اننا سنعرض في الصفحات القادمة ان عوائل العمال تقطن في الشقات المستأجرة..

اما اذا استنفذ الفرد اجوره في حاجاته اليومية الاساسية فلابد له ان يستأجر– من الدولة – محل السكنى.

كما يوفر النظام الاشتراكي الحق للفرد في ان يعمل لنفسه ساعات إضافية خارج الدوام، او ان يقوم بانتاج ما يجد فيه راغبا خارج ساعات العمل فيكون له ربحه، شريطة ان لا يستثمر فيه مجهود الاخرين.. ثم يكون لورثته ممتلكاته بعد موته..

---

(١) (الاتحاد السوفيتي في مائه سؤال وجواب)ص٢٤.

(٢) نفس المصدر ص٤٢-٤٣.

ذلك مجموع حقوق الفرد، في الملكية الخاصة، وليس له ان يملك اي شيء وراء هذه.. نجد التصريح بهذه الحقوق مجموعة في دستور الاتحاد السوفيتي:

(الى جانب النظام الاقتصادي الاشتراكي، الذي هو الشكل السائد في اقتصاد الاتحاد السوفيتي. يسمح القانون بالمشاريع الاقتصادية الصغيرة، الخاصة بالفلاحين الفرديين، وبالحرفيين، على ان تقوم على عملهم الشخصي، وبشرط ان لا يستثمروا فيها مجهود الاخرين).

(ان حق الملكية الشخصية للمواطنين في دخلهم وتوفيرهم الناجمين عن عملهم، وفي مساكنهم واقتصاديات بيتهم الاضافية، وفي الحاجيات والادوات المنزلية، وفي الاشياء ذات الاستعمال الشخصي، والراحة، وكذلك حقهم في ارث الملكية الشخصية، حق مصون بموجب القانون[1]).

تلك هي الاشياء التي يستطيع الفرد ان يمتلكها، وهي تختصر في اجوره وما يشتريه بأجوره او يستثمره بنفسه...

وهناك اشياء تمنح للعامل كملكية، ولكن ليست بالملكية الحقيقية، التي يستطيع ان يفعل بها ما يشاء، وانما تخول له ليؤدي بها اعمالا خاصة مرسومة من قبل الدولة، ينص على ذلك دستور الاتحاد السوفياتي: (لكل عائلة من عوائل المزرعة التعاونية، بالإضافة الى دخلها الاساسي الذي يأتيها من اقتصاد المزرعة التعاونية المشتركة، قطعة من الارض خاصة بها، وملحقة بمحل السكن، ولها في

---

(١) (دستور الاتحاد السوفياتي)ص٥المادة ٩، ١٠.

هذه الارض اقتصاد اضافي، ومنزل للسكنى، وماشية منتجة، وطيور وأدوات زراعية، كملكية خاصة، وذلك وفقا لنظام جمعية الانتاج التعاوني الزراعي[١]).

وهذه الاشياء ليست ملكا للعائلة، وانما هي كملك لها، لأنها تبقى تحت يدها باستمرار، لتعمل فيها باستمرار. فتتقاضى اقتصاديا اضافيا... وما عدا ذلك.

إن هناك نوعين من الملكية كما ينص على ذلك الدستور السوفياتي (للملكية الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي شكلان. فهي إما ان تكون على شكل ملكية للدولة(ثروة الشعب بأسره) او ان تكون على شكل ملكية تعاونية اشتراكية(ملكية حقول تعاونية- كولخوزات- وملكية جمعيات تعاونية).[٢]

أ-ملكية الدولة:

اي ملكية الدولة: القادة الزعماء في الحزب الشيوعي.. وهذه ملكية واسعة النطاق، تشمل جميع الموارد العامة والخاصة، يصرح بها الدستور السوفياتي: (ان الارض، وما في بطنها، والمياه، والغابات، والمصانع، والمعامل، والمناجم، والمعادن، والسكك الحديدية، والمواصلات المائية والجوية، والمصارف، ووسائل المخابرات، والمشاريع الزراعية الكبيرة المنشأة من قبل الدولة(حقول حكومية، ومحطات آلات، والتراكتورات الخ..) وكذلك مشاريع البلديات، والمجموعات الرئيسية من المساكن في المدن، والمراكز الصناعية، هي ملك الدولة[٣]).

---

(١) نفس المصدر ص٤ المادة٧.

(٢) نفس المصدر ص٣ المادة٥.

(٣) (الدستور السوفياتي)ص٤ المادة٦.

فهذه الاشياء كلها ملك للدولة، بصورة رسمية صريحة.

ب – الملكيات الاشتراكية:

تتألف من ملكية الجمعيات التعاونية، وملكية الحقول التعاونية: (الكولخوزات) أما ملكية الجمعيات التعاونية فهي الممتلكات العامة التي شيدت على نفقة الكولخوزات، وأما الحقول التعاونية، فهي الاراضي التي انتزعت من الفلاحين لتكون ملكا للدولة ولما أن تفاقمت غضبات الفلاحين ضد الدولة وقدموا الارقام الهائلة الخيالية من الضحايا واستبدت بهم الثورة، وتحالفوا على الثبات في كفاحهم المرير، اضطر لينين إلى إرجاع الاراضي إلى أصحابها بشرط أن ينتظموا فنظمهم في شبكة قوية من شبكات الحزب الشيوعي كي لا تختلف شؤنهم عن الفلاحين، الذين يعملون للحكومة وقرر أن ليس للكولخوزيين الحق في امتلاك الالات الزراعية، وليس لهم إكراه إنسان لمساعدتهم في أداء مهماتهم، فالاقتصاد الاشتراكي أسس على أنقاض هذين العنصرين، كما يقرر ذلك الدستور السوفياتي: (يتألف الاسس الاقتصادي الذي يقوم عليه الاتحاد السوفيتي، من النظام الاقتصادي الاشتراكي، ومن التملك لأدوات الانتاج ووسائله، وهما اللذان ثبتت دعائمهما بعد تصفية النظام الاقتصادي الرأسمالي، وبعد إلغاء الملكية الخاصة لأدوات الانتاج ووسائله، وبعد إلغاء استثمار الانسان للانسان[١]).

---

(١) (الدستور السوفياتي) ص٣ المادة ٤.

كما ان الكولخوزات ليست حرة في تنظيم أعمالها وفق نظام تقررها لنفسها، وإنما تديرها جمعية الكولخوزيين العامة[١] وتوافق الجمعية العامة على تقرير الهيئة الادارية السنوي، وعلى برنامج الانتاج السنوي، وعلى معدلات كل عملية من العمليات، وعلى اجرتها محسوبة بأيام العمل، وعلى قدر ما يوجب توظيفه من الاموال الجماعية، وعلى مقدار ما يجب تقاضيه من منتجات زراعية ونقد لقاء يوم العمل.[٢]

ثم لا يكون لكل عامل مقدار ما أنتجه، وإنما تعتبر المنتجات وجميع آلالات والادوات والمواشي... ملكا اشتراكيا كما ينص على ذلك الدستور السوفياتي: (المشاريع العامة في الحقول والمنظمات التعاونية، بما فيها من آلات وأدوات، ومواشي، ومنتوجات هذه الحقول والمنظمات، وكذلك أبنيتها العامة، كل ذلك يكون الملكية العامة الاشتراكية، للحقول والمنظمات التعاونية[٣]).

---

(١)لابد أن نعرف أن أعضاء جمعية الكولخوزيين العامة، لا ينتخبون من قبل الكولخوزيين أنفسهم، وإنما ينتخبهم الحزب بالتزكية، ويعيرهم اهتماماً بالغا، كي لا يفسحوا المجال أمام الفلاحين، فيطغي على الشيوعية سيل الفلاحين العرم... وهكذا نرى (خروشوف) يؤكد على ضرورة حسن إختيار رؤساء الكولخوزات، هاتفاً في مؤتمر العشرين: (..فقد أصبح كلشيء يتوقف على كفائة هيئات الحزب الادارية منها والزراعية... وبالدرجة الاولى على حسن اختيار رؤساء الكولخوزات...) خروشوف (بيان اللجنة المركزية الشيوعية في المؤتمر العشرين) ص١٠٨-١٠٩.

(٢) انظر (الاتحاد السوفياتي في مائة سؤال وجواب).

(٣) (الدستور السوفياتي)ص٤ المادة٧.

وعلى هذا الضوء فكل شيء ملك اشتراكي يجب تفويضه الى جمعية الكولخوزيين العامة، لتصرفها في مصارفها المرسومة... فتدفع الجمعية الى الدولة من مجموع المنتجات، الضرائب المتصاعدة الفادحة، وأقساط التأمين والديون المترتبة عليه، وتكاليف حاجات الانتاج الجارية ونفقات الادارة كما ترصد وفرا منها باسم الحاجات الثقافية، وتقدر شطرا هائلا منها لشراء العتاد، والماشية. وتشييد الابنية الضخمة، للمدارس، والاندية ودور الحضانة، والمستشفيات...

وبعد ذلك كله تعد الجمعية أيام عمل العامل، وتدفع اليه الاجور بنسبة العمل المبذول ونوعه: حراثة هكتار من الارض، تعشيب دونم من دوار الشمس، حلب الف لتر من الحليب .... الخ

فاذن لا يختلف الكولخوز عن الفلاح الاخر الذي يعمل للدولة، نعم إذا خرجت معدات الدولة من مجموع الانتاج، وبقيت المنتجات أقل من أجور الكولخوزيين، توزع عليهم بنسبة أجورهم ويخسرون الاجر العادل ... أما اذا فاضت المنتجات فانها تدخر في صندوق الجمعية...

ولا تدفع الاجور الى الكولخوزيين نقداً وإنما تحول اليهم كما تشاء الجمعية، بضائع أو نقوداً، او قسطاً من الانتاج وقسما من النقود...

وحيث لا تؤمن حياتهم البضاعة المعينة التي ينتجونها، يلتجؤن إلى بيعها من منظمات الدولة، التي لا تشتري الا بابخس الاثمان، ولا تبيع إلا باقدح الاسعار.(١)

---

(١) أنظر (الاتحاد السوفيتي في مائة سؤال وجواب) ص٧٤-٧٨.

وقدر بنفسك الحياة التي يقدرها الحزب الشيوعي للكولخوزيين كم ذا تكون مضنية متقشفة؟ ولقد أدى ذلك إلى انفجارات وانتفاضات هددت روسيا بالدمار والهلاك.. كما رأوا أن من الممكن استغلال الكولخوزيين أكثر من ذلك، فوضعوا قانون يمنح الكولخوزيين الحق في أن يتقاضوا أجراً إضافياً، مقابل تجاوز البرنامج: (... ولذا وضع نظام ينص على منح أعضاء الكولخوز أجراً إضافياً، عينا أو نقداً، مقابل تجاوز البرنامج[١]).

فاذن لم يختلف الكولخوز عن فلاح اخر يعمل لحساب الحكومة، لأنه الثاني الذي لا يملك الانتاج، ولا يملك حريته في العمل، ووضع المنهاج، والمخطط. ولا يملك الالات، ولا يملك الارض، لانها تعتبر ملكا للدولة أبيح له التصرف فيها، كما ينص على ذلك الدستور السوفياتي: (إن الارض التي تشغلها المزارع التعاونية معطاة، كملك لها، تستفيد منها مجاناً إلى أجل غير مسمى[٢]).

مساواة الرجال والنساء:

من الضرورات الاساسية في النظام الاشتراكي، مساواة الرجل والمرئة في العمل وتلك تعتبر من الاهداف الرئيسية في المجتمع الاشتراكي كما يقول إبراهيم الحداد: (أما الاصلاح الذي تسعى الاشتراكية إلى تحقيقه في المجتمع الحاضر، فيمكن تلخيصه فيما لي: ١- إعلان المساواة التامة بين المرئة والرجل[٣] ...).

---

(١) أنيسيمون (الزراعة السوفيتية) ط موسكو ص٢٢.

(٢) (الدستور السوفياتي)ص٤ المادة ٨.

(٣) (الاشتراكية العملية نشوئها وتطورها)ص٧.

والان تعمل المرئة في البلاد الاشتراكية الى جانب الرجل، تدلنا على ذلك الجمل التالية:

(فبموجب القوانين السوفياتية، يدفع معاش التقاعد على مدى الحياة، إلى العمال والمستخدمين الذين بلغوا سن الستين... أما النساء فينلن هذا المعاش عندما يبلغن سن الخامسة والخمسين...[١]).

(وهناك قوانين خاصة، لتنظيم عمل النساء الحوامل..[٢]).

(...وفي ميدان التعليم العام يعمل اكثر من مليون معلمة، ويزيد عدد النساء اللواتي يشتغلن في المستشفيات والمستوصفات والمنشآت الرياضية عن المليونين. كما يشتغل في المنشآت العلمية والثقافية والتربوية اكثر من ٢٧٠٠٠٠٠ إمرئة، وثمة ١٣٠٠٠٠٠ إمرئة يدرسن في منشآت التعليم العالي، والتعليم الثانوي الاختصاصي. والنساء في الاتحاد السوفياتي يدرن كثيراً من معاهد البحوث العلمية، والمدارس العليا، والمصانع الكبيرة، والسوفخورات[٣] والكولخوزات، والمدارس، والمستشفيات[٤]).

(ينص التشريع السوفياتي على شروط خاصة لعمل المراهقين والنساء،... وعندما تحمل المرئة تنقل الى عمل أسهل..[٥]).

---

(١) (الاتحاد السوفياتي في مائة سؤال وجواب)ص٣٧.

(٢) نفس المصدر ص٥١.

(٣) مؤسسات زراعية حكومية.

(٤) نفس المصدر ص٥٩-٦٠.

(٥) نفس المصدر ص٨٧ .

من هذه النصوص نعرف أن الرجال والنساء والمراهقون يعملون سواء بسواء، في النظام الاشتراكي القائم..

مصادرة الاملاك:

على أثر قيام ثورة اكتوبر صادر لينين جميع الملكيات الكبرى، والاراضي، والنقود... ثم أخنى على أصحاب الملكيات الصغيرة وصادرها... غير أن ذلك الثاني حيث اثار غضبة العمال والفلاحين، التجيء الى منح حق امتلاك الافراد لاجورهم، وما يشترونها بأجورهم... كما أن الحكومة اضطرت – بعدما رأت قلة الانتاج على أثر إجبارية العمل – إلى تجارى الحاح الفلاحين، فضمنت المادة السابعة والتاسعة[1] من دستورها إعطاء الحق لهم في استثمار قطع صغيرة من الاراضي، وتربية بعض المواشي والطيور، شريطة أن لا يستثمر فيها مجهود اخرين، وأن يدفعوا الضرائب التصاعدية حتى عن المواشي والطيور، والتأمينات الاجتماعية، و...

فأذن يقرر النظام الاشتراكي مصادرة جميع الملكيات الصغيرة والكبيرة أما هذه الاخريات التي فصلناها، فليست ملكية، وإنما هي أشبه بالخداع وتخدير المشاعر، فالفائض الناتج من هذه الملكيات، لصاحبها القانوني، ليس باكثر من الاجر الذي يتقاضاه، لو عمل أجيراً، اما الوفر الفائض فان الحكومة تستأثر به...

---

(١) فصلنا ذلك تحت عنوان (تحديد الملكية).

توزيع البضائع:

كان ماركس يحاول أن يلغي النقود، ويعمل كل فرد حسب طاقاته ثم يستهلك من البضائع حسب حاجاته، ولكن لينين حيث عجز عن تطبيق ذلك، جعل يوزع البضائع حسب مشروع الدولة، وذلك بأن يدفع نوعا من البضائع، بدل قسم من الاجور، ويدفع القسم الاخر من الاجور نقداً الى العمال، ويستعرض بقية البضائع في الاسواق الحكومية، ليشتريها العمال بذلك القسم من الاجور، الذي استلموه نقداً...

أما كمية الاجور، ومقدار ما تستلمه العمال، نقداً أو عيناً، فان ذلك كله يقدر حسب مشروع الدولة[١] الذي ينظم تبعاً لجداول الاجور التي تشترك في وضعها النقابات، وتوافق عليها الحكومة بالتزكية، وهذه الجداول عبارة عن توزيع التعرفات، ومقادير الاجور، تبعاً لمستوى العامل المهني، وصعوبة العمل، وتعقد التكنيك، وخصائص مراحل الانتاج[٢] ولقد قرر ستالين ان لا تمنح الاجور للعامل بمقتضى نوع العمل الذي يؤديه وإنما تقدر الاجور بمعدل كمية الانتاج فمن يعمل ٨ساعات يمنح ٣روبلات – مثلا– سواء أنتج ذلك العمل اكتالا من القمح، أو أنتج صاروخا، فالفلاح لا يختلف عن رئيس المهندسين كما هتف بذلك عام ١٩٣٠:

---

(١) انظر المادة ١١ص٥ الدستور السوفياتي.

(٢) انظر (الاتحاد السوفياتي في مائة سؤال وجواب)ص٩١.

(نحن لا نمنح[1] العمال أجوراً بمقتضى نوع العمل الذي يؤدونه، وإنما نمنحهم هذه الاجور بمقتضى كمية العمل، التي ينتجونها[2]).. وإن كانت الكتب الصادرة فيما بعد تخالف هذا التصريح كما اثبتنا شطراً منها في الصفحات السابقة..

فأذن يوزع الانتاج بدل الاعمال، ولكنه ليس كل الاجور وليس لاشباع الحاجات الاساسية[3] وإنما هو بدل قسم من الاعمال، حسب موازين، وبرامج النفايات.

العمل الاجباري:

ولم تحرف نظرية ماركس في إجبارية العمل، رغم أن الاشتراكية حورت جميع الركائز الاساسية لمبدأ ماركس لذلك هتف لينين عام ١٩٢٠ مبشراً بخلق معنى جديد لحرية العمل: (إن حرية العمل لا تعني حرية العامل في ترك عمله... فنحن لا نستخدم العمال باعتبارهم احراراً يعملون أولا يعملون، وإنما نستخدمهم باعتبارهم مكلفين بالعمل... ولهذا فانهم لا يملكون حق ترك العمل المحدد لهم...[4]).

---

(١) يلاحظ الانسان ما في كلمة (نمنح) من الاذلال لكرامة العامل، فكأنه لا يستحق الاجور، وإنما تمنح له كتبرع.

(٢) (النظام الشيوعي) ص٤٨.

(٣) انظر نفس المصدر ص١٣٧.

(٤) (النظام الشيوعي)ص٤٧.

فالعمال ليسوا احراراً في أن يعملوا أو لا يعملوا. وإنما هم مرغمون على القيام باي عمل يعهد إليهم وحرية العمل إنما تعني حرية الحزب الشيوعي في أن يحملوا العمال ما يشاؤن من أعمال فادحة، بأجور ضئيلة. وحيث رأى ستالين أن ارغام العمال على العمل، جعلهم يتوانون عن استفراغ جهودهم بنشاط واندفاع، في سبيل توفير الانتاج وازدهاره لذلك اخذ يزعق في وجوههم بكل صفاقة، ان يبذلوا أقصى امكاناتهم ومواهبهم في سبيل الانتاج والا فان الرحمة سوف تدرأ عنهم، وحتى لو استنزفوا طاقاتهم ومقاديرهم في سبيل النهوض بمستوى الانتاج، فان ذلك لا يبرر ان يتقاضوا على ذلك اجورا إضافية، فالحزب يقدر لكل عامل منسوبا معينا لو لم يبلغه يعتبر مجرما يعاقب على إجرامه... اما لو ضرب رقما قياسيا بين العمال، فان ذلك يؤهله للاجر الاضافي، ما لم يتجاوز مستواه عامل اخر، اما اذا كان ذلك فان المكافئة لا تمنح له لان الرقم القياسي اصبح لغيره او اذا اخذ الحزب موقفا جديداً، ليفصل للعمال منسوبات اوسع... وذلك في تصريحه عام ١٩٣٤: (... نحن لا نرحم اولئك الذين لا يعملون على رفع مستوى الانتاج بكل ما وسعهم من جهد ولن يكون رفع مستوى الانتاج مسوغا لزيادة الاجور، فالحزب يضع لانتاج كل عامل منسوبا معينا يجب عليه ان يبلغه، فاذا لم يبلغه اعتبرناه اداة تخريب... اما العامل الذي يتجاوز هذا المنسوب فانه يستحق المكافئة... ولكن هذه المكافئة لا تمنح له اذا ظهر عامل جديد يتجاوز مستواه، او اذا قرر الحزب منسوبا جديدا للانتاج[1]).

---

(١) نفس المصدر ص٤٩.

وعلى هذا الضوء سار الدستور السوفياتي مؤكداً اجبارية العمل، (العمل في الاتحاد السوفيتي واجب على كل مواطن يستطيع ان يعمل، ومدعاة شرف له، وذلك وفقاً لمبدأ: (من لا يعمل لا يأكل).

(ولقد تحقق في الاتحاد السوفيتي مبدأ الاشتراكية القائل: من كل فرد حسب مقدرته، ولكل حسب عمله[1]).

فاذن العمل في البلاد الاشتراكية اجباري، لا يرفضه احد الا ويعتبر اداة تخريب يفت في عضد النظام، وينال من كرامة البلاد، فيجب إدانته وتعريضه للحساب.

تلك هي الجذور الام، والقواعد الرئيسية في النظام الاشتراكي، كما فصلها زعماء الاشتراكية...

---

(١) (الدستور السوفياتي) ص٥ المادة ١٢

مناقضات الاشتراكية

تأخر الاقتصاد:

لم تكن اقتصاديات روسيا القيصرية فائزة على الارقام الاقتصادية في البلاد الاخرى، ولكنها لم تكن متخلفة عن سائر البلاد الرأسمالية، وكانت تسير في قافلة الشعوب المضطهدة تحت كابوس رأس المال ولم تكن يوما بحاجة الى الخبز بصورة مطلقة... وما فاجئتها ثورة اكتوبر إلا وعلى صوت لينين، وهو ينتكص على عقبيه، قائلا: (موسكو بحاجة مطلقة وماسة للخبز. لذلك طبقوا (السياسة الاقتصادية الجديدة) وسلسلة من التنازلات، والمساعدات الى التجار[1]) وفي نفس الوقت اعتلى صوت لينين ايضا وتعالت معه عقيرة عبيده وعملائه ترثي ألوان التأخر الاقتصادي والثقافي في روسيا القيصرية، وتصب لعائنها المضاعفة على الرأسمالية التي أخرت البلاد، وربطتها الى عجلات الوراء... ولكن يجدر بنا أن نتسائل عما: إذا كانت روسيا متأخرة كما تصفون؟ فمن أين جاء أولئك البورجوازيون، والرأسماليون، والاقطاعيون.. الذين كان نضالكم المقدس(!) لمكافحة هؤلاء.؟؟ ولقد اضطر لينين فيما بعد إلى التصريح بأن الماشية في عهد قيصر كانت أكثر منها في عهد الشيوعية.. ولكنه كان يلقي هذا الذنب على عاتق الحرب الاهلية، وثورة الفلاحين الذين اعدموا محاصيلهم ومواشيهم خشية ان تقع في ايدي الشيوعيين.!! ولكنا نتسائل – أيضاً- هل كانت الحرب الاهلية الطاحنة، وثورة الفلاحين، إلا من لعنات الشيوعية؟ وهل كانتا منبعثتين إلا من صميم الشعب الذي تهتفون باسمه؟ ومن أثار الحرب الاهلية، وثورة الفلاحين، غير لينين وأذنابه وزملائه..؟ ومن ذا قلب الفلاحين والشعب ضدكم، وقد

---

(١) لينين في برقيته إلى مكتب تركستان (حركة التحرر الوطني في الشرق) ص٢٠٠.

كانوا الجنود المتطوعين في ثورتكم؟ إذن فهذه الخسائر كلها كانت من صنع أيديكم، ومن تعسف نظامكم الذي طبقتموه بالجور والتعذيب.

فشل الاشتراكية:

إن أبشع الوان الفشل – بما للكلمة من معنى – ظهر على جبين النظام الاشتراكي السائد في روسيا، فان اكبر الفشل لنظام أن يعجز من بلوغ هدفه... ولقد كان الهدف الوحيد الذي من أجله تكونت الاشتراكية، هو إصلاح ما أفسده النظام الرأسمالي، فقد كان الاشتراكيون ينتقدون: أن خيرات الارض كافلة لتنظيم حياة مرفهة سعيدة، لجميع البشر. ولكن النظام الرأسمالي أفسد التنظيم الواعي العالمي للاقتصاد، وسبب توزيع المجتمع إلى طبقة مترفة متطفلة، وطبقة كادحة محرومة، فلا بد من اكتساح هذا النظام ليسود محله النظام الاشتراكي، فيوجه الانتاج والاستهلاك توجيها عادلا صحيحا، لينعم الجميع بالرخاء والرفاه..

وهذه النظرية تدل على ان النظام الاشتراكي – على أيحال – خير من النظام الرأسمالي... وبعد ذلك فمن الفشل المخزي الذريع أن يعلن قادة الاشتراكية: أن هذا النظام أفسد من النظام الرأسمالي، ونحن لا نعتمد في هذه النقطة على غير كلمات خروشوف، لأنه أكبر المسؤلين اليوم، فيعبر عن اخر الانتصارات الاشتراكية، ولن يحاول تحطيم نفسه وحكومته ولتكن اعترافاته مقتضبة من خطبته الطويلة، التي قرر فيها الارقام التوجيهية لمشروع السنوات السبع، في المؤتمر الحادي والعشرين للحزب الشيوعي، فليدل إلينا باعترافاته:

(والان يشغل الاتحاد السوفيتي المكان الاول في أوربا، والثاني في العالم، من حيث الانتاج الصناعي[(١)]).

فأمريكا الرأسمالية الفاسدة، متقدمة على البلاد الاشتراكية، وهذا يدل على أن الرأسمالية المقيتة، أفضل من الاشتراكية.

وبعد ذلك يرى خروشوف أن عليه أن لا يقف مكتوف الايدي تجاه انتصارات البلاد الرأسمالية، بل الواجب يحتم عليه أن يرهق الشعب ليلتحق بأمريكا الرأسمالية، ويسبقها في الانتاج... ثم يرجع إليه وعيه، ويعرف أن هذه الكلمات التي صدرت عن لسانه، كانت على اثر نوبة عصبية عصفت به، والعالم سيحاسبه عنها، فيتدارك الامر، معلناً أن ذلك يتطلب مدداً من الوقت تخرج عن نطاق مشروع السنوات السبع: (... ومن الناحية العملية، يجب تنفيذ مهمة تاريخية، وهي اللحاق بأكثر البلدان الرأسمالية تطوراً، وسبقها في الانتاج بالنسبة للنسمة الواحدة من السكان. وسيتطلب تحقيق هذه المهمات مدداً تخرج عن نطاق مشروع السنوات السبع[(٢)]).

فلا بد إذن أن تعمل البلاد الاشتراكية بسرعة فائقة في السنوات السبع، وبعد السنوات السبع، علها تلحق بالمستوى الحالي في الولايات المتحدة، ولنستمع الى خروشوف نفسه ليحدثنا عن ذلك: (.. ولذلك فاذا ما حسبنا بالنسبة لكل نسمة

---

(١) خروشوف (الارقام التوجيهية لتطوير الاقتصاد الوطني في الاتحاد السوفيتي لأعوام ١٩٥٩-١٩٦٥)ط موسكو ص٧.

(٢) نفس المصدر ص١٨.

من السكان، فان الامر يتطلب في اكبر الظن بعد مشروع تنفيذ السنوات السبع، خمس سنوات أخرى، للحاق بالولايات المتحدة الامريكية(١)).

ولكن هذا الامر سوف لا يكون إذا تباطئت البلاد الاشتراكية في سيرها، إن اللحاق بالولايات المتحدة، أمر يتطلب فيضا وافراً من الجهود الحثيثة، وليحدثنا خروشوف بنفسه عن مدى ما يقتضه الامر من تحفز ونشاط: (فنحن نركض بسرعة تعادل أربعة أضعاف سرعة الولايات المتحدة ونضيف كل سنة كميات اكبر من المنتجات. وإذن فاللحاق بالولايات المتحدة قد غدا اليوم أسهل جدا(٢)). وبعد أن تركض البلاد الاشتراكية بسرعة تعادل أربعة أضعاف سرعة الولايات المتحدة، يكون اللحاق بالولايات المتحدة أسهل منه فيما مضى..

وتأخر البلاد الاشتراكية ليس في ناحية معينة من جوانب الاقتصاد وإنما هو تأخر في كل فرع من فروع الاقتصاد، حتى في الحليب، والزبدة واللحم.. فهذا خروشوف يردد: (لقد أصبحت بلادنا تشغل المكان الاول في العالم، من حيث الانتاج الاجمالي للبن الحليب، والزبدة، وفي السنوات القريبة سنلحق بالولايات المتحدة الامريكية... لتحقيق النداء الصادر عن شغيلة الكولخوزات، والسوفخوزات الطليعيين، والداعي الى اللحاق بالولايات المتحدة، في الانتاج الحيواني(٣)):

---

(١) نفس المصدر ص٩٣.

(٢) نفس المصدر ص٩٢.

(٣) نفس المصدر ص٤٤.

(... وبالتالي الاسهام، بسقط هام في تنفيذ نداء الكولخوزات الطليعية، إلى اللحاق بالولايات المتحدة في إنتاج اللحم).

وسوف لن يكون اللحاق بالولايات المتحدة في إنتاج اللحم وسائر المنتجات الزراعية، أمرا هينا تستطيع ان تنهض بعبئه روسيا وحدها، بل لا بد من توزيع الالتزامات على هذا التقدير: (... أما نصيب كل جمهورية، وإقليم، ومقاطعة، ومنطقة، وكولخوز، وسوفخوز في النضال لتنفيذ نداء الكولخوزات والسوفخوزات الطليعية، إلى اللحاق بالولايات المتحدة، في انتاج اللحم، وغيره من المنتجات الزراعية فيجب تقديره على أساس المئة هكتار من الارض).

وهذا الفشل الذريع الذي يلاحق الاشتراكية في كل مكان، حتى ينبعث من لسان رئيس البلاد الاشتراكية، كشيء طبيعي بارز، لا يقبل الجحود والاختفاء، ليس مختصرا في روسيا ومستعمراتها، وإنما هو ملازم للاشتراكية، تلازم الحرارة للنار، فالصين الاشتراكية، تقتضي اثر روسيا في التطفل بالمبارات الجانبية مع إنجلترا... وحسب الصين تأخراً وانحطاطاً أنها، بملايينها، وفخفخاتها، وصرخاتها المسعورة، تتعرض بالمبارات الاقتصادية المحدودة مع انجلترا. ولكن الصين مع ذلك ترهب أن تعلن مباراتها، وإنما يعبر عنها خروشوف بأسلوب يمكن سحبه بعد حين قائلا: (.. فمن المعروف مثلا: أن الحزب الشيوعي الصيني قد وضع في سنة ١٩٥٧ مهمة سبق إنجلترا في غضون ١٥ سنة من حيث الانتاج الاجمالي في الفروع الصناعية الهامة[١]).

---

(١) خروشوف(الارقام التوجيهبة..)ط موسكوص٩٩.

نفثات:

عندئذ يجدر بنا أن نتسائل هل إن الشعب السوفيتي يعيش أرفه وأسعد من الشعوب الرأسمالية؟ أم أن الشعب السوفيتي الاشتراكي أشقى وأنكد عيشا من الشعوب الرأسمالية.؟؟ لا بد أن يكون الجواب: أن الشعب السوفيتي أشقى من الشعوب الرأسمالية تبعاً لتصريحات خروشوف: زعيم الاشتراكية العالمية!..

وإذن ففي وسعنا أن نقول بكل جرأة وقوة: إن النظام الاشتراكي نظام فاشل، وإنه افسد من النظام الرأسمالي، وإن الاشتراكية عاجزة عن تنظيم الاقتصاد، رغم انها ترهق الشعوب وتعدو بها بسرعة تعادل أربعة أضعاف سرعة الشعوب الرأسمالية، ورغم انها صادرت جميع الاملاك وخنقت كافة الحريات، وقضت على الاديان والاخلاق، وقتلت الملايين وسجنت وسفرت الملايين ...

كما ظهر: ان الشيوعيين - جميعا - كذابون لا يتورعون عن التلفيقات المزورة، لتغرير عباد الله، فقد كانوا يقولون: ان الشعب السوفيتي اسعد الشعوب، ان العامل والفلاح يعيشان عيشة مترفة مرفهة وان روسيا تفيض بخيرات الارض وبركات السماء ...

وما ان اعتلى خروشوف منصة مؤتمر الحادي والعشرين الا وظهر ان الشعب السوفيتي اتعس الشعوب، وان اقتصاده متأخر ١٢ أعوام - على الاقل - عن اقتصاد الولايات المتحدة، هذه الدولة التي يصب الشيوعيون نقمتهم ولعائنهم عليها. وقد تبين : ان العامل والفلاح في روسيا يعيشان في شظف وتقشف وحرمان، ويركضان بسرعة تعادل اربعة اضعاف سرعة العامل والفلاح في

البلاد الرأسمالية ...

وعلينا حينئذ ان نتسائل : لماذا تدعون الى هذا النظام الفاشل لو كنتم احرار كما تزعمون ؟ وماذا يعجبكم من هذا التأخر المتعب إن كنتم تقدميين كما تقولون؟ وبأي مبرر تسوقون الناس الى تلك البؤرة الجرداء ان لم تكونوا مأجورين ؟ ..

مناقشة الاشتراكية:

ما ان نعرض الاشتراكية على المشرحة، الا وتتكشف عن مجموعة اخطاء واغلاط، وسيئات ومناقضات، وتشف عما تنطلي عليه من استعباد واستثمار .. لذلك لا نكلف انفسنا بالتعمق في مناقشتها، وانما نكتفي بالقاء الضوء على اسسها ومبادئها الرئيسة، بعجالة واختزال :

دكتاتورية الحزب:

اول ضرورة من ضرورات الاشتراكية، اطلاق الدكتاتورية للحزب الشيوعي(١) واستبداده بفرض احكامه على الشعب، مهما كلف الامر من الخسائر والضحايا ..

---

(١) لم يكتب النشور للشيوعية في اي بقعة من بقاع الارض، ولكن الحزب - قبل ثورة اكتوبر - حيث كان يقود الجماهير باسم الشيوعية ولاجل تطبيق المباديء الماركسية، سمى نفسه بالحزب الشيوعي، وبعد ما اعلن التاريخ فشل الشيوعية والمباديء الماركسية، واستعصائها على التطبيق، وارتجل لينين الاشتراكية، لم يجد الحزب محفزا الى تبديل اسمه، تغريرا للجماهير، كما لم يجد بأسا بترديد المباديء الماركسية، رغم ان التاريخ طواها في قائمة الاساطير الأفلوطية، التي تحيا وتعيش وتموت في الاوهام .

وهذه النظرية ترشدنا الى ان الاشتراكية ليست لصالح الشعب، وانما هي تؤمن اغراض القادة المنظمين في الحزب فقط، رغم الشعب ومصالحه، ولولا ذلك لاستجاب لها الشعب بكافة عناصره وقومياته، ولما احتاجت الى التوسل بالعنف والدكتاتورية.

والعجيب ان الاشتراكية استقامت على اكتاف المضطهدين لانقاض الدكتاتورية، واستبدالها بالحريات الكاملة، والديمقراطية الصحيحة ... فاذا بها ترفض الديمقراطية، والحرية، وتتبنى اقسى دكتاتورية خيالية، والدكتاتورية اول ما يكرهها الشعب، ويعمل لتحطيمها ومكافحتها بكل ما يملك من قوى وجهود . فضرورة الدكتاتورية في الاشتراكية، كأكبر دعائمها، اغلوطة لا سبيل الى تصحيحها، او تبريرها ...

مصادرة الحريات:

وتتلو تلك ، مصادرة الحريات - بما لها من معنى - واستعباد الملايين لاسياد الكرملين ..

تلك هي الثانية التي تهدينا الى مدى مناقضة هذا النظام، للانسانية وارادة الشعب، فالنظام الصالح هو الذي يسعى الى أهداف الشعب وآماله، وينظم الحياة السياسية وفق دستور يستطيع توجيه الشعب الى مصالحه في زحمة الحريات، واطلاق الصلاحيات الكاملة ... ولولا ذلك لم يصح اعتباره نظاما، وانما الاجدر ان نعبر عنه بـ (شبكة اللصوص) فالنظام يجب ان يكون لصالح الشعب، لا ضد الشعب، ومركزا على اساس الايمان بالشعب ومصالحه، لا على

اعتباره جسرا الى اهدافه واغراضه وبعد ذلك فان كبت الحريات، تؤدي الى كبح المواهب وخنق روح الابداع، وغريزة المبارات ثم الاستباق على الصعيد العلمي، والاقتصادي، والفني، والثقافي ... ولعل هذا التأخر الملموس في روسيا ومستعمراتها – الذي اعترف به خروشوف – ناجم عن كبت الحريات .. فكما ان الانسان لا يبتسم للأفق الخانق، كذلك لا تتفتق مواهب المرء، ومقاديره وطاقاته الكامنة، لو لم توقظها انسام الحرية والنتائج المتكافئة.

تحديد الملكية:

من ذا يعمل لغيره ؟ ومن الذي يضحي بوقته وقواه في سبيل عدوه ؟ وهل تحمل الشاة السكين الى جزاره ؟ ان الانسان لا يخلص في العمل، الا على صعيد تكافؤ الفرص، والا اذا علم ان جهوده لا تسلب منه.. ولن يتدفق نشاط المرء على ساحة العمل الا بالحافز الداخلي أو الخارجي فاطلاق الملكية الفردية، هو الذي يستنزف طاقات الفرد، كما لا يستنزفها اي شيء اخر. ولقد كفر لينين بهذه الحقيقة، حتى تراكمت امامه اتلال الضحايا، وانقاض الاقتصاد .. فاستسلم للواقع الحي، ولكن بعد ان فلت من يديه الزمام فاطلق صرخته الاخيرة: (ينبغي تأسيس كل فرع من فروع الاقتصاد الوطني، على المصلحة الشخصية[(١)]).

ولقد اضطر خروشوف فيما بعد ان يأخذ بكلام لينين، فجعل ينادي في مؤتمر العشرين:

---

(١) خروشوف (بيان اللجنة المركزية الشيوعية في المؤتمر العشرين) ص ١١٧ نقلا عن لينين: (مؤلفات لينين المجلد ٣٣ الصفحة ٤٧).

(... ففيما يتعلق بالمهندسين، والاختصاصيين وكذلك رؤساء المؤسسات، ينبغي ان يتوقف قسم من راتبهم، توقفا دقيقا على معدلات العمل الاساسية، في المعمل، والمؤسسة، والفرع الاقتصادي والكولخوز[١]).

فكما ان لينين وخروشوف عرفا: ان الغاء الملكية الفردية يشل الاقتصاد الوطني، ولا يمكن ترميمه الا بترتب المنافع الشخصية على معدلات العمل .. كذلك تحديد الملكية الفردية ينخر في كيان الاقتصاد ويلويه الى الوراء .

تحديد الاقتصاد الوطني:

ان تقدير معايش الناس حسب مشروع الدولة، تنفع لتحديد الاستهلاك، والتقتير على الشعب، للتوفير على خزائن الدولة، ولكنه يضر من ناحيتين :

أ - ان الشعب ينقلب الى فقراء مدقعين، وذلك هو المستمسك الوحيد الذي يحتج به على فساد الرأسمالية، والذي اخنى عليه الشيوعيون باللائمة الكبرى .

ب - ان الشعب متى علم ان معيشته ترسم من قبل الدولة، تبعاً لمشروع عام ينبو عن التحويل والتبديل، يصاب بخور الحافز الفردي، ويسعى للهروب عن العمل جهد الامكان، وفي ذلك انهيار الاقتصاد، وتجمده في موقفه ...

---

(١) خروشوف (بيان اللجنة المركزية الشيوعية في المؤتمر العشرين) ص١١٧ .

مساواة الرجال والنساء:

ان مساواة الاكفاء مستحبة في كل مكان، اما مساواة الرجال والنساء في العمل فهي من سيئات النظام، ولكن الاشتراكيين لا يعقلون !! والاشتراكيون انفسهم يزِنون طاقات الحديد، والخشب والتراب فيمتنعون عن تحميل كل واحد الا بمقدار طاقته، او اقل منها.. : فيقدرون ان الطائرة المعينة تحلق بالف كيلو غرام. وان العمود الساجي المعين يستقل بـ ٥٠٠ كيلو غرام . وان التربة السبخة لا تتحمل الا طبقتين من البناء – مثلا – فيكلفون كلا من الحديد، والخشب ، والتراب، ان ينهض بما لا يبهضه عبئه ...

اما الانسان: هذا الكائن المسكين، فيجب ان يعمل على قدم المساوات، دون ان يكون هناك من يقدر طاقات افراده، ويكلفهم العمل بموجبها .. فالمرأة رغم ان كيانها ادق واوهى من كيان الرجل، يجب ان تعمل كما يعمل، تحقيقاً لمساوات الاشتراكية.. وهكذا قد تكون المساواة من سيئات النظام، واكبر دليل على عدم نضوجه وتبلوره .

وهناك حقيقة ثانية يجدر بنا ان نستوعبها في هذا المجال، هي ان طبائع الاشياء بذاتها تقرر اعمالها، وتحدد كمية وكيفية انتاجها .

والاشتراكيون – رغم كفرهم بالحقائق الصارخة – آمنوا بهذه الحقيقة ، ولكن .. إيمانا ناقصا .. والحقيقة كلها: ان طبيعة الشيء، وقواه ومقاديره الكامنة، هي التي تحد له منسوبا معينا من العمل، ونوعا خاصا من الانتاج، يتحطم ان تعداهما الى اوسع منهما، كما تتعطل تلك الوظيفة شاغرة، ان تركها لغيره ...

مثلا ان التراكتور يؤدي واجبا زراعيا، والقمر الاصطناعي يؤدي واجبا فلكيا . وهذان الواجبان انما تفرضهما طبيعة التراكتور والقمر الاصطناعي، لا السلطات الحاكمة، حتى ولو بلى الناس بسلطة تشريعية شائت ان يؤدي التراكتور واجب القمر الاصطناعي، وان يؤدي القمر الاصطناعي واجب التراكتور، ليتحطما معا دون ان يؤديا واجبا.

تلك هي قضية المرأة والرجل، فطبيعة الانثى وتركيباتها السيكلوجية والبيولوجية، ونداءاتها الفطرية والعاطفية، تقرر لها مسؤولية البيت والاعمال البيتية، من حضانة الاطفال، وتربيتهم، وتنظيم الشؤون المنزلية البسيطة لان دقة كيان المرأة ورقة عاطفتها، تؤهلانها للوظائف البسيطة العاطفية الدقيقة، كحضانة الاطفال، التي تحتاج الى دقة عاطفية، بريئة عن البطش والحماس، وكالاعمال البيتية البسيطة، التي لا تحتاج الى عضلات مفتولة تتفجر قوة ونشاطا، ولا تتطلب عقلية واسعة جبارة وانما تكفيها اعصاب المرأة وعقليتها ... كما ان طبيعة الرجل وطاقاته، وطموحه الغلاب، تقرر له مسؤولية خشناء كالقيام باعمال المعامل والمناجم، والمؤسسات، والفروع الاقتصادية والكولخوزات، والسوفخوزات . وسوف يعجز عن تنظيم البيت وحضانة الاطفال - لو كلفت بهما - او يحول البيت الى سجن السفاكين من ذلك كله نستلخص : ان مساوات الرجال والنساء في العمل ليست الا من بوادر الترف، والطيش البليد، ومناقضة طبيعة الرجل والمرأة معا.

اجبارية العمل:

ان الناس كانوا يعملون، ولا يزالون يعملون، حتى ان الانسان القديم كان يعمل ليأكل، دون ان يحفزه اية قوة اجنبية فكم يقتضي- ان يكون النظام طائشا، حتى يمتنع الناس – في ظله – عن العمل ؟ ويلجوا في اضرابهم، حتى يلتجيء النظام الى اجبارهم على العمل؟.

والواقع ان الاجبار حيلة العاجز، واكبر دليل على ان النظام السائد هو الذي عرقل سير البشرية، حتى اذا تورمت اقدامها، وسقطت على الارض، لتنفض عن نفسها التعب والسهاد، شهر سلاحه في وجهها صارخا بها : سيرى، والا جعلت الارض مقبرة واسعة..

فالناس– ابداً– سائرون في مسراهم، وليست مسؤلية النظام الا ان يوجههم ويرشدهم، ثم يعبد لهم الطريق، ويغذيهم بالعقيدة، ليستحثوا خطاهم، ويشذب المتشذر . وليس النظام جلادا تائها، يقذف الناس في المهاوي والتلال، ثم – يسوقهم بالحديد والنار، والتهديد والارهاب من ذلك كلمة نستنتج : ان التجاء النظام الى الاجبار يشف عما ورائه من عجز، وطيش، وفشل ...

ذنوب الاشتراكية:

وبعدما وقفنا على فساد اسس الاشتراكية، ومدى تكلفها، ومعاكستها لواقع الحياة، وطبائع الاشياء، نحاسبها مرة اخرى، من جديد لنحصي- عليها بعض جرائمها ومؤامراتها ضد البشرية والشعوب :

مؤامرة ضد الانسانية:

لم تكن سيئات الرأسمالية، هي التي اثارت ضجيج الاشتراكيين كما لم يكونوا اناساً متطوعين بالفداء، لحماية مصالح الشعوب، ومكفاحة اعدائها الرأسماليين، وانما كانو اناساً منبوذين – وحق لهم ان يكونوا منبوذين – في حين انهم كانوا يشعرون بحسب الذات، والعظمة الكاذبة بينما المجتمع الرأسمالي ، قد القى بهم بعيدا ... بعيدا ... في قرارة الاكدار وبؤرة المفسدين المهرجين: اعداء الانسان حتى عز عليهم ان ينالوا حظوة في ظل النظام (١) والذي كان يحز في قلوبهم اكثر من كل شيء انهم كانوا يرون زملائهم – في عداوة الانسان – يتصدرون مناصب الحكم الرأسمالي ... هذه العوامل كلها دفعتهم الى اختلاف نظام جديد، يتبنى فكرة (الديالكتيك) البعيدة في الرجعية، حتى يثير ذلك ضجة شاملة، وحيث ان في المجتمع –ابدا – اناسا منبوذين، فسيلتفون حولهم، ويتوسعون في التهريجات التي تهدد النظام والسلطة والشعب، وذلك يجلب انتباه كافة الطبقات ...

وحيث ان الطبقة الكادحة مضطهدة وغاضبة - وفي نفس الوقت - بعيدة عن الوعي السياسي والاجتماعي، يمكن استغلالها لصالحهم .. وهكذا يتكون لهم كيان . لهذا الهدف راح الاشتراكيون يضعون مبادئهم ومناهجهم.

---

(١) إقرأ حياة لينين وستالين .

اسلوب جديد للرأسمالية:

وكانوا يستلهمون افكارهم من الرأسمالية نفسها، رغم انهم كانوا يهتفون ضدها .. حتى اصبحت الاشتراكية صيغة أخرى للرأسمالية، غيرأنها صيغة مزورة، تنطلي على خداع وتمويه للحقائق- ولكنها تخدع الطبقات الامية، وذلك يكفي الاشتراكيين لبلوغ السيادة والسيطرة- ولكن الواقع الراهن خلف الدعايات الكاذبة، كان يختفي حيناً، ويظهر حيناً، فيفتضح الاشتراكيون، ويتوسلون لتغطيتها بالمبررات الملفقة، ولكن الرأسمالية لا تستأصل جذورها في الحكم الاشتراكي. ولقد صرح لينين بأن التجارة والرأسمالية مسموح بهما اليوم بصورة خاصة، نظراً لتأخر البلاد.[١]

وحتى اليوم نجدهم يرددون نفس النغمة، معترفين: (... وأخيراً تبقى في النظام الاشتراكي رواسب من الرأسمالية.. أما في النظام الشيوعي فستزول جميع رواسب الرأسمالية[٢]).

والاشتراكية لم بعد تتحقق في جميع البلدان الشرقية، فكيف بالشيوعية؟ كما يصرح بذلك خروشوف: (لقد دخلت بعض بلدان الديمقراطية الشعبية مرحلة إنجاز بناء الاشتراكية[٣]). أما سائر البلدان فأنها لم تبلغ بعد مرحلة الاشتراكية،

(١) لينين (حول دور النقابات ومهماتها) ص٦.

(٢) (الاتحاد السوفيتي في مائة سؤال وجواب) الطبعة الثانية ص١٣٨.

(٣) خروشوف (الارقام التوجيهية..) ص٩٧ ط موسكو.

ورواسب الرأسمالية لا تزول إلا إذا اكتمل بناء الشيوعية.

فأذن لا تزول رواسب الرأسمالية بسرعة، وإنما هي باقية حتى الان وستبقى مدة اخرى من الزمان، أما موعد زوالها فهو شيء لا يعينه تقويم، ولن تأتي فجئة.[١]

وبعد ذلك فمن الصين أن يصرح ما وتسي تونغ بأن فكرة الكولجوزات فكرة بورجوازية:

(... ولذا فان اقتراح الارض للفلاحين ليس إلا اقتراحا بورجوازيا ديموقراطيا، وليس اقتراحا بروليتاريا اشتراكيا[٢]).

فالنظام الاشتراكي -إذن- ليس إلا صيغة ممسوخة للنظام الرأسمالي، او هو بعينه وسنفصل الان: ان جميع المآسي والمظالم التي انكرها الشيوعيون والاشتراكيون في النظام الرأسمالي، ظلت سائدة -بأقسى مظاهرها- في روسيا ومستعمراتها:

العطل:

فالعطل لا يزال موجودا في ظل الاشتراكي، بكثرة هائلة والاعمال الموجودة لا تكفي لأشغال جميع الايدي، وإنما تستخدم كل عام عدد من الايدي العاطلة، تبعاً لتقدم الاقتصاد:

(ويزداد عدد العمال والمستخدمين في الاتحاد السوفياتي كل سنة. ففي أواخر

---

(١) أنظر نفس المصدر ص١٤١.

(٢) ما وتسي تونغ (الحكومة الاتحادية)ص٧٥.

عام ١٩٥٠كان في الاقتصاد الوطني من العمال والمستخدمين أكثر مما في أواخر عام ١٩٤٠بسبعة ملايين وسبعمائة ألف وفي عام ١٩٥١و١٩٥٢إزداد عدد العمال والمستخدمين من جديد مقدار ٠٠٠ر٢٥٠٠[(١)]).

(ستزداد للتوظيفات في الزراعة مرتين بالنسبة لتوظيفات البرنامج الخامس الخماسي، و١٤مرة بالنسبة لتوظيفات البرنامج الخماسي الاول[(٢)]).

ومن البين أن الشعب لم يزداد ١٤مرة بين البرنامج الخماسي الاول والبرنامج الخماسي الخامس، وإن الذي كان هو أن واحداً من أربعة عشر شخصا كان يعمل في مشروع السنوات الخمس الاول، والثلاثة عشر شخصا من كل أربعة عشر شخصا، كانوا عاطلين عن العمل في ذلك الوقت، ثم توفر لهم العمل فيما بعد.

ورغم ذلك كله فان اليوم يوجد في البلاد الاشتراكية عدد خيالي من العاطلين، والنظام الاشتراكي يسعى لإيجاد الاعمال لهم: (..أما الاصلاح الذي تسعى الاشتراكية إلى تحقيقه في المجتمع الحاضر، فيمكن تلخيصه فيما يلي: ٣٠٠٠-تحديد ساعات العمل للعمال، والاهتمام بهم، وإيجاد أعمال للذين بدون عمل[(٣)]).

وقد أكد دعاة الاشتراكية أن: (..في عام ١٩٥٣شغل في الاتحاد السوفياتي

---

(١) (الاتحاد السوفيتي في مائة سؤال وجواب)ص٣٦.

(٢) أنيسمون(الزراعة السوفيتية)ط موسكو ص٥٥.

(٣) إبراهيم حداد (الاشتراكية العملية نشوؤها وتطورها) ص٧٠.

اخر عاطل من العمل، وابتداء من ذلك التاريخ لم يعد الاتحاد السوفياتي يعرف البطالة، وفي عام ١٩٥٣ كان عدد العمال والمستخدمين ٠٠٠ر٨٠٠ر٤٤، أي أكثر مما في عام ١٩١٣ ب ٢٨ مليونا وفي برنامج السنوات الخمس الخامس: لـ ١٩٥١) ... سيرتفع عدد العمال والمستخدمين مقدار ١٥ بالمائة[١]).

وإذا لم يوجد عاطل في البلاد الاشتراكية، فكيف يصح تفسير كلام خروشوف:

(... في غضون السبع سنوات سيزداد عدد العمال والمستخدمين في جميع فروع الاقتصاد الوطني زيادة جديدة تبلغ زهاء ١٢ مليون شخص[٢]).

فهل هذا الـ ١٢ مليون شخص، وذلك الـ ١٥ بالمائة، ولدوا من جديد، واصبحوا عمالا ومستخدمين؟ أم جيء بهم من خارج الحدود؟..

إنهم اولئك العاطلون الذين تغص بهم الشوارع، والمعتقلات، والسجون، ومجاهل سيبيريا، والذين يستخدمون تبعا لحاجات الدولة، ويعطلون متى استغنت عنهم الدولة!

الفقر:

الذي هو أكبر جرائم الرأسمالية، والذي ثار الفقراء ضد النظام الرأسمالي للقضاء عليه، اصبح الطابع العام لشعوب روسيا ومستعمراتها وحتى لو كانت

---

(١) (الاتحاد السوفيتي في مائة سؤال وجواب) ص٢٢.

(٢) خروشوف (الارقام التوجيهية...) ط موسكو ص٦٦.

في المجتمع الرأسمالي طبقات ثلاثة: الطبقة المستغلة، والطبقة البورجوازية، والطبقة الفقيرة، ففي المجتمع الاشتراكي لا توجد إلا طبقتان الطبقة المستغلة الحاكمة: (الحزب الشيوعي)، والطبقة الكادحة الفقيرة: (مجموع الشعب).

وذلك ان مجموع الشعوب الاشتراكية يتألف من العمال والمستخدمين المسخرين للدولة، فليست لهم موارد سوى الاجور التي يستلمونها من الدولة ذاتها- بصورة البضائع أو النقود- والدولة توفر على الخزينة كل عام ٧ر٩ مليار روبل تقريبا[1] ومن البين ان الدولة الاشتراكية لا ياتيها هذا الـ ٧ر٩ مليار روبل من الخارج، اذ ليست لها تجارة خارجية مطلقا في بعض الاحيان، وحين تكون لها التجارة الخارجية تستورد اكثر مما تصدر فهذا الـ٧ر٩ مليار روبل كل عام، انما يستخرج من افواه الشعب ومعنى ذلك: ان الشعب يخسر كل عام ٧ر٩ مليار روبل، لتتخم به الخزانة.

ذلك من جهة، ومن جهة اخرى، ان واردات الدولة الاشتراكية عام ١٩٥٤م كانت ٥ر٥٧٠ مليار روبل وهذه الواردات انما تتألف من الاموال التي تدفعها المؤسسات الصناعية، والنقليات، والمؤسسات التجارية الحكومية، والضرائب على رقم الاعمال، والرسوم على الارباح والضرائب الاهلية.

وهذا يعني أن واردات الدولة الاشتراكية مجباة من الشعب فقط... فلننظر

---

(١)– ذلك هو معدل زيادة الواردات على النفقات انظر: (الاتحاد السوفيتي في مائة سؤال وجواب) الطبعة الثانية ص٢٨ نقلا عن برنامج ميزانية الدولة السوفياتية التي أقرها مجلس السوفيات الاعلى.

كذا من هذه الاموال:- التي انتزعت من الشعب بالصورة الشرعية، وغير الشرعية- عاد الى الشعب في نفس العام؟.

إن مجموع النفقات المنصوص عليها في ميزانية عام ١٩٥٤م يبلغ ٨ر٥٦٢مليار روبل، والباقي من الواردات ارصد للخزينة، أما فصول تلك النفقات فهي كما يلي: ٣ر٢١٦مليار روبل ارصد لتوظيفه في الاقتصاد الوطني، و٣ر١٤١مليار روبل للتدابير الاجتماعية، و٢ر١٠٥مليار روبل للقوات المسلحة والجواسيس والمنظمات السرية... (١) فالمخصص للاقتصاد هو الذي يعود الى الشعب، وهو لا يعدو ٣ر٢١٦مليار روبل، ومن المعلوم ان قسما وفيرا منه يصرف في تمكنة الاقتصاد أي في جعل الاعمال الاقتصادية من الحرث والزرع، والنسج... بواسطة الادوات الميكانيكية.

من ذلك كله يستلخص ان الشعب دفع الى الدولة عام ١٩٥٤م ٥ر٥٧٢مليار روبل، وعاد الى الشعب في نفس العام قسم من ٣ر٢١٦مليار روبل.

على هذا الضوء نستطيع ان نعرف مدى الفقر الذي يصيب الشعوب الاشتراكية كل عام، ومدى رأسمالية الدولة الاشتراكية، وسلبها حقوق الشعوب، لتحقيق أهدافها الكافرة، وليكن الشعب بعد ذلك فقيرا! فأنه لا يهم الدولة بقدر ما تهمها اهدافها واطماعها... كما صرح بذلك ستالين عام ١٩٥١م

---

(١) نفس المصدر ص٢٨-٢٩.

: (يجب ألا نعير افتقار المواطنين السوفيت الى وسائل الراحة المنزلية اي التفات.. فنحن لا نستطيع ان نقدم للسيدات الجوارب الحريرية، بينما نحن في حاجة الى مدافع نستخدمها في تحقيق اهدافنا[1]).

فكان الشعب انما يعمل لحساب الحكومة، حتى ليس له الحق في استهلاك إنتاجه لمصالحه، بل الواجب أن تقدم حاجة الحكومة الى المدافع التي تحقق أهداف الشيوعية، في استعمار العباد والبلاد، على حاجة المواطنين الى وسائل الراحة المنزلية!!.

على ضوء هذه النظرية يرسم مجلس السوفيت الاعلى برامج الاقتصاد الوطني، التي تقدم مصالح السياسة – في المجال الاقتصادي- على مصالح الشعب، وحاجاته الاساسية... ولا بد بعد ذلك ان يعم الفقر جميع مرافق الحياة الاقتصادية لمجموع الشعب.

وقد نجم من جراء ذلك فشل الحكومة – ذاتها- في المجال الاقتصادي، حتى أنها نائت بحمل الفرائض التي أوجبتها على نفسها:

قلة البضائع:

فقد أصبحت المطاعم أقل من حاجات الشعب، كما يعترف بها خروشوف: (... ومن الضروري، أيها الرفاق، أن نشير إلى ما للمطاعم العامة من الأهمية الكبرى، فينبغي أن توسع لدرجة أكبر شبكة المطاعم.. لكيما يستطيع أفراد

---

(١)(النظام الشيوعي) ص٤٩

عائلات الشغيلة الاستفادة من هذه المطاعم[١]..).

من ذلك نعلم: أن افراد عائلات الشغيلة – في الوقت الحاضر- لا تستطيع الاستفادة من المطاعم، حتى أن خروشوف يهيب برفاقه: أن يوسعوا شبكة المطاعم كي تستطيع أفراد عائلات الشغيلة، الاستفادة منها...

ومن الطبيعي أن تقصر البضائع عن إشباع حاجات الشعب، إذا كثر العطل، وقل العاملون، وضئل استنفاد الطاقات ومنابع الثروة الكامنة في الاراضي الاشتراكية.

وقبل كل شيء يجب أن نعلم: أن العطل السائد على شعوب روسيا ومستعمراتها، يسبب قلة البضائع إلى درجة بعيدة، فأن عدد سكان روسيا ومستعمراتها ينوف على ٢٠٠ مليون نسمة. أما العمال والمستخدمون منهم – في الوقت الحاضر- لا يزيدون على ٥٤ مليون نسمة. كما نعرف ذلك من تصريح خروشوف: (في غضون السبع سنوات سيزداد عدد العمال والمستخدمين في جميع فروع الاقتصاد الوطني، زيادة جديدة، تبلغ ١٢. مليون شخص، وسيزيد عدد العمال والمستخدمين بالمجموع على ٦٦ مليون و ٥٠٠ الف شخص[٢]).

فعدد العمال والمستخدمين، إذا اضيف اليه ١٢ مليون يبلغ ٦٦ مليون فهو الان ٥٤... وحتى لو وفى خروشوف بما وعد، وأصبح عدد العمال والمستخدمين

---

(١) خروشوف(الارقام التوجيهية...) ص٧٣ط موسكو.

(٢) نفس المصدر ص٦٦.

٦٦ مليون شخص، فان هذا العدد لا يكفي لا عداد البضائع الكافية لا شباع حاجات الشعب، البالغ عدده ٢٠٠ مليون – على أقل تقدير – ثم ان ٦٦ مليون شخص ليسوا عمالا وفلاحين وإنما فيهم عدد كبير من المستخدمين الذين لا يعملون في الانتاج، وإنما هم موظفون الذين يشغلون الدوائر وبعد ذلك كم يكون عدد العمال والفلاحين؟ بطبيعة الحال يكون أقل من ٥٠ مليون شخص ومعلوم أن هؤلاء العمال، لا يعملون –جميعا– في إنتاج البضائع وانما يعمل قسم كبير منهم في إنتاج المعامل، والمكائن والاسلحة البحرية والجوية... وبعد إخراج هؤلاء، كم ذا يكون عدد العمال المنتجين للبضائع.؟ إن عددهم يكون ضئيلا وضئيلا جداً... ومن الطبيعي – بعد ذلك كله – أن تقصر البضائع المنتجة عن إشباع مجموع حاجات الشعب.. وإننا نجد خروشوف يعترف بمدى تأخر روسيا ومستعمراتها في المجال الاقتصادي، عن مستوى الولايات المتحدة، كشيء طبيعي يأبى الجحود والانكار، وذلك في مجالي الانتاج الصناعي والزراعي: (–يؤلف الانتاج الصناعي الاجمالي في الاتحاد السوفييتي تقريبا نصف الانتاج الصناعي في الولايات المتحدة الامريكية، ويؤلف الانتاج الزراعي الاجمالي في الاتحاد السوفييتي حوالي ٧٥-٨٠ في المائة من الانتاج الزراعي الاجمالي في الولايات المتحدة الامريكية).

(– ومن حيث الانتاج الصناعي بالنسبة لكل نسمة من السكان تتفوق الولايات المتحدة على الاتحاد السوفييتي بما يزيد على ١٠٠ في المائة وتتفوق من

حيث الانتاج الزراعي بما يقرب من ٤٠ في المائة[1]) والواقع ان هذا التصريح يدلنا على مدى الانهيار الاقتصادي في الحياة الاشتراكية، حتى ان رئيس الدولة الاشتراكية، يهتف في مؤتمر الحزب الشيوعي: (ومن حيث الانتاج الصناعي بالنسبة لكل نسمة من السكان تتفوق الولايات المتحدة على الاتحاد السوفييتي بما يزيد على ١٠٠ في المائة.) أي ان معدل انتاج البلاد الاشتراكية أقل من الصفر بالنسبة الى الولايات المتحدة التي تسودها الرأسمالية الفاسدة، والتي ينقم عليها الشيوعيون.

وعلى هذا الحساب فالاشتراكية أقل من الصفر في مقابل الرأسمالية الفاسدة، وهنا نعرف مدى فساد الاشتراكية وبعدها عن صلاحيتها للحكم والسيادة.

كما ان هذا التصريح ينص على ان الولايات المتحدة تتفوق على البلاد الاشتراكية من حيث حجم الانتاج الزراعي، بما يقرب من ٤٠ في المائة واذا علمنا ان في الولايات المتحدة ينتحر الكثيرون لينقذوا انفسهم من الم الجوع، عرفنا مدى شيوع الفقر وقلة البضائع في البلاد الاشتراكية.

فهناك الفقر، وقلة البضائع، تجتاحان الملايين، ويعجز النظام الاشتراكي عن اشباع الحاجات الاساسية لجميع أفراد الشعب، حتى ان من المستبعد إمكان تحقق ذلك في ظل النظام الاشتراكي، على ما يقرره الرفاق انفسهم، غير ان خروشوف يهب ليقول: إن ذلك ممكن في المستقبل: (... فهل لا يزال بعيدا ذلك

---

(١) نفس المصدر ص٩١.

الوقت الذي يمكن فيه تلبية حاجات جميع السوفييتيين؟...

لا ريب ابدا في أنه سيكون من الممكن في مستقبل قريب تلبية حاجات جميع السوفييتين كليا الى الطعام واللباس والمسكن ضمن حدود المعقول والضروري.. يقينا اننا حين نتحدث عن تلبية حاجات الناس، لا نقصد الاهواء، أو حب أشياء الترف[(١)].

وهذا اعتراف بأن البضائع – في الوقت الحاضر – لا تكفي لسد الحاجات الضرورية، لجميع الافراد، وإنما تتضارب الاراء حول إمكان ذلك في المستقبل، أو عدم إمكانه مطلقاً.

وسوف لا يدهشنا هذا الانحطاط الهائل في الاقتصاد الوطني إذا علمنا: أن عدد العمال ضئيل جدا بالنسبة الى مجموع الشعب، وأن الاراضي الشاسعة المترامية الاطراف ظلت حتى اليوم قاحلة جرداء، دون أن تخصبها يد زارع، وأن المناجم والمعادن الفياضة لا تزال حتى الان دفينة في التراب، وأن هذه الكمية الضئيلة من البضائع التي تستحصل لا تفرق على الشعب، وإنما يدخر قسم منها من عام الى اخر، إعدادا للشيوعية

قلة المساكن:

ولقد أعلن النظام الاشتراكي عجزه عن تلبية حاجات الشعب بالنسبة إلى المساكن، رغم أن العائلات لا تنفرد بالبيوت، بل نجد في كل شقة عائلة أو أكثر،

---

(١) نفس المصدر ص١٤٢-١٤٣.

كما يهتف بذلك خروشوف: (... إنه مهما اتسع نطاق إشغال بناء المساكن، فأن الحاجة إلى أبنية السكن تكاد لا تنقص[(١)]).

لذلك اعتمد الحزب الشيوعي إلى صد انهيار القاطنين في القرى والارياف على المدن، علها تفلح بذلك في إعداد الكمية الكافية من البيوت للمقيمين في المدن فقط... ولكن ذلك وحده غير ناجح في معالجة هذه المشكلة، فأن الانهيار الذاتي في الاقتصاد الاشتراكي يحجزه عن تقدير الاعتمادات الكافلة لسد الحاجات الضرورية إلى المسكن بل لا بد من أن تبني العمال لا نفسها البيوت الفردية. على ما يصرح به خروشوف: (...وإذا أفلحنا في صد تدفق سكان المدن الاخرى على المدن الكبيرة فاننا سنؤمن حاجات سكان المدن سريعا فيما يتعلق بالمساكن... وينبغي إنماء أعمال البناء الفردي، ومساعدة العمال والمستخدمين في بناء مساكن لأنفسهم على نفقتهم[(٢)]) أما المتدفقون على المدن الكبيرة، فلن ينالوا نصيبهم من المنازل –على أي حال– .

قلة الاعتمادات العامة:

لقد تعالت اصوات الرفاق ناقمين على قصور النظام الاشتراكي، عن تخصيص الاعتمادات الكافية للحاجات العامة، وهناك ينبري خروشوف ليهدأ اعصابهم، او يخفت اصواتهم مناديا فيهم: (يشكو بعض الرفاق من ان النظام ما يزال غير كاف في تخصيص اعتمادات التعليم والصحة وبناء المساكن،

---

(١) خروشوف(بيان اللجنة المركزية الشيوعي في المؤتمر العشرين) ص١٢٤.

(٢)نفس المصدر ص١٢٤.

والمؤسسات الاجتماعية، والتجميل إلخ...[1]).

ولا تكشف شكاوى الرفاق إلا عن فراغ هائل في الاعتمادات وثورة مكبوبة في جميع الاوساط، ولكن خروشوف –كعادته– يعدهم ويمنيهم وما يعدهم خروشوف إلا غروراً قائلا: (... لا يقتضي لنا وقت طويل) لكي... نضمن لجميع الاطفال الاماكن في دور الحضانة ورياض الاطفال، والمدارس الداخلية..[2]).

فالفقر هو الطابع العام، والمشكلة السائدة، في جميع مرافق الحياة الاقتصادية، سواء في ذلك الاوساط الشعبية والحكومية، الفردية منها والاجتماعية. ما عدى الحزب الشيوعي، والاسلحة الحربية، فان الحزب الشيوعي يعيش كما يعيش المترفون من الرجال الماليين الكبار، والاسلحة الحربية التي وجدت للقضاء على السلام العالمي، ولاجل استعمار العالم كله، تستنفد اوفر الحظوظ، واوسع كمية من الثروات، والطاقات، والجهود، والخدمات.

الطبقات:

ان اعظم مقومات الرأسمالية يتمثل في نظام الطبقات الجائرة، وحتى اليوم يثير الاشتراكيون حربا شعواء ضد الطبقات. ورغم ذلك نجد سلم الطبقات، يشكل النظام والحكم، في روسيا ومستعمراتها. والطبقات توجد في النظام

---

(١) نفس المصدر ص ١٣٩.

(٢)خروشوف (الارقام التوجيهية ...) ص ١٤٢.

الاشتراكي كشيء طبيعي لذات النظام: (في الاشتراكية تبقى الطبقات الكادحة: العمال والفلاحون، وكذلك المثقفون، وتبقى ايضا الصفات التي تميز بعضها عن بعض[١]).

فالقادة المنظمون في الحزب يتربعون على الذروة، وتتوالى بعده طبقات الحزب نفسه – ذلك العملاق الكبير المفضل على الناس اجمعين – ، ثم طبقات الشعب. وحتى من العمال تتكون طبقات مختلفة الاجور فهناك الفئات الدنيئة الواطئة الأجور، والفئات العليا الضخمة الراتب كما نجدها في خطاب خروشوف:

(ان لجنة الحزب المركزية، ومجلس وزراء الاتحاد السوفياتي، يتخذان تدابير من اجل تنظيم معاشات التقاعد، والتعويضات بحيث تزداد فئات معاشات الدنيئة بقدر محسوس، وتخفض المعاشات المفرطة نوعا ما[٢]).

فالرواتب تتصاعد كلما تدرجت الطبقات، فالحزب الشيوعي له رواتبه المفرطة، المختلفة تبعا لاختلاف الافراد في مدى اخلاصهم لقائد الكرملين، وتتلوه النقابات، ثم المخترعون.[٣]

ثم الاختصاصيون الفنيون ثم المعلمون[٤] ..

---

(١) (الاتحاد السوفيتي في مائة سؤال وجواب) ص ١٣٧.

(٢) خروشوف (بيان اللجنة المركزية الشيوعية في المؤتمر العشرين) ص١٢١ .

(٣) انظر: (الاتحاد السوفيتي في مائة سؤال وجواب) الطبعة الثانية ص ٩٢ – ٩٣ .

(٤)– نفس المصدر ص ٤١.

اما العمال والفلاحون الذين دارت الثورة باسمهم وعلى اكتافهم، فهم الملايين الذين يجمعهم الفقر والشظف، والحرمان ...

وبعد ذلك فهناك طبقات توزع العمال والفلاحين :

(نعم ان في الاتحاد السوفياتي طبقات اجتماعية ... لقد بين احصاء عام ١٩٣٩ :ان ٧ ، ٤٩ بالمئة من سكان الاتحاد السوفياتي هم من العمال والمستخدمين وعائلاتهم، وان ٤٧ بالمئة تقريبا هم من الفلاحين الكولخوزيين واصحاب الحرف المجتمعين في تعاونيات، اما الفلاحون الفرديون واصحاب الحرف الفرديون فكانوا يشكلون (مع عائلاتهم) ٥ ر٢ بالمئة من السكان[١] .[٢] .[٣]).

الربا:

ان اكبر ركائز الرأسمالية، وقواعده ومقوماته، هو الربا . وهو اقوى مظاهر الاستغلال، ورغم ذلك كله فالنظام الاشتراكي يقرر الربا ويعترف به، ويأخذه ويعطيه، فالدولة الاشتراكية تمنح الربا الى المقرضين بصورة الربا، وبصورة

---

(١) نفس المصدر ١٧ – ١٨.

(٢) بقي هناك قسم آخر يبلغ ٨ بالمئة لم يذكر لهم عمل . أكثر الظن أنهم العاطلون!

(٥) ان ذلك كذب مفضوح فلقد نقلنا كلام خروشوف – آنفا – الذي يدل على ان مجموع العمال والمستخدمين في الوقت الحاضر لا يعدو ٥٤ مليون فكيف اصبحوا الآن ٩٢ من السكان . ثم اين ذهب الجيش بملايينه المكدسة على الحدود والفلوات ؟ واين اختفى الموظفون والكتاب والمخترعون، والمخرجون ..، . الذين يعدهم نفس المصدر بالملايين ؟ فراجعه ص٩٢ و ١٠١ و ١١٤ .

الجوائز. واليك النص التالي :

(... ففي مدة برنامج السنوات الخمس بعد الحرب ١٩٤٦ – ١٩٥٠ دفعت الدولة الى الاهلين ١٧ مليار روبل جوائز وفوائد، وفي عام ١٩٥٣ نال الاهلون بشكل جوائز ٩ مليارات و ٨٠٠ مليون روبل[١]).

فالدولة تأخذ ما لدى الشعب من روافد – خصوصا في الازمات الاقتصادية والسياسية – لكي يبقى الشعب في مستوى واحد من الفقر والحرمان سواء منهم يملك شيئا من النقود ومن لا يملك شيئا . ثم يمنحهم الربا على اقراضهم الدولة ...

كما ان الدولة تأخذ الربا من افراد الشعب الذين يقترضون الكميات المحددة لمصالح معينة، في الاوقات الخاصة . نعرف ذلك من تعاليم ومخططات ماوتسي- تونغ : (– تقليل الإيجار والفائدة ... ومنح قروض صغيرة الفائدة الى الفلاحين الفقراء[٢]).

أما كمية اقصى القروض، ومقدار الفائدة، فيقال عنهما : (ثم ان العمال والمستخدمين الذين يرغبون في بناء مسكن لانفسهم ينالون من الدولة قطعة ارض مجانا . كما ان بنك الدولة يمنح هؤلاء، بطلب من الادارة والنقابة، قروضا طويلة الاجل، من (٥٠٠) الى (١٠٠٠) روبل قابل للوفاء في خمس او عشر

---

(١) نفس المصدر ص ٩٨ .

(٢) ماوتسي تونغ (الحكومة الاتحادية) ص ٥٨ تحت عنوان : (برنامجنا الخاص) .

سنين ، وبشروط متساهلة، بفائدة ٢ بالمئة في السنة[(١)]) .

فالربا مشروع في النظام الاشتراكي، ولكن المحظور هناك شيء واحد، هو ان يأخذ الربا واحد من افراد الشعب[(٢)] بل اللازم ان ترتكب الدولة وحدها جميع ألوان الاستغلال والاستعباد.

اضطهاد العمال:

لا تختلف حياة العمال في روسيا ومستعمراتها، عن حياتهم في الدولة الرأسمالية الا في شيء واحد، هو ان العمال في ظل النظام الرأسمالي يتمتعون بكافة الحريات المضمونة، فهم ينعمون بحرية العمل لهذا أو ذاك او الاستقلال بالعمل لانفسهم، او ترك العمل مطلقا – متى وجدوا لديهم ثروة كافية تعيلهم، وتغنيهم عن تحمل ارهاق العمل في سبيل البقاء كما ينالون حرية اختيار أي عمل شاؤا، وحرية الاضراب، والاحتجاج والمظاهرة، وتكوين الاحزاب التي يريدونها، وتشكيل النقابات والغائها واما العامل في روسيا ومستعمراتها فمسخر مرغم على العمل، واي نوع تختاره الدولة له من الاعمال، وفي أي مكان تحدده الدولة[(٣)] دون ان تكون له حرية الاحتجاج، او الاضراب، او المظاهرة، او تكوين الاحزاب - فهناك حزب واحد لا يسمح لغيره ابداً – او الحرية في

---

(١) (الاتحاد السوفيتي في مائة سؤال وجواب) الطبعة الثانية ص ٤٣ .

(٢) نفس المصدر ص٤٣ .

(٣) انظر (النظام الشيوعي) ٦٤ – ٦٩ .

انتخاب النقابات ورؤسائها، فانهم يرشحون وينتخبون من قبل الحزب الشيوعي بالتزكية.

الاجور:

وليس للعمال الحق في تحديد الاجور، او المناقشة حولها، وانما تحدده النقابات : (وفي كل فرع من فروع الصناعة جدول للاجور تشترك النقابات في وضعه، وتوافق الحكومة عليه، وهو عبارة عن توزيع للتعرفات، ومقادير الاجور ... اما اجر العمال والمستخدمين المحدود، فيقرر حسب التعرفة[١]).

وتجري هذه التحديدات الاجور، تبعا لساعات العمل، ومعدل الانتاج، في الاعمال اليومية، المحددة بالساعات وهناك ثلاثة انواع اخرى للأجور هي:

١-الاجر اليومي المحدود على العمل المعين، مع الجوائز على تعدي البرنامج الخاص، والزيادة عليه زيادة بارزة، وهذا هو الضرب الاول باضافة الجائزة على ازدياد كمية الانتاج.[٢]

٢-الاجر على القطعة، وذلك بتقدير تكنيكية العمل: (الوقت اللازم لصنع كل قطعة) ويقوم هذا التقدير على اساس صارم، وعلى تقرير المعدلات لمدة سنة[٣].

---

(١) (الاتحاد السوفيتي في مائة سؤال وجواب) ص٩١ .

(٢) نفس المصدر ص ٩٠

(٣) = = ص ٩٠.

٣-الاجر التصاعدي على القطعة، وهي تجمع بين الاجر على القطعة والاجر مع الجوائز، وفي هذا الحال ينال العامل الذي ينتج أكثر من المعدل، اجراً يحسب على اساس تصاعدي . وهذا النظام يطبق عادة على الصناعات الرئيسية.[1]

والاجور – في هذه الاشكال ايضا – تكون اجبارية تحددها النقابات، وتوافق عليها الحكومة، اما العمال فليس لهم الحق في المطالبة بأجور اكثر مما تحددها الدولة .

دوام العمل:

اما ساعات العمل – في القسم الاول – فيتراوح بين الثمانية ساعات واكثر. وأما الذين يعملون تحت الارض فلا يقل عملهم اليومي عن السبع ساعات، وهذا التقدير يوافق أقصى- مدة الاعمال التي يفرضها الرأسماليون على العمال والمستخدمين . نعرف هذا التحديد في ساعات العمل من وعود خروشوف عندما قال: (وقد نص مشروع الارقام التوجيهية على ان ينجز في سنة ١٩٦٠م تخفيض .. يوم عمل العمال والمستخدمين الى سبع ساعات، وتخفيض يوم عمل العمال الذين يعملون تحت الارض، المهن الرئيسية، في صناعات استخراج الفحم والمعادن الى ست ساعات).

ذلك في الاجر اليومي، اما في الاجر على القطعة، والاجر التصاعدي على

---

(١) === ص٩١.

القطعة، فيوم العمل غير محدد فيهما، وعلى العامل ان يستنفد طاقته وجهوده، بدافع الخوف حينا، والرجاء حينا اخر، وقد وضع هذان القسمان من الاجر لغرض اعتبار ساعات العمل، ثم ان تقرير الجوائز في القسم الاول لمن تعدى المقدار المحدد من الانتاج، يدلنا على ان تقدير ساعات يوم العمل، ليس الا لتحديد اقل ساعات يوم العمل، خلاف ما هو موجود في البلاد الرأسمالية.

اعمال فادحة:

وليست الاعمال في روسيا ومستعمراتها، الا اعمالا تكنيكية قاسية، تتطلب مزيدا من الدقة والانتباه، اضافة على ان تقدير الاعمال يكون – دائما – بصورة مرهقة باهضة، فالعامل في روسيا ومستعمراتها، يجب ان يركض بسرعة تعادل أربعة اضعاف سرعة العامل في الولايات المتحدة[1] واذا كان العامل في الولايات المتحدة مرهقا متوتر القوى والاعصاب فماذا يبلغ من النصب بعامل يجب ان يركض بسرعة تعادل اربعة اضعاف سرعته.

استخدام النساء والاطفال:

ان النظام الاشتراكي يستخدم النساء والاطفال، كاستخدام الاماء والعبيد ... ومن العجيب جداً ان الشيوعيين والاشتراكيين يوجهون دعايتهم ضد النظام الرأسمالي، بحجة انه يستخدم النساء والاطفال، وعندما ننظر في نظامهم الشيوعي او الاشتراكي، نجدهم يستخدمون النساء والاطفال – ايضا – أليس

---

(١) خروشوف (الارقام التوجيهية...) ص ٧٢ ط موسكو.

هذا هو التناقض المريب؟

ولقد كان استخدام النظام الرأسمالي للنساء والاطفال، يعني انه كان يسمح بذلك، والرأسماليون كانوا لا يسخون بأموالهم الا ازاء العمل دون ان يفرقوا بين الرجال والنساء والاطفال، اما النظام الاشتراكي فانه يقهر النساء والاطفال على العمل، حتى لو استعصى واحد منهم . اعتبر هذا ما يجب مؤاخذته وتعريضه للعقاب.

النقابات ضد العمال:

إن من طبيعة النقابات ان توجد لحماية مصالح العمال، ورد المظالم والضربات الموجهة إليهم، ولكن النقابات في روسيا ومستعمراتها ليست إلا شبكة من شبكات الحزب، ودوائر حكومية متغلغلة في اعماق الحركات العمالية، ومسيطرة عليها، لتكون اقدر على استعبادها.. كما صرح بذلك ستالين عام ١٩٣٣ : (يجب ان يكون مفهوما ان نقابات العمال لا تعمل لحساب العامل باعتباره عاملا، وإنما تعمل لحساب العمال باعتبارهم ادوات من ادوات الانتاج... ولهذا فأن هذه النقابات لا تحمي مصالح العمال التي تتعارض مع مصالح الحزب[١]).

فالنقابات يجب ان تعتبر العمال من ادوات الانتاج، وتعمل لحساب الحركة العمالية: الشيوعية، بهذا المقياس. كما يجب ان تعرف النقابات موقفها من العمال

---

(١)لقدم التصريح به من خروشوف (الارقام التوجيهية...) ص٩٢.

ومن الحزب، فهي ليست إلا فصيلة عن الحزب، يكونها الحزب، ويختار قادته لتكون جهازا تابعا مساعدا له، وهذا ما نادى به ستالين عام ١٩٣٣: (دعوني اوضح بصراحة: ان نقابات العمال هي اجهزة تابعة لأجهزة الحزب... ويجب ان يكون مفهوما: ان الحزب هو الذي يختار قادة النقابات، لأن فروع النقابات داخل الحزب هي المسؤولة عن هذه النقابات[(١)]).

فالنقابات عملت وفق مؤامرة رئيسها ستالين، ووقفت من العمال موقف العدو المتربص، فكانت الحكومة تحتسي دماء العمال – كالعلق- وكانت النقابات هي الاخرى، التي تكونت باسم الصديق، وتكشفت عن عدو لدود...

لهذه العوامل كلها ظل العمال يرزحون تحت كابوس الفقر ونير الاستعباد، دون ان يطيقوا الدفاع عن انفسهم بشطر كلمة، لأن النقابات تملك الصلاحيات الكاملة لكبت الاصوات المعارضة، بما تراه صالحا لخنق الصوت المناوء.

اهمال العجزة:

والنظام الاشتراكي لا يختلف عن النظام الرأسمالي في إهمال العجزة وعدم الاهتمام بهم، حتى يلقيهم الموت جوعا وعريا، على ما نطق به ستالين عام ١٩٣٦م : (جرت العادة في وقتنا هذا على إهمال شأن الضعفاء، وعدم الاهتمام بهم. فالاهتمام كله مقصور على الاقوياء وحدهم[(٢)]).

---

(١) (النظام الشيوعي) ص٤٨.

(٢) النظام الشيوعي ص١٩.

وحتى ان الكولخوزات التي تخرج من فائض انتاجها الضمانات الاجتماعية، دون ان تنفق الحكومة شيئا عليها، يمتنع ستالين عن ان يتكفل صندوق الضمانات الاجتماعية إعالة العجزة، مع انها لا تعود الى الدولة بخسارة، فكان النظام الاشتراكي يأبى ان يعيش الا من يكون مطية خاضعة. وذلك في تصريحه عام ١٩٣٦م: (يجب ان يكون مفهوما: ان نظام المزارع الجماعية. لا يعني مجرد احتكار الدولة لكل مصادر الانتاج الزراعي فحسب بل يعني ايضاً: جعل العمل شرطا اساسيا للحصول على لقمة العيش...فنحن لا نقيم المزارع الجماعية لنطعم المتطفلين[١]).

رأس المال والربح الناتج منه:

إن النظام الرأسمالي يتكون من هذين العنصرين: رأس المال والربح الناتج منه. وجميع انتقادات ماركس وسائر الشيوعيين والاشتراكيين تنصب على رأس المال، والربح الناتج منه،لا غيرحتى لو فرض نظام لم يكن فيه وجود لرأس المال والربح الناتج منه لما كان للشيوعيين والاشتراكيين فيه مجال للنقد والنقاش... ولكن المدهش جداً ان نرى النظام الاشتراكي يقرر رأس المال والربح الناتج في اجلى واقسى مظاهرهما اما رأس المال فلأن هناك الاموال كلها بيد الدولة إلا ما يدفعها من الاجور الى العمال كما ان وسائل الاستثمار كلها ملك للدولة، كالمعامل والمصانع والمكائن، والالات، والاراضي، و.... والدولة تستثمر هذه

---

(١) نفس المصدر ص٤٧.

الاموال والاعيان فتوظفها في شتى المشاريع والمتاجر، وتقوم بالتجارة الداخلية والخارجية[١] فتستورد من الخارج الوان البضائع والخامات كما تشتري من الكولخوزات بضائعها الفائضة عن حاجاتها ثم تبيع تلك إلى البلدان الخارج، وإلى افراد شعوب روسيا ومستعمراتها، فالاستيراد والتجارة موجودتان في النظام الاشتراكي، وهما لا يكونان إلا بواسطة رأس المال، فرأس المال موجود في النظام الاشتراكي.

وأما وجود الربح الناتج من رأس المال في النظام الاشتراكي فلأن الدولة تستورد البضائع من الخارج بأسعار معينة، أو تشتريها من أصحاب الكولخوزات، بما تقدر لها من اسعار... ثم تبيع نفس هذه البضائع بأثمان خيالية باهضة حسب ما يقدرها جشع الدولة فـ: (إن أسعار البضائع الموحدة في الاتحاد السوفياتي تضعها هيئات برنامج الدولة، ثم تصادق عليها الحكومة[٢]).

من هنا تنشأ مضاعفات الارباح الخيالية، كما ليست موجودة في النظام الرأسمالي، لأن التجار لا يستطيعون أن يطيشوا في تقدير الارباح لأن التنافس الحر يوقفهم عند الحد العادل- نسبيا- ولكن في روسيا ومستعمراتها حيث لا يوجد إلا تاجر واحد: هو الدولة فباستطاعته أن ينطلق في استغلال حاجة الناس الى ما في يديها من البضائع، بتقدير أفدح الاسعار، وليست هناك تجارة

---

(١) إقرأ (الاتحاد السوفيتي في مائة سؤال وجواب) ط٢ ص٧٢-٧٥.

(٢) نفس المصدر ص١٠٠. وللمزيد انظر المصدر ص ٩٨-١٠٠.

حرة توقفه عند حده العادل.[١]

وهذا الربح هو الذي عرّفه ماركس باللصوصية، أصبح الان جزأ لا يتجزأ من النظام الاشتراكي، وهذا اكبر دليل على رأسمالية النظام الاشتراكي، رغم أنهم يعتبرونه نظاماً مناوئاً للرأسمالية.

ولكن هناك اختلاف بين هذين النظامين في نقطة واحدة، هي أن الرأسماليون في ظل النظام الرأسمالي كثيرون متنافسون فيما بينهم، وفي النظام الاشتراكي لا يوجد إلا رأسمالي كبير، هو وحده يرتكب جميع المظالم، ويترك للتاريخ أساطير مفعمة بالدماء والدموع، دون أن تستطيع أية قوة مناوئة تحديد جرائمه وسيئاته....

استثمار الانسان للانسان:

طالما رفع الاشتراكيون عقيرتهم المتغطرسة بالنقد اللاذع البذيء للنظام الرأسمالي، بحجة أنه يسمح باستثمار الانسان للانسان، وذلك صاحب المعمل حيث يستخدم العمال، ولا يوزع عليهم مجموع الانتاج، بل يقسم الانتاج بين نفسه وبينهم، فهو يستثمرهم، ويضطهد هم في ذلك القسم الذي يستأثر به.

---

(١) لست احاول بهذا الكلام ان اسجل العدالة للنظام الرأسمالي، فقد اتفقنا: انا وانت على فساد الرأسمالية، وقفنا على اخطائها واخطارها ولكن الحقيقة التي اشرحها الان، هي ان النظام الاشتراكي ليس إلا صيغة اخرى للنظام الرأسمالي، غير انها صيغة جديدة متطورة، متناهية في القسوة والصلف والاستغلال.

وعندما تحكّم الاشتراكيون على روسيا ومستعمراتها، جعلوا يتبجحون بـ: أننا حررنا العمال من الاستغلال والاستثمار، وسوف لا يستطيع إنسان أن يستثمر إنسانا- في ظل النظام الاشتراكي...

ومن المدهش جداً: أن الاشتراكيون – في نفس الوقت- يقومون بأوسع الاستغلال والاستثمار، فالحكومة الاشتراكية تستثمر مجموع الشعب لمصالحها الخاصة، ولا تدع أي فرد يهرب من هذا الاستثمار الشامل لانها تقهر الجميع وتسخّره للعمل وفق برامجها الخاص بما تقدر من الاجور حتى الكولخوزات، والحرفيون، والفلاحون الفرديون، الذين عجز النظام عن إخضاعهم الكامل للدستور، والذين يعتبرون متحررين – نسبيا – ألجئتهم الحكومة، تحت نظام التعاونيات والنقابات، إلى الرضوخ للاستثمار الحكومي، كي لا يختلفوا عن العمال والفلاحين المأجورين.

فالاستثمار العام الشامل هو النظام الوحيد، الذي تعيشها شعوب روسيا ومستعمراتها. ولكن الحكومة حيث تحاول أن تستثمر –وحدها- مجموع الجهود والخدمات، تمنع بكل صرامة أن يستثمر إنسان من أفراد الشعب إنسانا اخر، على سبيل تكافؤ الفرص، والجهد والجزاء...

الايجار:

ان هناك قوانين طبيعية لا يشذ عنها حتى المستثمرون والمضطهدون التزاما بحكم الطبيعة القوي الصارم، التي لا يخبو صوتها حتى في الحالات الشاذة، فالانسان متى استعبد انسانا ليسخره في مصالحه، فلا بد ان يضمن له القيام بحاجاته الاساسية، بان يلتزم بتسليم قوته، وملبسه، ومسكنه اليه ... ولكن

النظام الاشتراكي يتنمر حتى على هذه الحكومة، ويكفر بحاجات الانسان .. فهو عندما يقرر للعامل معدلا من الاجور، لا تضمن له غذائه الكامل الملائم، يطالبه بأجور المسكن – حسب ما تقدر الحكومة اجور المسكن – واليك النص التالي، الذي يشف عن القسوة والتقتير في بيوت السكن:

(... يقضي القانون بان بدل الايجار يجب ان لا يزيد عن روبل ٣٢ كوبيكا[١] على كل متر مربع واحد من المساحة القابلة للسكن ... وهكذا فان اقصى حد لبدل ايجار من ٣٥ الى ٤٠ متراً مربعاً، يتراوح بين ٤٦ و ٥٣ روبلا في الشهر[٢]).

اجور على الحاجات العامة:

كذلك ينكل النظام الاشتراكي عن تحمل الحاجات، وانما يوفرها للعمال و الفلاحين، وسائر المسخرين من افراد الشعب، شريطة ان يدفعوا الاجور ، والا فالحكومة تأبى عن اسداء الخدمات للمواطنين، فحضانة الاطفال[٣] وتربيتهم على الاباء[٤] الا ان يدفعوا اجوراً باهضة رغم ان المرأة والرجل المسخران للعمل الاجباري، لا يستطيعان ان يقوما بحاجات الاطفال التي تستغرق الوقت الطويل ... وحتى ان أي فرد التجئ الى دخول المصح لمرض او نقاهة، يجب عليه

---

(١) الكوبيك جزء من فئة جزء من الروبل.

(٢) (الاتحاد السوفيتي في مائة سؤال وجواب) الطبعة الثانية ص٥٠ .

(٣) -اقرأ المصدر السابق ٥٩.

(٤) المصدر السابق ٥٩.

ان يدفع السعر المقرر.(١)

الضرائب التصاعدية:

ثم.. وبعد ذلك كله.. لا تعفى سكان المساكن من الضرائب التصاعدية، بصورة جائرة ليس لها مثيل في دول العالم، وحتى هذه الضرائب المفروضة – حاليا – لا تسد جشع السادة المترفين فماوتسي تونغ – في الاونة الاخيرة – يطلق هذا النداء: (– تأسيس جهاز تقدمي ينظم الضرائب(٢)).

ومن المدهش : ان اسياد الكرملين وعملائه يحقرون الضرائب الخيالية التي يجبونها من السكان .. وهذا خروشوف يقول: (... ان الوزن النسبي للضرائب التي تجبى من السكان، قد اصبح في الوقت الحاضر ضئيلا لا يزيد على ٧.٨ في المئة من واردات الميزانية(٣)).

ويسير على خطة خروشوف في تضليل الضرائب النص التالي: (... اما الضرائب التي يدفعها الاهلون ، فليس لها الا دور ضئيل في الميزانية: فهي لم تشكل الا ٩.٣ بالمئة من الواردات عام ١٩٥٢ و ٨.٤ بالمئة عام ١٩٥٣ ، ٨ بالمئة عام ١٩٥٤(٤)).

---

(١) انظر نفس المصدر ص٣٧.

(٢) ماوتسي تونغ (الحكومة الاتحادية) ص ٥٨ تحت عنوان (برنامجنا الخاص).

(٣) خروشوف (الارقام التوجيهية ...) طبعة موسكو ص ٦٦.

(٤) (الاتحاد السوفيتي في مائة سؤال وجواب) الطبعة الثانية ص ٢٨ – ٢٩ .

ماذا يريد هؤلاء ؟ أيريدون ان تتألف ميزانية الواردات كلها من الضرائب؟ او يريدون ان يأخذوا مجموع الاجور التي يدفعونها الى الشعب بأسم الضرائب؟ ام ماذا يأملون ؟.

ان فكرة جباية الضرائب فكرة مغلوطة بالذات، سواء أكانت في النظام الرأسمالي، او الشيوعي او الاشتراكي، او اي نظام اخر!!

فالضرائب ليست الا اموالا تغتصب من الناس بصورة رسمية قانونية ولا مبرر لها الا ان الدولة تملك القوة، والقوي له ان يفعل ما يشاء، وهذا المنطق لا يشبه الا منطق ذلك اللص يشهر سلاحه في وجوه الناس ليسلب اموالهم بالعنف والارهاب الا ان الناس روضوا على تحمل مظالم الحكومات حتى طمئنوا اليها، واذعنوا بها ثم استسلموا لها، دون ان يشعروا بوقع الاضطهاد، ولم يتعودوا منطق اللص، او علموا : ان اللص ضعيف يستطيعون مقاومته، وتعريضه للعقاب، فثاروا ضده، ثم ان الضرائب لا تفرض على اجور العمال، والفلاحين والمستخدمين وانما الحكومات تتذرع بهذا السلاح في نهب الاموال الوفيرة، والتجارات الضخمة، لا في الدنيا رأوا الدرهم المرتعش في يد الفقير العاري الهزيل.

وبعد هذا ... فان الـ ٨ بالمئة من ميزانية الواردات التي هي معدل الضرائب التصاعدية، ليست بالنزر اليسير – كما يصفها الشيوعيون ، ليهونوا بذلك مظالمهم، واضطهادهم للشعب – وانما هي مصفى اعمار وجهود، وخدمات .

واننا نستطيع، ان نعرف مدى قسوة الضرائب هناك بالبيان التالي ان ٨ بالمئة من ميزانية الواردات هي كمية الضرائب في عام ١٩٥٤ م[١] – ولنفرضها المقياس المعدل للضرائب ، كل عام، على اقل تقدير – وميزانية الواردات في نفس العام ٥٧٢.٥ مليار روبل[٢] و ٨ بالمئة من هذا العدد يربو ٧١.٥ مليار روبل.. فهو اذن مجموع الضرائب في ذلك العام . ومجموع الاموال التي ارصدتها الدولة، لتوظيفها في الاقتصاد الوطني ، ذلك العام = ٢١٦.٢ مليار روبل[٣] و ٧١.٥ يقرب من ثلث ٢١٦.٢ .

من ذلك نستنتج ان ضرائب عام ١٩٥٤م كانت تساوي ثلث مجموع النفقات التي وزعت على جميع مشاريع الاقتصاد الوطني ... وهذه كمية جدا هائلة، لا نجد لها نضيراً في اية دولة من دول العالم.. من ذلك كله نستنتج .. ان النظام الاشتراكي ليس الا نوعا من الرأسمالية، وهو اقسى انواع الرأسمالية، وان جميع التضاربات بين الرأسمالية والاشتراكية، ليست الا على الهدف الموحد، وهو الاستغلال والاستعباد، اما الكلمات الخلابة، والقوالب الجاهزة المغرية .. فليست الا حبائل وشبكات لصيد الملايين من بني الانسان.

هذه اشتراكية روسيا:

ذلك هو النظام الاشتراكي السائد في روسيا ومستعمراتها، وتلك بعض

---

(١) نفس المصدر ص٢٩.

(٢) نفس المصدر ص ٢٨-٢٩.

(٣) نفس المصدر ص ٢٨-٢٩.

سيئاتها وجرائمها، او بعد الاحاطة بما سبق هل يروق لاحد ان يعيش في جو يسوده هذا النظام؟؟ مع العلم : اننا لم نسجل جميع النقاط التي تلفت الانظار، وتبهت المرء، وتحفزه الى التسائل: هل تقود المطامع والاهواء، اناسا من اولاد ادم وحواء، الى ان يصبوا هذا السعير الفوار على رؤس الملايين من اخوانهم في البشرية؟ ان هذه اعجوبة لم نجد لها مثيلا في تاريخ الانسان، حتى ان الوحوش الهاصرة، وجوارح الطير، تأبى ان تضطهد اخوانها هذا الاضطهاد الدائم الاليم ... الا ان البشر : هذا المخلوق الضعيف الجبار، لا يربو بنفسه ان ينزل الى ابعد من قرارة الوحش الضاري، في سبيل مطامعه الوقتية الرخيصة، واهوائه الدنية القذرة .. ان هذا لشيء عجاب ... والاعجب من هذا كله: ان نجد اناساً من السذج البسطاء، والمغفلين المعتوهين، او العملاء المأجورين، يطالبون باستيراد ذلك النظام، وتطبيقه على الملايين ... والملايين ... في سبيل اللا شيء ظانين: انهم يستطيعون العيش في ذلك الجو الخانق القاتم، أرفه مما هم اليوم وهم لا يعلمون: انهم في طليعة الذين تدرأ عنهم الرحمة، ويشملهم العذاب.

مناقشات على الاعقاب:

على انقاض الحديث يتسائلون:

١ - وإذا كانت الاشتراكية كما تصفون؟ فكيف استطاعت ان تنهض بشعوبها الى هذا المستوى الرفيع في الحقول العلمية، والصناعية، والاقتصادية، والحربية ؟ رغم ما كانت عليه في عهد قيصر من التأخر والجمود والانحطاط .. ؟ اذن فهذا الفضل كله يرجع الى صلاحية النظام

الاشتراكي، وامكاناته وطاقاته !! .

والجواب على هذا الكلام يأتي من وجوه:

أ -ان جميع البلاد كانت متأخرة في عهد قيصر، في المجالات العلمية، والصناعية، والاقتصادية والحربية . ثم تقدم العلم الحديث فسببت تقدم جميع البلاد، على حد سواء، ما عدى المستعمرات التي لم تكن تتمتع بالحكم الذاتي .

ب – ان ميزان النجاح والفشل، في دولة او نظام، ليس مجرد الارقام التي تحرزها الحكومة في داخل صندوقها، او الطاقات الحربية التي تعبئها في معسكراتها، ولكن المقياس الوحيد هو سعادة ابنائها، أوشقائهم اذ ان الدولة شعب وافراد قبل ان تكون جيشاً وصندوقا ..

ومن السهولة بمكان ان تعمد اية دولة الى تسخير شعبها تحت عصى- القسر- والاكراه، في شتى المجالات السياسية والاقتصادية، حتى تسبق سائر الدولة، في تلك المجالات، او تسلب اموال شعبه، كي يفيض صندوقه بين عشية وضحاها بالمال الوفير ... ولا يكلفها ذلك الا قدرة على البطش وقوة على الظلم والاضطهاد ...

ولكن الصعب ان توفر الدولة جميع الحريات، والوان السعادة لشعبها، وتضمن لنفسها التقدم والازدهار.

فالحكومة لم توجد لتلوك شعبها بين ماضغيها، فتزداد سمنا وترها، وانما وجدت لتحمي مصالحه وحرياته .

ج – اننا لو وازنا بين ما احرزته روسيا في هذه السنين الاربعين الاخيرة من النجاح والتقدم وما رزقته بلاد اليابان، او المانيا، او امريكا، في مثل هذه السنين الاربعين، من المكاسب والانتصارات، لرأينا ان روسيا لم تضرب اي رقم قياسي في اي مجال، بالنسبة لكل نسمة من السكان .

٢ – اذن لماذا تمعن حكومة روسيا في الدعوة الى الشيوعية ونعيمها، وتتحمس للدفاع عنها، دون ان تعلن فشلها واستعصائها عن التطبيق؟؟.

والجواب : ان حكام روسيا لا يهدفون من وراء الشيوعية غير الاستيلاء العسكري والسياسي على اكبر رقعة من العالم، او ربط البلاد بزمام التبعية لها – على اقل تقدير – كي يستطيعوا بذلك من استثمار البلاد الغنية، واستلاب خيراتها ونعيمها، ليوفروها على شهواتهم الجشعة الفاجرة، والسيطرة والسيادة منبتا الجائرين المفسدين الذين يريدون علوا في الارض وفسادا ..

والحكومة لو تعلن فشل النظام الشيوعي او الاشتراكي، لما استجاب لها احد، ولما استطاعوا من استعمار البلاد الاخرى، لذلك ظلوا محتفظين بعدة من الكلمات والالفاظ كي يستعبدوا بذلك الملايين ...

كما ان مبادئ الشيوعية الماركسية بائت بالفشل الذريع، ورغم ذلك بقي حكام روسيا متعصبين لماركس ومبادئه، واستمروا في المواعيد بان الشيوعية ستطبق، بالرغم من انهم حوروها وزيفوها، ثم القوا بها في زاوية الاساطير والاوهام واختلقوا مكانها النظرية الاشتراكية ...

كل ذلك لان كل دولة كبيرة لها وسائل، منتزعة من صميمها تتوسل بها في استعمار البلاد، والوسيلة التي تبنتها روسيا في استعمار البلاد هي الوقوف الى جانب الفقراء، وترديد المبادئ الماركسية، والهتاف بالحريات والحقوق، والتهجم على الظلم والظالمين، والبورجوازية والرأسمالية ... لذلك تحافظ على هذه الجمل والعبارات ..

٣ - : واذا كان كذلك؟ فلماذا تندفع الجماهير، وتلبي هذا النداء الكذوب، وتنتشر الفكرة الشيوعية في كل مكان، وكيف لا تفضح الدول الرأسمالية هذه الاكاذيب؟؟.

الجواب: اما الجماهير التي تندفع تلبية لهذا الصدى المستطار، فلأنها ناقمة على حكوماتها، والقوانين السائدة في بلادها، وهي أبدا تتوقع الخلاص منها، ولو الى أسوأ منها، فتلبي داعي الشيوعية، علـه يزيح عنها هذا الكابوس، الذي طالما رزحت تحته.

ب -: ان الواعين الذين يقودون هذه الجماهير، أناس نفعيون مأجورون، وانتهازيون محترفون، يعملون في هذا السبيل ليكسبوا به الرزق ويحصلوا - في نفس الوقت - على السلطة والكيان ... واما الجماهير التي لا تعرف شيئا في العالم غير الخبز، فتنطلي عليها الحقائق المروعة، الكامنة خلف الوعود والاكاذيب ...

ج - : ان الحكومات الرأسمالية - قبل ان يأتي خروشوف الى الحكم - كانت تعرف صورة باهتة عن الاوضاع السائدة في روسيا ومستعمراتها ولم تكن

تعرف كل الحقائق، فالستار الحديدي انما نصب ليفصل البلاد الاشتراكية، عن العالم كله، وحتى لا يستطيع احد ان يتسقط اخبارها مهما بلغت به الحيلة والدهاء. وهكذا كانت الدول الرأسمالية بعيدة عن اكثر الاوضاع الاشتراكية، وكانت تعرض تلك الصورة الباهتة – التي عرفتها رغم الستار الحديدي – على الناس، ولكنها حيث لم تكن صورة قوية حية لكل ما هنالك، عجزت عن مقاومة دعايات الشيوعيين ..

إضافة على ان الناس كانوا ينظرون الى الحكومات الرأسمالية نظرهم الى اعداء الانسانية والشعوب، فكانوا لا يصدقونها في شيء مما تقول، وكانوا يظنون انها دعايات مغرضة، يجب ان يغلقوا افهامهم دونها ...

ولكن بعدما جاء خروشوف الى الحكم، ونفض فصولا من الستار الحديدي، وانطلقت الوفود والبعثات، تروح لتحمل الينا الانباء المدهشة الهائلة، وجائنا من روسيا بعض البضائع التافهة، وعدد من الخبراء والاطباء ... التافهين، واطلقت الاحزاب الشيوعية هنا وهناك، لتعرف الشيوعية والشيوعيين للناس و ... اذا بالجماهير المتفانية في سبيل الشيوعية تنفض عن جفونها الرقاد، وتندفع – في المرة الثانية – لتحارب الشيوعية، كما كانت في السابق تعمل للشيوعية لذلك كله نجد الاحزاب الشيوعية تتساقط في كل مكان . حتى لم تبق للشيوعيين خلية امينة، وانما خسروا الكادحين، واصبحوا مطاردين منبوذين، تطاردهم الشعوب قبل السلطات، ويلاحقهم الخزي والعار، أينما اتجهوا ...

وهكذا سقطت الاحزاب الشيوعية – بعدما كانت اقوى من الحكومات المحلية – في ايران، ومصر، وسوريا، ولبنان، والعراق، والأردن، وأندنوسيا، والحجاز، وتركيا ... وسائر الدول الاسلامية والرأسمالية ... وسوف تسقط الشيوعية العالمية، وتندحر روسيا ومستعمراتها في يوم قريب ... وقريب جداً ...

التقرير الأخير:

يدل جميع ما سجلناه الى الان على ان المذهب الاشتراكي مذهب فاشل، لم يطبق الا بقتل الملايين، والسجن والتعذيب والارهاب، ثم لم يستطع ان يعيش الى جانب الحريات والاديان والاخلاق، فصادرها – جميعا – ولم يتمكن من ان يسير الناس بحكمة ورزانة وهدوء، فجعل يسوق الناس بعصي القسر والارهاب، ولم يتطوع له الناس فيما يرسم من مخططات واهداف، فالتجيء الى اجبار واكراه الناس حتى على الاعمال الطبيعية البسيطة ... ومع ذلك كله فشل في رفع المستوى السياسي، والاقتصادي الثقافي لروسيا، فظلت متأخرة بكثير، عن كثير من البلاد الرأسمالية... فالنتيجة :ان هذا النظام كالنظام الرأسمالي والشيوعي - فاشل لم يكتب له البقاء !!! ..

مذاهب اشتراكية مبتورة

مولد الاشتراكيات المبتورة:

وبعدما تمر السفينة على سطح الماء – بعدة دقائق – توجد مويجات صغيرة على الضفاف، فتتضارب وتتلاطم، ولا تستطيع ان تفعل شيئا دون ان تعكر نفسها، وتبلل الغادين والرائحين، ولن تمر عدة ثوان حتى تتلاشى وتعود زجاجة الماء الى هدوئها ولمعانها الفتان، وانغامها المتزنة الوديعة ...

تلك هي اسطورة المذاهب الاشتراكية المرتعشة، التي حدثت بعد ثورة اكتوبر:

فبعدما انتشرت دعايات الاشتراكية في البلاد الرأسمالية، استجاب لها الكادحون المضطهدون، فأحدث رجات عنيفة في الحكم الرأسمالي، وأنذر الحكام بالمصير المظلم، فالتجئوا الى تلبية مطاليب الجماهير، علها تخفف ثورتها الجامحة . هذا من جهة، ومن جهة اخرى وجد الحكام: ان النظام الاشتراكي ينفعهم الى حد بعيد، لان الاشتراكية تضع في يد الدولة جميع الثروات، وتعبد العمال والفلاحين للحكومة، بصورة اجبارية واسعة النطاق، وذلك ما تتلهف اليها الحكومات ...

الاشتراكية الفاشية والاشتراكية النازية:

لهذين العاملين سارع هتلر النازي في المانيا، وموسوليني الفاشي في إيطاليا، الى اختلاق مذاهب اشتراكية، فالتقطا من اشتراكية لينين، تلك المواد التي تنسجم مع ميولهما واهدافهما، وانتخبا تلك المواد التي تلائم افكارهما واغراضهما بشيء من التحوير والتطوير، فطوراها كما اشتهيا ..

ونبذا المواد الاخرى، التي لا تلتئم مع اهوائهما ومطامعهما او لا يجداها صالحة للتطبيق ..

وحيث لم يكن هتلر وموسوليني، واتباعهما وانصارهما، الا من ابناء الرأسمالية، الذين ورثوا من العقلية الأوربية، جميع اخطائها، ونقاط الضعف فيها ... اضف الى ذلك دكتاتورية هتلر وموسوليني، والفكرة النازية والفاشية و

هذه العناصر كلها تفاعلت في ادمغة هتلر وموسوليني وزبانيتهما منذ سنين حتى اختمرت وتجسمت ... فلما حاول تكوين فكرة اشتراكية، تناولوا طائفة من الحقائق ومزجوها بكثير من الغلوا والمبالغة، واستبدلوا كتلة من الاباطيل والخرافات، بمجموعة من الحقائق الاخرى، وأقاموا للحياة البشرية نظاما جديداً، كان في الواقع مزيجا مركبا من عناصر شتى فجمعت كثيرا من اخطاء الرأسمالية والاشتراكية معاً ..

ورغم سوء المزاج، وفساد التركيب، الذان انطبعت بهما الاشتراكية النازية والفاشية، كانت بريئة من كثير من اغلاط الشيوعية والاشتراكية فقد رفضوا نظرية الصراع الطبقي في المجتمع، وقالوا بامكان تأخر طبقات المجتمع . كما نبذوا نظرية لزوم القضاء على الملكية الفردية والطمع في المنافع الشخصية وقالوا بوجوب تقرير الملكية الفردية والمنفعة الذاتية .

وايضا حاربوا جملة من الافكار السخيفة التي منيت بها الرأسمالية، فمثلا، ناقضوا نظرية وجوب اهمال العجزة، فقالوا بلزوم اعالتهم، وانتشالهم من ضائقة الجهل والفقر والمرض، وفي حالات العجز الدائم، يجب اعالتهم حتى يقضي عليهم، لانهم كانوا اعضاء في المجتمع، فلا نبترهم بمجرد انهم عاجزون .

هكذا كانت الاشتراكية النازية والفاشية نقية من كثير من الاوهام والاخطاء، في حين انها كانت مليئة بشتى الرواسب والاغلاط المخلفة من الانظمة القديمة والرأسمالية والاشتراكية معاً ...

واننا لا نستعرض هذين المذهبين، كما لا نستعرض اهتماما لوضع النقاط على الحروف لانهما مذهبان مغلوطان، ولقد وقفنا على اخطائهما عند استعراضنا النظام الرأسمالي والاشتراكي ، فلا حاجة، ولا مبرر للتكرار ... خصوصا بعدما اعلن التاريخ فشل هذين المذهبين، واندحر لغير عودة ...

اشتراكيات هوجاء:

وبعدما انقضى دور الفاشية والنازية، اخذت الساسة في استغلال سذاجة الجماهير الغريرة، التي كانت تطالب باشتراكية روسيا فجعلوا يطبقوا في بلادهم بعض مواد الاشتراكية، التي كانت تتفق وافكارهم ومصالحهم واهملوا بقية النظام، وهكذا قضوا على الحركات الشيوعية، التي كانت تستفحل في بلادهم وفي نفس الوقت، غذوا سيطرتهم الاقتصادية والسياسية بمواد قانونية جريئة، التي لم يكن في وسعهم ان يضعوها من قبل .

ولكن اقتصادهم اصبح شيئا مضطربا مضنياً لا يتركز على فكرة جامعة . ومن هذا النوع تكون اشتراكية الهند وبريطانيا، واكثر البلاد الرأسمالية ... لكن هذه الاشتراكيات كلها تدور في حلقة شاغرة، وليست من الصحة في شيء لانها لا تعدوان تكون مركبة من الرأسمالية والاشتراكية ففيها من اخطاء وسيئات الرأسمالية والاشتراكية، وهذا يكفي دلالة على بطلانها، وسيعلن الزمان بعد حين فشلها ...

الاقتصاد الإسلامي

الفرد في نظر الاسلام:

للأسلام رأي آخر حول مكانة الفرد ، يختلف عن فكرة الرأسمالية ومنطق الشيوعية والاشتراكية ، لأنه يعرف الفرد موجودا ذا اعتبارين - في آن واحد -:

١ - صفته كفرد مستقل، له كيان خاص ، ومؤهلات معينة.

٢ - صفته كعضو في المجتمع ، فهو يلبي حاجاته الفردية حينا ، ويستجيب لعلاقاته الاجتماعية مرة ، فلابد وأن يكون للفرد كيان ، وللمجتمع كيان .. طبقان لموازين لا يصطدم احدهما بالآخر... وعلى ضوء ذلك ، يرسم الإسلام خطة جديدة بين المرحلتين ، على حد سواء ، ثم ليسير قدما والى الأمام حيث يأمن العثار.

ويجعل حجر الزاوية للمجتمع : المال والروح...وليضع الدولة مهيمنة عليها...

وهنا نستعرض بعض النماذج ، من شتى ادوار الاقتصاد:التى يسنها بوحى من هذا المبدأ الرشيد... :

الملكية الفردية:

هنا منبع الاقتصاد .. او مفترق الطرق .. الذي تذهب منه الشيوعية الى الملكية الجماعية .. والرأسمالية الى الملكية الفردية المطلقة .. والاسلام الى الملكية الفردية المقيدة .

وقد ذكرنا ما في الملكية الفردية المطلقة من سوء.

ويزعم الاشتراكيون : ان الملكية الفردية قارنت الظلم والاستعباد – على مدار التاريخ – وقبل اكتشاف الزراعة كانت (الفترة الملائكية) التي رأت مجتمعا

فاضلا : يسوده التعاون والتعارف والاخاء .. لذلك لا بد ان نعيد تلك الفترة السحيقة، بالغاء الملكية الفردية !

وهذا الكلام لا يعرفه التاريخ ولا تقره الصحف السماوية ...

وقد قتل (قابيل) (هابيل) في اولى اسرة تكونت على وجه الارض وعلم النفس والاجتماع يحكمان: بان نزعة السيطرة الفردية من الطبائع الفطرية، المركبة على الانسان، ويولد بها .. مع اهمال البيئة، وجميع الظروف المحدقة به من قريب او بعيد .. فهذا الادعاء مختلق ..! ثم ان هؤلاء يريدون: ان يرجعوا البشرية الى الوراء ... الى الوراء.الى البدوية الاولى...الى اول يوم انطلق البشر فيه على التراب!!

يقرر الاسلام الملكية الفردية – بوسائل مشروعة – ثم يصون هذا الحق لصاحبه . ويقطع الايدي المعتدية عليه .. واثبات الملكية الفردية تحقيق للعدالة بين الجهد والجزاء.(من عمل فلنفسه) ومن اهمل فقد خسر نفسه.

ويساير الفطرة والميول... ويجاري الاشواق البشرية الحافزة على العمل، للحصول على اكبر قدر ممكن من النتاج، في حين انه يتفق مع المصلحة العامة: باغراء الفرد على انفاق اقصى مجهوده في سبيل تنمية الحياة والفرد متى علم: انه يعمل لنفسه، والتوفير على حاجاته، يندفع نحو العمل بنشاط وانطلاق .. ويختلس من وجبات فراغه وراحته، ليخصص للعمل اوسع فرصة عريضة، ويستنزف طاقاته بانبساط والحاح، ولا يحس انه مسخر للعمل، ولا يشعر بالتعب مهما كد وكدح ، ولا يضيره: ان يسامر سرير الالم بعد ذلك.

لهذا الهدف النبيل يعترف الاسلام بالملكية الفردية، ويضع اصولها المعينة: التى تتيح للمجتمع هاته الفوائد الجسيمة من فرد واحد، دون ان يمس كرامة الاخرين .

ومثل عمل هذا الفرد لا تؤديه العشرة من المسيرين قسراً وغصباً، لا يملكون ارادتهم، ولا يعرفون احترامهم، وانما هم ادوات ميكانيكية بسيطة في المعمل .. على حد تعبيرهم .

نطاق الملكية الفردية:

ولكن الإسلام لا يدع الملكية الفردية تطغى على مصالح الجماعة.. فالإسلام إنما يقنن نظام الملكية الفردية للمصلحة المشتركة بين الفرد والمجتمع، وتقدم ضرورات الجماعة على حاجات الفرد عند الاصطدام

فكرة الاسلام عن الملكية:

تدور فكرة الإسلام عن الملكية على نقطة واحدة: هى مبعث التحليل والتحريم في منابع الثروة، وهى قانون (تكافؤ الفرص) فالعمل سبب لتنمية المال... ، فلذلك العامل يستحق النماء . وأما عين المال، فبنفسه لا ينمو، والنقود لا تلد النقود ، ولو مر عليها ألف سنة ، فبم يطالب صاحب رأس المال؟

وبمثال اوضح: دع مليونا من الدنانير في الصندوق.. ماءة عام ! هل يزيد عليه واحد؟ وضع اطنان القمح والرز والشعير في المخازن حتى تبور ... لا تنمو نصف مثقال..! ولكن .. تاجر بالدنانير ! ستدر عليك ارباحها ! واترك الفلاحين يزرعون الحبوب، ويجتهدون عليها بضع شهور سيحصدونها سبعمائة مثلا!!

من وحى هذه الفلسفة الواقعية يضع الاسلام برنامج اقتصادياته ويرسم الحدود والقيود للمكاسب ! وعلى هذا الضوء يحرم اشياءاً ويحلل اشياءاً .!!

المتاجر المحرمة فمنها:

١ -الربا:

عصب الرأسمالية ودعامتها الراسية، لأن الربا لا يكون إلا في المجتمع المضطرب، فيه الثري الذي نقوده أكثر من نفقاته وتجاراته، وفيه المحتاج الذي سدت في وجهه السبل، فلم يجد منفذاً يرتزق منه أينما اتجه، حتى التجأ إلى المعاملات الربوية بدافع الحاجة والاضطرار، وإن خسر الفائز كل يوم، لكنه كالمقدم على الانتحار...وهكذا الربا ينمو ويزيد أضعافاً مضاعفة، فما هى إلا سنوات حتى تتسرب ثروات هائلة من أنامل الكادحين إلى مخازن المترفين...

وكم نعرف اناساً اقدموا على الديون الربوية لترميم بيوتهم او مصانعهم، ثم عصفت بهم ازمات اقتصادية: عاقتهم عن اداء الديون .. وتضاعف الربا عاما بعد عام .. حتى اخذت المصانع والبيوت من ايديهم .. وضلوا يلفضون حياتهم في سلسلة من الحسرات والعبرات!

فهذا الفائض يستمتع به صاحب المال ، ابتزازا بتحين ساعة احتياج الناس. انه العرق والدماء يلغ فيها بنهم وشراهة، لا لشيء الا لانه صاحب المال .. والاسلام الذي يقدس العمل، ويجعله السبب الاساسى للربح، لا يعترف بهكذا اموال ... ولا يعرفها الا سرقة قانونية .. لان المال بنفسه لا يولد المال، وانما الجهد والعمل يحصلان على الفائدة .. فيجب ان تعود غلة الجهد لصاحب الجهد، وان يعود المال مفردا لصاحب المال..

وهناك الخطر الجاثم خلف اباحة الربا، هو: تمهيد الوسائل لتضخم رؤوس الاموال، بلا جهد وكفاح في سبيله! وتكاثر الفقر والفقراء... ومعنى ذلك: توزيع المجتمع طبقتين متباعدتين: طائفة من المترفين البطالين يعتمدون على الربا في تنمية اموالهم بلا حساب... وفرقة الكادحين المتسولين يقترضون بالربا – في ساعة العسرة – ثم يعوزهم الاداء ... فيصبح المجتمع اشبه بكفتي الميزان: تعلو الطبقة المترهلة الفاجرة، كلما يشيع الفقر ويزداد الفقراء ..

الترف الحرام:

ومتى تأمرون المترفون.. فهم – بطبيعة الحال – يسوقون الاجتماع الى الهلاك والتدمير ... فالمترفون ينضب الايمان والضمير في قلوبهم، وتعلوهم الغلواء والغلظة، والاندفاع الهائج، والوقاحة المائعة.

فالطاقة الفائضة لا بد لها من متصرف .. والمترفون والمترفات يجدون رزمة من الطاقات تتلاطم لتفيض: طاقة الشباب. طاقة الفراغ . طاقة المال. ويعرفون مصارفها في حياتهم الرخوة الناعمة .. وفي متاعهم المستهتر الداعر ... وهم محتاجون الى حاشية وبطانية ترضخ لسخافاتهم واوهامهم الشاذة، وتتحمل خرافاتهم واساطيرهم البالية، وتشترك معهم في اللهو القذر .. فتجتمع كتلة آسنة، من الامعات العفنة، والمستغلين والمهرجين ، والذيول والحواشي، والحشاشة وتجار الرقيق ... ينشرون الدعارة والترهل، ويرخصون قيم الحياة الجادة: التي لا تروق للمترفين والمترفات ... والى جنب هؤلاء القصر المجنح الذي يرف على المزارع والحقول ... والضياء الصفراء الضحوك، تتنزى من

عيون الشرفات والزجاج . والاغراء الحاسم الخلاق ... وعلى الضفة الاخرى الحطام الآدمي الهزيل، الضحل المتهافت، ومن لا طمع له في القرص ، ولا عهد له بالشبع لا تخشى بوادره، ولا ترهب سطواته...

او في مثل هؤلاء من يستطيع : ان لا يحشر في فخاج الفجور ... الا الابطال والقدسيون.. وما اكثر الناس – ولو حرصت - بابطال او قديسين !!!

كذلك يستفحل الداء في مرافق الحياة .!. ثم تكون عاقبة ذلك شيوع الفاحشة في الامة.. وانتشار الاباحية والفوضى... وخواء الضمائر والاجسام والعقول ...

تلك هي فكرة الاسلام عن الربا .. تبدء فردية، ثم تصبح جماعية وكل هاته المظالم تكون ..ومشارها الربا!.

وهناك فلسفة ثالثة لتحريم الربا، هي :ان الربا يوهن علاقات الافراد، بعضها مع بعض، وتقطع الاواصر والصلات العذبة: فان من يعطيك دينارا ليأخذ منك – بعد ستة اشهر – دينارين هو عدوك، وانت عدوه: لا تجمعكما الاخوة الاسلامية، وروح التعاون والتعاضد: التي بني عليها الاسلام ...

وبالاخوة يفشى التباغض والتكايد ، التحاسد: التي تنتهي بالانتفاضات الدامية ... ويعتبر الناس روادها ابطالا، وحملة مشاعل الانسانية في دروب الحياة..

لذلك يحرم الاسلام الربا .. ويبالغ في تحريمه. حتى لعن النبىﷺ آكل الربا، ومؤكله.

وكاتبه، وشاهديه، وقالﷺ: هم سواء ! ويأمر بتبادل القروض الاهلية بلا فائدة.. لتنمى – في المجتمع – المودة والمروءة والتضامن ، بين الجماعة: غنيها وفقيرها ، وعاليها وسافلها .!!

استحباب الزيادة:

ولكن ثمة حقيقة لا تغفلها نظرات الاسلام، العميقة الثاقبة.. وهي ان نفس المال اذا بقى عند صاحبه، ولم يقترضه احد، لتاجر به وربح .. ولكن عندما يقرضه للناس، لا يستطيع ان يستفيد من ماله هذا، لا بالمعاملة ولا بالربا .. وذلك يوجب تجميد المال، وشلل الثروة – بالنسبة لمالكها – عندما ينتفع بها الاخرون، وكذلك تقل الرغبات .. وينقطع الجميع عن اعطاء الديون!

لذلك وازن الاسلام مصلحة المقرض بمصلحة المقترض .. فعندما يكون المقترض فقيرا، يقتضى التكافل الاسلامى : ان يكف الغنى عن الربح قليلا – لامداد حياة الفقير ... واذا كانا غنيين قدم مصلحة صاحب المال فكان من المستحب على المقترض– عندما يؤدي الدين – ان يضيف اليه شيئا من المال تبرعا، دون تبان عليه من اول الامر . لئلا يفوت صاحب المال الربح .. فيكره الديون بعدئذ .

وكذلك الاسلام راعى حق الجانبين، باسلوبه الرفيع الحكيم دون ايما محاباة او استئثار .

محاولة فاشلة:

وحاول فريق اطلاق الربا في بعض الوانه، فقالوا : ينقسم الربا نوعين: ١- ربا الاستهلاك. وهي: الديون الشعبية، التي يأخذ الفقراء لسد حاجاتهم الفردية، من تكاليف الغذاء ... الكساء ...الدواء.

١- ربا الانتاج، وهو القروض التي تستوفي للاغراض التجارية البحتة.

وقالوا: ان الربا المحرم في الاسلام هو ربا الاستهلاك لا ربا الانتاج وذلك منطق لا يلائم نصوص القرآن المطلقة: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا**﴾.(١)

﴿**لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾.(٢)

﴿**وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا**﴾.(٣)

ولا تعتبره فلسفة الاسلام حول فائض المال ..(فالغنم لمن عليه الغرم). ومالم يشترك صاحب المال مع المديون في الغرامات لا يشترك معه في الانتاج. وان اشتركا - معا - في الخسائر والارباح، فتلك شركة وليس من الربا في شيء.

وايضا. فالفائدة حصيلة الجهد والعمل .. لا المال الذي يستدينه، فليس لصاحب المال في المنفعة نصيب!

---

(١) البقرة: ٢٧٨.

(٢) آل عمران: ١٣٠.

(٣) البقرة: ٢٧٥.

تلك هى: نظرة عجلى – على الفقه الاسلامى – حول الربا . وسنلقى نظرة اخرى على الربا، في افكار العظماء والدساتير غير الاسلامية!

للضعفاء:

الذين لم يحيطوا بفكرة الاسلام القويمة الشاملة، عن الكون والحياة والانسان... فراحوا ينتصروا للاسلام بالعلم الحديث، وآراء العظماء ... اما نحن فنستغنى بوثوقنا بروح الاسلام المعصومة – في اتجاهاته وتوجيهاته – عن الاستنجاد له بغيره ... فلا نزداد اطمئنانا اذا وافقه .. ولا نضطرب اذا ما خالفه!!

مع القوانين والعظماء:

١- كان القانون الروماني يبيح الفائز ... فجائت الكنيسة الكاثوليكية فحرمته تحريما صارما لانه أكل لاموال الكادحين بالباطل!

ولقد كانت (التوراة) و (الانجيل) يحرمانه من قبل . ثم نقل فقهاء القانون الفرنسى: هذا التحريم وعللوه بسبب اقتبسوه عن (ارسطو) هو: ان النقود لا تلد النقود فتكون المطالبة بفائدة عن النقود ضد طبائع الاشياء .

في مصر من عهد الاسرة الفرعونية الثالثة سنة ٢٩٨٠ ق.م. لم تعهد القروض الربوية .. الا في عهد الانحطاط الثاني، في الفترة الواقعة بين ١٢٠٠ – ٦٦٣ ق . م . فدخلت الفائدة القانون المصري منقولة عن (الكلدان) .

٢- يقول علماء التشريع الحديث: ان اثر ما تقدم على القانون يبدو في تحديد سعر الفائدة .

كارل ماركس: ان الربا واحد من مظاهر اللصوصية، التى تسلكها الرأسمالية في سلب حقوق الطبقات العاملة .

البنوك:

لقد نشأت المجتمعات اليوم، على فكرة الرأسمالية، في جميع مرافق الحياة .! فصاحب المال لا تسخو نشأته باقراض المحتاج لقضاء حاجته . والحاجة تلح على الفقير فلا بد من سدها ولو بالربا ... وهكذا وجدت : المصارف (البنوك) للتعامل بالربا وتامين حاجات الناس من هذا الطريق الحرام .. والتجار الذين لهم حرية الاستغلال: بالغش والقمار والاحتكار والربا دون رقابة من دولة ، او تقييد من قانون، يرون من الضرـوريات البدائية وجود المصارف (البنوك) لاشباع نهمهم الملتهب الضاري ..!

والاسلام لا يعرف مجتمعا يلتجئ الى الربا في يوم من الايام .! بل يرسم المجتمع على لحن : يتحامى الربا بطبيعته، ويعرفه شرا وفتنة، للفقراء والاغنياء سواء بسواء .

لان المحتاجون الى الديون ثلاثة انواع: المحتاجون الى قوتهم اليومي. المحتاجون الى العمل. المحتاجون الى التجارة والاستيراد... والاسلام يضمن لهؤلاء جميعا: تأمين كفاءاتهم..

اما الصنف الاول: وهم المحتاجون الى العيش والحياة، فبيت المال يدر عليهم ارزاقهم، في صور رواتب رسمية او غير رسمية.. !

واما الصنف الثاني: وهم المحتاجون الى العمل، فالاسلام مسؤول عن ايجاد اعمال شريفة لهم، تليق بكرامتهم ، وتلائم قواهم الجسدية!؟

واما الصنف الثالث: وهم المحتاجون الى اموال طائلة، لتوسعة نطاق التجارة والاستيراد ..! فالاسلام فتح امامهم باب ...

القرض:

بكلتا مصراعيه.! يستعرض الاموال المتخمة - في هذا الطريق – وحيث يحرص بعض النفوس على بقاء اموالهم المتجمدة في مخادعها ..!

ونجد حرجا في انفاقها للقروض، ومشقة في تفتيت ثرواتهم في ايدي الناس وفي الناس – ابدا – مماطلون وسلابون ... ثم ليست التجارة مضمونة النجاح دائما، فربما تخسر الصفقة، او تصيب السلعة بآفة سماوية، او ارضية، ويبقى صاحب المال يقلب كفيه على ما انفق فيها، ويذهب الدين هباءا .!! لذلك كله يرى الاغنياء: ان الافضل ان يبقوا على اموالهم جامدة: لا يرهبون الضرر ولا يهابون الخسران ... وكذلك يقفل سبيل المعروف، وتتبخر الديون في المجتمع !

ولئن يطمئن الاسلام اصحاب المال من هذه الحوادث يتبادر: اولا: الى بيان ما في القرض من ثواب .. : حتى ان الملائكة لتصلي على المقرض ما دام ماله في القرض كما يقول النبي الاكرم صلى الله عليه وآله :

«من اقرض مؤمنا قرضا ينظر به ميسوره، كان ماله في زكاة .. وكان هو في صلوة من الملائكة، حتى يؤديه...».

ويزيد الامام الصادقعليه السلام قائلاً: «**القرض الواحد بثمانية عشر .. وان مات حسبتها من الزكاة !!**».

الى حيث يبلغ القرآن .. فيعتبر من اقرض المسلمين فقد اقرض الله .. حيث يقول: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ! ؟؟**﴾[(١)].

فمن ذا الذي يرضى: ان يكدس امواله ولا يقرضها المسلمين!؟

وثانيا: يفرض الاسلام على المدين: ان يجتهد في قضاء دينه – تمكينا للثقة بين العباد – : (من اخذ اموال الناس يريد ادائها ادى الله عنه! ومن اخذها يريد اتلافه اتلفه الله!!).

فمن يحاول اداء الدين يجد ويكدح والمجد الصادق ينال هدفه – غالبا – اما المماطل: الذي استمرأ البطالة، والعيش على فضلات الناس!

فمن الطبيعى ان يسترخى همته .! وحتما لا يجد ما يقضي به دينه ، الا في الاحوال الشاذة : التى لا تنفع الا للاحلام. والاسلام لم يكن يوما من الحالمين .! ولا يعلق فرائضه على النوادر .. فالاسلام لا يعتبر هكذا رجل الا سارقا! ولقد قال الامام الصادقعليه السلام: «**ايما رجل اتى رجلا فاستقرض منه مالا، وفي نيته : ان لا يؤديه، فذلك اللص العادي..**».

واداء الدين مقدمة – في حكمة الاسلام – على سائر الحاجات .! وقد سئل (سماعة) جعفر بن محمد الصادقعليه السلام: الرجل منا عنده الشيء يبتلغ به وعليه

---

(١) الحديد: ١١.

دين !! أيطعمه عياله حتى يأتيه الله بميسرة... او يقبل الصدقة؟؟

فقال عليه السلام: «**يقضي مما عنده دينه ! ولا يأكل اموال الناس الا وعنده ما يؤدي حقوقهم**»!!

ان الله تبارك وتعالى يقول: ﴿**لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالْباطِلِ إلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ**﴾.. !.

اما اذا لم يستطيع المدين من اداء دينه، او مات او قتل ، فالاسلام يتكفل قضاء دينه ! و يقدر له حصة من الزكاة: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ... وَالْغارِمِينَ...﴾.[1]

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول في خطبه: «... **من ترك ضياعا فعلى ضياعه..! ومن ترك دينا فعلى دينه**»! .

هكذا الاسلام يعالج مشكلة الربا، وحاجة المجتمع الى المصارف : (البنوك) ولكن الاسلام يحمي .

البنوك الاسلامية:

التى يودعها الناس اموالهم الفينة بعدالفينة، من الحين الى الحين، لتكون اعتبارا لهم في الاسواق العالمية..! وليا خذوا من اموالهم ما شاؤا ومتى شاؤا !؟؟ دون ان يكلفوا المحافظة عليها بأنفسهم..!

وفي نفس الوقت يقوم صاحب المصرف بالتجارة والاستيراد! بهذه الاموال

---

(١) سورة التوبة: ٦٠.

مع الاذن من اربابها..! وهذه منفعة لها مكانتها الاجتماعية! فيقتصر عليها صاحب المال المصرف!

هكذا يقرر الاسلام البنوك ! اما بنوك اليوم فأنها اوتاد الراسمالية ولا يعرفها الاسلام ابدا ..!

ب – **المكاسب الحمراء:**

وكذلك للاسلام فلسفة عامة: تعتبر الحد الفاصل بين المكاسب الفاجرة، والمتاجر الشرعية المباحة، هي: ان الاجزاء بلا عمل ولا جزاء على الحرام والواجب .. وعلى طبق هذا النظام نرسم ثلاثة نقاط ، مع محاولة التبسيط والاختزال !

الجزاء بلا عمل

الغش:

يؤكد الاسلام في تحريمه ... ويفاتح الطريق الى انتزاعه عن المجتمع والغائه عن الاسواق، بجمل تؤلم العواطف والنفوس: (من غش الناس فليس بمسلم!)، «من غش فليس منا».

«..من غش غُش في ماله» «من غش نزع بركة رزقه، وضيق على معيشته، ووكله الله الى نفسه..».

والغش من عوامل الراسمالية: الذي يمتص دماء الالوف من الشعب، دون ان يعمل شيئا، او يضحي بشيء من قواه، انما سلعته الدهاء والخداع، ينشر فخاخه والناس يتسابقون اليها، باقدام لاهثة متعطشة، ثم الغش يصيب النفوس، اكثر مما يضر بالمال، فمن غش يمقت الغاش! ولا تنسيه السنين... وهو مما ينم عن قذارة النفس، ودنائة الفطرة، ويبعث على التباغض، فالتشاجر، فالتناحر على اللاشيء، وذلك مما يحاربه الاسلام بمجموعة رسالته، في صمود وانطلاق!.. وليس الغش باكثر من سرقة نظامية .. بيد انه اعمق جرحا، واسوء اثرا ..

السرقة:

التى هى اهم ما يكف الانسان عن العمل..! فالرجل ما لم يؤمن بان مجهوده سيحفظ له لا يجد من نفسه رغبة ساحقة، على المثابرة والتجلد في سبيل الانتاج! لذلك يحرص الاسلام على حماية الحقوق بقسوة عادلة.. فيقطع يد السارق، عبرة للاخرين، واستنكار الثمرة على جهود الكادحين وكان في وسع السارق: ان يجتهد ويعمل ليحصل على نفس الانتاج من الطرق المشروعة النظامية!

وفي السرقة اهدار للكرامات والدماء: فالسارق الذي يتسلق الجدران – في

سدف الظلام – لينهب مصفى اعمال السنين القاسية، لا يجد من نفسه حرجا في ان ينعطف على اعراض الناس . مهما ارخى له الموقف – وصاحب الدار سوف لا يقف مكتوف الايدي تجاه اعتدائاته القذرة .. ولا ينكشف النضال الا عن سابح في الدماء !!

فالافضل ان يمنع الاسلام عن السرقة، ولو بقطع الايدي ...ويسرني: ان اسجل هاته النكتةالتاريخية : ان الاسلام منع من السرقة، ولم يقطع الا ست ايدي – في زمان طويل – .

٢ـالجزاء على الحرام:

فكرة الحرام:

لم يحرم الاسلام شيئا من منابع الرزق الا واضراره الاجتماعية، تربو على منفعته الفردية .. وبمقتضى العدالة الاجتماعية، والتوازن الدقيق بين المفاسد والمنافع حرم الاتجار به..!

والاسلام لم يكن يوما من الطواغيت الجافة: التى لا تؤمن الا بأتجاهاتها وتسحق كل ما سواها...

فهو يعترف بها في المحرمات من لهو واغراء ! ولكن عندما يقايسها بفجورها الفائض يحكم: بتحريمها. وهو واثق من عدالة حكمه ...

ويضع القرآن نفس الحجة امام الناس، ليطيعوه رغبة وطواعية (يسئلونك عن الخمر والميسر .!قل فيهما اثم كبير .! ومنافع للناس وأثمهما اكبر من نفعهما!).

الاكتساب بالحرام:

بهذه الحكمة الرائعة، حرم الاتجار بكل عمل محرم: يضربه غيره او يجلب تدهورا خلقيا او ماديا للمجتمع.

وبموجب هذا النظام يحرم: امتهان الخمر وسائر المسكرات . وتعاطى القمار والميسر. واوراق اليانصيب والبغاء والرقص والغناء والسحر وبيع كتب الضلال والوحوش والحشرات والميتة والدم ولحم الخنزير والعذرة واجهزة الغناء وآلات القمار والمجسمات وحلق اللحى وكل محرم في الشريعة الاسلامية.

٣ـ الجزاء على الفرائض:

لا تعلق الواجبات:

لا يفرض الاسلام شيئا على المجتمع، ما لم تكن فيه مصلحة ملحة وهو يحاول عتق الرقاب من الالزامات والفرائض، اما وحيث علم ان هنالك اشياء لا بد منها في تنظيم الاجتماع واسعاد الناس فلا بد من ايجابها والعقوبة على تركها .. ولا بد من الاتيان بها طوعا: من دون اكراه واجور... ولا يغرق الاسلام في الاحلام . ولا يعلق الواجبات على النيات الخيرة، والنزعات الدينية!!

فمن يضمن للاسلام ان يوجد دائما وفي كل مكان من يدفعون الاجرة ويستأجرون الناس للقيام بالضرورات: التى لولاها يضطرب النظام؟ وهكذا يحرم الجزاء على الفرائض!

سواء أكانت من الواجبات العينية التى تجب على كل فرد فرد ، باصل الشريعة الاسلامية، من امثال : الصلوة، الصيام، الحج... ام من الواجبات

الكفائية: التى تسقط عن الجميع بقيام الفرد بها: كغسل الميت، وكفنه، ودفنه، ... ومنها:

الرشوة

فانها اجرة على بيان الحكم الواقعى للقاضى .! وتلك محرمة يعاقب عليها الاسلام .. فالقاضى ياخذ على وظيفته – من الرواتب المعينة او غير المعينة – ما يكفيه!

فليس له فوق ذلك الطمع، في مال الناس لبيان حكم الله الواقعي!!

هذا اذا كانت الرشوة في اجراء اصل الاحكام الواقعية! اما اذا اخذها الحاكم على الحكم بالباطل، فذلك كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله «**الراشي والمرتشى كلاهما في النار**».. وينتهى المقام بامير المؤمنين عليه السلام الى حيث يقول: «... **وان اخذ هدية كان غلواً، وان اخذ رشوة فهو شرك**».

اما الرشوة التى تعطيها الافراد كل موضع قدم، على الاجازة والتوقيع والموافقة، فهي اكبر ذنبا واشد عقوبة ..

الاحتكار:

هو من عناصر الرأسمالية الفاجرة ... ويحاربه الاسلام منذ البداية حتى النهاية..! واذا كان الناس عباد الله، ومنافع الارض مسخرة لهم، فما بال المحتكر يوصد ابواب الرزق في وجوههم، ويكلفهم العنت والشقاء، كالاسد العبوس! تتلاطم خلفه البحار، وامامه الفيافي الظامئة، ترفع الشكاوى الى الله!.

ولقد كانت غضبة الاسلام على المحتكر عاصفة: لا تسمح له بالغفران حتى

قال النبىﷺ : «**ايما اشترى طعاما فحبسه اربعين صباحا، يريد به الغلاء للمسلمين. ثم باعه، وتصدق بثمنه، لم يكن كفارة لما صنع**»!

ولقد قال الامام الصادقعليه السلام : «**الحكرة في الخصب اربعون يوما،وفي الغلاء والشدة ثلاثة ايام ... فما زاد على الاربعين يوما في الخصب، فصاحبه ملعون ..! وما زاد في العشرة على ثلاثة ايام فملعون**»..!.

وعن النبىﷺ عن جبرئيل قال: «**اطلعت على الناس فرأيت واديا في جهنم يغلى، فقلت: يا مالك لمن هذا؟ قال: لثلاثة: المحتكرين والمدمنين للخمر، والقوادين**»!

هذا هو المحتكر: الذي يقفل الموارد العامة، ليسلط على الفقراء قسوته الخشناء، ويسعر لهم تسعيرا جائرا: لا يعرف المروءة والضمير! وكان بعض المحتكرين – في الحرب العالمية الثانية – يغرقون السكر في البحر ويدفنون اطنان القند تحت التراب، او يحرقون القمح والشعير ... ليضخموا بذلك اموال الحرام..! عندما الناس كانوا يشربون الشاي مع التمر، ويتنازعون الخبز !! ولقد قرر الاسلام اكراه المحتكرين، على تعريض البضائع للبيع بالاثمان العادلة المرفهة!

وفي كتاب امير المؤمنينعليه السلام الى مالك الاشتر – واليه على مصر - : «**فامنع من الاحتكار ! فان رسول الله**ﷺ **منع منه. وليكن البيع بيعا سمحا – في موازين عدل -: لا يجحف بالفريقين: البايع والمبتاع ! فمن قارف حكرة بعد نهيك اياه، فنكل به، وعاقب في غير اسراف**»!!.

وذهب بعض الفقهاء الى التسعير الاجباري على المحتكرين، متى اسرفوا في الثمن !

الامتيازات:

ومن نوع الاحتكار البغيض، الامتيازات السائدة : التى يتوليها بعض التجار او الدول .! فلا حق لغيرهم: ان يشتري تلك السلعة من منابعها... ولا ان يشتري احد من سواهم ! فيشترون الخامات من المنتجين باثمان زهيدة ! ويبيعونها الى المستهلكين باسعار غالية ! ويتحتم على السلطات الحاكمة ان تحافظ هاته الحقوق المختلفة ..

من هنا تنشأ ثلاث مشاكل: فسدت الارض وما عليها، الفقر في جميع الطبقات الرأسمالية . الاستعمار ..

١- اما الفقر.. فلأن المنتجين لتلك السلع لا بد لهم وان يبيعوها من صاحب الامتياز، بثمن بخس ضئيل: لا تسد حاجاتهم الاساسية..! والمستهلكون لا محيص لهم من شرائها من صاحب الامتياز فقط – دون المنتجين – باي ثمن يقدره لها..! وسائر التجار لا حق لهم في معاطاة هذه الموارد: التى هى عمدة الانتاج والاستهلاك . الا باجازة موقته من صاحب الامتياز، وتلك الاجازة تكلف اكثر من الربح .. وكذلك يخشى الفقر في الطبقات الثلاث : المنتجين ، المستهلكين ، التجار، وهم عامة الناس، فشاع الفقر!.

٢- واما الرأسمالية ... فلأن اصحاب الامتياز، يكرسون حياة الناس في ثروتهم الفاجرة ويمتصون دماء الشعوب للتوفير على خزائنهم الموقرة بالفضة والنضار! وتلك هي الرأسمالية الشائنة : التي يرزح تحت كابوسها

العالم المتحضر في قرن العشرين.

٣- واما الاستعمار .. فلأن المستهلكين لا يستطيعون من استهلاك مجموع الانتاج، مادامت الاسعار رفيعة: لا ينالها الجميع الا بقناعة مقترة ! فتبقى الشركات متخمة الخزائن ، والمعامل تخب في الفائض ولا نجد لها مصرفا !! فلا بد لاصحاب الشركات من ان تطلب لها مصارف، في غير بلدانها وتبحث عن اسواق جديدة : ترغب في بضائعها . فيكون التنافس على الاسواق ..وحيث ان اصحاب الامتيازات عملوا في سبيل ارتفاع الاسعار، لا لاجل اسفافها . فهم لا يرضون بالتجارة الحرة والتناقص فالدول الكبيرة تحاول: ان تحتكر الدول الصغيرة، لتستورد الحاجات منها لا من غيرها .. ويكون بعد ذلك من التناطح على الاستغلال، الحروب الباردة ما تنتهي باطلاق الصواريخ، وانتشار القنابل، فالقضاء على البشر المسكين .. وذلك هو الاستعمار...! هذا هو الاحتكار .! وهذه نتائجه الثلاث : الفقر، الرأسمالية، الاستعمار...! فلا غرو اذا رأينا الاسلام يندد بالمحتكرين، تنديداً قاصفا، وتعصف بهم غضباته النكراء، فلا تبقى ولا تذر.. ويصرخ النبيﷺ في وجوههم «**من احتكر طعاما اربعين يوما فقد برئ من الله وبرئ الله منه**»!

من دخل في شيء من اسعار المسلمين كان حقا على الله: ان يقعده بعظم من النار يوم القيامة وليس من حكمة الاسلام ان يكتفى بالالفاظ والوعود، ثم يسبح في الاحلام وديع البال، دون ان ينزل في الميدان، ليعالج المشاكل عمليا ولهذا يضع – بعد ذلك كله – قانون :

الملكية العامة:

وهـى : ان الاسـلام لا يـدع التجـار يسـتأثرون بخـيرات الارض ويحتكـرون منابع الثروة العامة، وخلفهـم الشـعب يقـاسى الالم والحرمـان بـل المـوارد العامـة جميعها ملك مشاع للجميع.. وقد قال النبىﷺ: «**المسلمون شركـاء في ثـلاث: في الماء. والكلاء. والنار**». وفي خبر «**الماء والملح والنار**» ومن اختلاف الخبرين في تعداد المواد المشاعة نكشف ان النبىﷺ لم يختصر شركة العامة، في تلك الثلاثة او الاربعة! وانما كانت تلك موارد كلام النبىﷺ لانهـا فقـط كانـت الحاجـات الرئيسية، للبيئة العربية: التى ترعرع فيهـا الاسـلام..! كـما يـدلنا عـلى ذلـك ذكـر (المسلمين) فقط في الحديث مع ان الناس جميعا شركاء في هذه الثلاثة، او الاربعة بـدليل: ان النبـىﷺ نفسـه، وامـير المـؤمنينعليه السلام، اباحـا المـاء – وقـد كـان في حوزتهما لجيوش المخالفين... فتلك حجة اشتراك النـاس في الحاجـات العامـة... حتى ولو كان النبىﷺ اليوم لضم اليهـا: خـيرات البحـار والغابـات. والجبـال والفضاء. والكهرباء. والنفط. والغاز ...

الحمى:

وبموجب هذا النظـام حـرم الاسـلام الحمـى! واصـل الحمـى: ان العـرب اذا نزلوا منزلا مخصبا، ارسـل رئيسـهم كلبـا عـلى ربـوة مـن الارض، واستعواه فـالى حيث يخمد صوته فهو حمـاه: لا يرعـى فيـه غـيره، وهـو يرعـى في مرائـع القـوم!! وجاء الاسلام فاكتسحه فيما اكتسحه، من تقاليد الفراعنـة، وسـنن الطواغيـت، وقال: «**لا حمى الا لله ولرسوله..**».

فحمـى رسـول اللهﷺ (النقيـع): – مـروج عـلى بعـد عشريـن فرسـخا مـن

المدينة للخيل خيل المسلمين..!

ولقد كان هذا الناموس مقدسا،حتى ارتمى عثمان على فيصلة الحكم فحمى لنفسه دون ابل الصدقة، كما في (انساب) البلاذر: ٣٧\٥ . و (السيرة الحلبية): ٨٧\٢ .. والحكم بن ابي العاص ! كما في رواية الواقدي ..! ولبنى امية كلهم ! كما في شرح (ابن ابي الحديد): ٦٧\١ حتى نقمت عليه هذه الفلته .! وقالت عائشة : انا عتبنا عليه ... وموضع الغمامة المحمات ! ..هذا هو الاسلام ... وهذ دساتيره ... يمنع من اكل اموال الناس بالباطل.. ومن الجدير بنا ان لا نغفل : ان الرأسمالية لا تنشأ الا في هذه المراحل السالفة.

برامج العمل

والاسلام يجري على فكرته السابقة، في تحقيق مناهج الاكتساب فالمال انما هو لله.. ثم للجماعة بواسطة الافراد ومصلحة الفرد محفوظة في نطاق مصلحة الاجتماع!

اما اذا اختل صالح الفرد بواسطة الجنون او السفه او الافلاس- وهو ان يكون ديونه اكثر من نقوده — فليس له التصرف في امواله، ولكن الحاكم ينصب له وليا يقوم بمصالحه!

فالملكية ليست ناشئة عن طبائع الاشياء! وانما تثبت باذن من الشارع، من اسباب معينة يجمعها : العمل الحلال .! ويفصلها:

١ -الصيد:

سواء كان صيد البر والفضاء، من الحيوان والطير ... ام صيد البحر والنهر .. من اللآليء والمرجان والاسفنج ... كما يقرره القرآن الحكيم:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً﴾.[(١)]

﴿...وَإِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا...﴾ [(٢)] . **﴿يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا**

---

(١) المائدة: ٩٦.

(٢) المائدة: ٢.

أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ﴾! (١)

والصيد هو الوسيلة البدائية في حياة البشر.. ولكنها لا تزال من الموارد الضخمة للدول والافراد!

٢-احياء الموات:

من القفار التى لم يسبق اليها مالك... او سبق ثم اعرض... حتى صارت مواتا، لقول النبى الاكبر صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**عادي الارض لله ولرسوله،ثم لكم من بعد... فمن احيا ارضا ميتة فهى له..! وليس لمحتجر حق ابد ثلاث سنوات**». «**من سبق الى مالم يسبق اليه مسلم فهو احق به**».

اما القانون الفرنسى الذي يقرر (ان من وضع يده على الموات لمدة خمسة عشرة سنة تصبح الارض ملكا له، سواء احياها ام تركها مواتا...) فهو مخالف لحكمة احياء الموات، لان في وسع تجار النفوس: ان يضعوا اصابعهم على جميع الاراضي.. ويبقى الفقير يطالب شبرا من الارض لموضع قبره، ولا يجده!

٣-استخراج المعادن والركاز:

من بطون الار ض والاودية، والآجام... ولا فرق بين ان يكون من الموارد العامة: كالبترول الحديد النيكل. الفحم. الزجاج. البلور. الذهب. الفضة. الرصاص الفافون الصفر الكبريت او كان من غير الحاجات العامة: من المعادن القليلة: كتلة من الذهب الفضة الدر الياقوت الزبرجد الفيروزج الالماس.. وكل ما يستخرج من طبقات الارض في الحفريات..

---

(١) المائدة: ٤.

ويلحق بهذا كل ما يخرج من الماء : الاملاح الماء الثقيل ... او يتصيد من الهواء الاوكسجين الايدروجين الغازات الخانقة والباكية ... او تجلب من الشمس : الطاقة الذرية الضياء التي تشربها الاحجار الكريمة والمواشير.

٤-المضاربة:

هى: ان يشترك اثنان في تجارة .. ويكون من احدهما المال، ومن الاخر اليد ..ثم ليوزع الربح بينهما على حسب ما يتراضيان عليه، وتوحيه الظروف القائمة انذاك .. كالثلث، او النصف او الثلثان او ازيد او اقل وقد حرض الاسلام على هذا النوع من الشركة – تشغيلا للاموال الجامدة والايدي العاطلة – واكد على محافظة الامانة، والرفق واللين، وتجنب الخيانة. فقال النبى الاعظم صلى الله عليه وآله : «**يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا**».

(يقول الله تعالى: انا ثالث الشريكين ما لم يخن احدهما صاحبه .! فان خان احدهما صاحبه خرجت من بينهما).

٥-الزراعة والمساقات:

هى: ان يستأجر صاحب البستان او المزرعة عاملا، يقوم بجميع الخدمات اللازمة للزرع او الشجر ويدفع المالك : البذر والبقر وسائر الحاجات ... ثم يكون الثمر او الحصيل مشاعا بينهما ... على حسب ما اتفقا عليه : ربعا. ثلثا . نصفا ..!

٦-العمل باجر:

ومن المرابح الشرعية : ان يعمل الانسان لغير – العمل الحلال – ويستقضى بذلك اجرة معينة ... ولا فرق في ذلك بين الوظائف المستمرة : كعمال المصانع والمطابع والمناجم .. والمتقطعة: كالاستخدامات اليومية الموقفة ..! ويشترط في

صحة الاجارة – ان تكون مدة العمل ومقدار الانتاج . والاجرة معلومة من ابتداء التباني ...

وهنا يتقدم الاسلام – لمنع الخصام بين الاجير والمستأجر – فيضع نقطتين:

١ – ان يوفر العامل لنشاطه ، ويستفرغ جهوده مدة العمل، بدقة واتقان، وليسبق فرصة العمل، وينتهي بعد انتهائها..وبدأب في برنامجه المرسوم دون تله بالمهازل والمغريات،والقصص والاساطير او ابداء الكسل والضجر ... وذلك ما يكرهه الاسلام، ويعد عليه الفقر والذلة – في الدنيا والاخرة – يقول الامام الباقرعليه السلام : «**اني اكره للرجل ان يكون كسلانا عن امر دنياه .ومن كسل عن امر دنياه فهو عن امر اخرته اكسل**». ولقد قال امير المؤمنينعليه السلام : «**ان الاشياء لما ازدوجت ازدوج الكسل والعجز، فنتجا بينهما الفقر...**».

ب – الاهتمام بشأن الاجير فلا تضيع اجرته! يقول النبي العادلصلى الله عليه وآله : «**قال الله عز وجل: ثلاثة انا خصمهم يوم القيامة... ورجل استأجر اجيرا، فاستوفى منه ولم يعطه اجره**». ولا يكتفى الاسلام باداء الاجر كاملا، حتى يأمر بادائه عاجلا، ويسارع في التعجيل، حتى يقول نبي الحياة: «**اعطوا الاجير حقه قبل ان يجف عرقه**» فالاجير محتاج الى المال ومحتاج الى تقدير عمله.. وفي حصول الاجرة قبل ان يجف عرقه شعور بتقديس العامل، وحرص على كرامته.

والاسلام بتلك التعاليم الانسانية، استنفد طاقات العمال برغبة نادرة مع المحافظة الكاملة على حقوق الكادحين وارباب العمل.

٧ – الهدايا والهبات:

التي يتعاطاها الافراد.. دون عوض من جهد او مال..! وذلك ان الاسلام احب بـ (انتظام التكافل الاجتماعي): ان يسد الترحة بين الطبقات... فحبب الى المسلمين: ان ينفقوا فضل اموالهم، وان لم يكن بالجانب الاخر فقر واملاق.. وفي ذلك يقول الامام الصادقعليه السلام: «**لا يكمل ايمان العبد حتى يكون فيه اربع خصال... ويخرج الفضل من ماله**» وهذا ليس من الزكوة ولا من سائر الحقوق الشرعية، انه كما يقول ابو عبد اللهعليه السلام: «...ولكن الله عز وجل فرض في اموال الاغنياء حقوقا غير الزكاة..! فقال عز وجل: والذين في اموالهم حق معلوم فالحق المعلوم غير الزكاة.. وهو شيء يفرضه الرجل على نفسه، في ماله يجب عليه ان يفرضه بقدر طاقته، وسعة ماله فيؤدي الذي فرض على نفسه! ان شاء في كل يوم، وانشاء في كل جمعة، وانشاء في كل شهر ...).

وقد سئل الصادقعليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿**والذين في اموالهم حق معلوم ...**﴾ اهو سوى الزكاة..؟

فقالعليه السلام: «**هو الرجل يؤتيه الله الثروة من المال، فيخرج منه الالف والالفين والثلاثة الاف، والاقل والاكثر، فيصل به رحمه، ويحمل به الكل عن قومه..**» وعن رسول اللهصلى الله عليه وآله قال:

«**ومن منع الماعون من جاره اذا احتاج اليه، منعه الله فضله يوم القيامة، ووكله الى نفسه، ومن وكله الله الى نفسه هلك، ولا يقبل الله له عذراً**»...

ولا يعتبر الاسلام: ان تكون من افضل ما تتزين به الاسواق.. حتى يكف الناس عنها بحجة. انهم لا يجدون الافضل! فتنقطع هاته الصلة بينهم. ولكن ينص على: ان الهبة مهما كانت بخسة ضئيلة، فهى عند الله مقدرة – اليس المقصود منها التكافل والتحابب؟؟ – ويبالغ النبىﷺ في ذلك حتى يقول: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**» فحتى هذا هدية تعصم من النار!

هذه... هي موارد الرزق : الاولية البدائية.. والطبقات: التي تتبادل هاته الاعمال، هى التى تستخرج الشعب، والشعب كله عالة عليها اما حقاً او باطلا...

وبعد ذلك يأتي دور التجارات. وقطائع السلطان وغنائم الحروب والصدقات والحقوق الشرعية والارث... ونغفل الان الثلاثة الاول لخروجها عن نطاق البحث... ونستغني عنها بالثلاثة الاخيرة .. فاما

٥ –الصدقات:

مهمة الصدقات:

يجعلها الإسلام كرصيد للفقراء ، والحالات الشاذة، والحوائج الوقتية الملحة التي ليس على ولي الامر معالجتها..!، وفيما اذا كانت الدولة الاسلامية مضطربة: لا تستطيع من الثروات: توزيعاً دقيقا لا يشذ عنه احد.

اولم تشمل الزكاة جميع الفقراء للجدب والمحل.. فهناك الصدقات تقوم بمهمة مقدسة: هى امداد حياة المتبتلين، واسعاف المرضى والمستضعفين حتى تنصرم الازمات، ويسود الامن والرخاء...

غضبة وتشكر:

لمثل هذه المحارج الصارمة، يطالب الاسلام بالصدقات كالواجب اما اذا استأثر المترفون، ولم يؤدوا الصدقات فيبعث الاسلام قوارعه اللاذعة ﴿**كَلاَّ بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلا تَحاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلاً لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا * كَلاَّ إِذا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى * يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي**﴾[(١)].

.. فكلمات النفي مع التأكيد. كلا.كلا تصور للانسان: من ينتفض غيضا، ويتميز زئيرا... والنبرات الغضوبة القوية، والمقاطع المشددة لما. جما... والالفاظ الرهيبة المتكررة: دكت. دكا دكا. صفا، صفا، تبرز عتاب الاسلام القاسي على المترفين– بجانب الايتام والمساكين– وتصور: كان من احتدم غيضا، جعل يزمجر وتصطك اسنانه فتقطع الكلمات، او كانها انطلاقات الرصاص والمدافع، يتلو بعضها بعضا. وفي نفس الموقف – وبذلك الوزن والقافية والنبرات–﴿**أَ رَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ* وَيَمْنَعُونَ الْماعُونَ**﴾[(٢)].

---

(١) الفجر: ١٧–٢٤.

(٢) الماعون: ١–٧.

ويقول النبى العظيمﷺ : «... **فما آمن بي من بات شبعان وجاره المسلم جائع**».

هذه من مشاهد المسرفين: الذين لم يرحموا الفقراء ولم ينقذوهم من الكوارث، كله: جهنم. وكذب. وبراءة. ودك. وتأسف. ودع.. اما من رحم .. فسوف ننظر اليهم في القران: ﴿**إِنَّ الأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْس كانَ مِزاجُها كافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بها عِبادُ الله يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً * يُوفُونَ بالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً* إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً**﴾[1]: كلمة: ابرار. وشراب. وكأس ومزاج. وكافور. وعباد الله. ووفاء وحب ووجه الله...

هكذا الاسلام يغضب لمظاهر الجوع والحرمان ويشكر الراحمين المقيمين لحدود الله ...

حكمة الصدقات :

اما حكمة الصدقات في غير المواقف الحرجة:

١ - ان الفقراء بطبيعتهم حاقدون على الاغنياء، حيث يرون المال الوفير بين ايديهم .. وهم في شظف وتقشف : ليس لهم ما يتقوتون به من الخبز الرخيص .. وتلك عقدة تشتعل وتلتمس منفذا لتنفجر، ولا تخمدها مياه البحار .. وقد صدق (ابوذر) حيث قال: عجبت للفقراء كيف لا يخرجون بسيوفهم على الاغنياء.. !؟- وفي نظر الفقراء إن الأغنياء مجرمون،

---

(١) الإنسان: ٥-٩.

وأموالهم من الحرام ! – وان كان اموالهم من الحلال – والفقير يطلب الخبز ! ولا يعرف المنطق والدليل ، بل ولا يعرف الله ، في بعض الاوقات، كما قال امير المؤمنين عليه السلام : «**ما دخل الفقير بلدا الا قال له الكفر خذني معك**». «**... من ابتلى بالفقر فقد ابتلى باربع خصال. والرقة في دينه، وقلة الحياة في وجهه**» وقال النبى صلى الله عليه وآله : «**كاد الفقر ان يكون كفرا**» ولكن الصدقات وحدها هى التى تخمد ثورة الفقراء ...فالدينار الواحد يكتسح غيظ الفقير الى اجل غير معلوم ويجعل بين الغنى والفقير نوعا من الالفة والوداد .. بعدما كان الفقير يتربص بالغنى الدوائر .

٢- تقريب مستوى معيشة الفقراء والأغنياء ، والحرص على التوازن الاجتماعي بقدر الإمكان. ! فالحقوق الشرعية لا تجعل الفقراء في منازل الاغنياء ! وان كانت تنتشلهم من الجوع والالم والموت .. ولكن الصدقات تقرب الطبقات .. فاذا جلس الفقير على مائدة الغني، يشعر بنوع من المساواة، واذا لبس من لباسه بين الحين والحين، ونال من نقوده: التى لم يرها من قبل، فان المساواة الى حد ما قد حصلت !

فان الصدقات– في عرف الاسلام – ليست كما يتعاطاها البعض ويتصوره الاخرون.. فكلما سمعوا بالصدقة احضروا في خيالهم : صورة يد عليا هى المعطية، ويد سفلى هى السائلة.. ووجه الفقير في هالة من العرق والحياء، ووجه الغني يعلوه الشموخ والكبرياء!

وبالعكس من ذلك ، فالاسلام يحب صدقة السر. وصدقة الليل وان ياخذ الغني الصدقة بانامله، ويجعل كفه تحت يد الفقير، حتى تكون يد الفقير هي

العليا ويد الغنى هى السفلى .. ثم يعطى الاموال الضخمة وقد تصدق ابو عبدالله عليه السلام باربعين دينارا ، ولم يكن عنده سواه، واخرج الامام الرضا يده من اعلى الباب، واعطى ابن السبيل مائتى دينار فسئل عن ذلك، فقال: «**مخافة ان ارى ذل السؤال في وجهه**»!. وكان يفرق جميع امواله – في خراسان – كل يوم عرفة ... والمثل العليا لنا في الاسلام من هذا النوع كثيرة، نرجئها لفرصة اخرى.

٣ – ارتفاع نفسية الغنى، او شعوره بانه قوة فعالة في حفظ امان المجتمع.

يقول علم النفس: ان اساس الصحة العقلية في اشتراك الانسان في النشاط الاجتماعي، وشعوره بانه يؤدي نفعا لمجتمعه، ويبني له الاسس الصالحة في سبيل انقاذه من براثن الفقر، والذلة والسقوط .

٤ – ان الصدقات التطوعية تجعل الانسان يتحلل من عبادة المال وسيطرته الغاشمة التي تؤدي بالانسان الى الانتحار حينا، والى المرض احيانا .

٥ – ما في الصدقات من الاثار الخارجية : من دفع الفقر، والمرض والمو ت ...

كما في الخبز: «**اذا املقتم فتاجروا بالصدقة**». «**داووا مرضاكم بالصدقة**» «**ان الصدقة بالليل تدفع ميتة السوء، وتدفع سبعين نوعا من البلاء**».

«**ان الصدقة تطفى غضب الرب**». «**ان الله .. ليدفع بالصدقة الداء . والوبيلة والحرق والغرق والهدم والجنون**»،«**باكروا بالصدقة ! فان البلاء لا يتخطاها**».

«يستحب للمريض: **ان يعطي السائل بيده، ويأمره ان يدعو له**».

منابع ثروة بيت المال:

موارد بيت مال المسلمين ستة : الزكاة، الخمس.، الجزية الانفال، الخراج، المقاسمة.

الزكاة

صلاة وزكاة:

الزكـاة أولى ضرائـب الإسـلام ، والـركن البـارز في المجـالات الاقتصـادية، وليسـت ضريبـة نظاميـة فحسـب ، بـل إنهـا عبـادة وضريبـة – في وقـت واحـد – اليست ركنا عباديا من الاركان العشرة للاسلام. ؟ وكلما ورد الامر بالصـلاة – في القـرآن – اتبعتهـا الزكـاة؟ (اقيمـوا الصـلاة واتـوا الزكـاة) (و مـا امـروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ذلك هو الدين القيم !) . (قد افلـح المؤمنـون : الـذين هـم في صـلاتهم خاشـعون – والـذين هـم عـن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون .!!)

ويرتفع النبى (ص) في قيمة الزكاة العبادية حتى يقول: (زكوا اموالكم تقبـل صلاتكم)

فالزكاة في آن واحد طهارة للنفس، ونماء للمال ، ولذلك سميت بـ (الزكـاة) التي هي الطهارة والنماء.

حدود الزكاة:

والزكاة فكرة كريمة سبق إليها الإسلام، فهو:

أولا: يجبيهـا مـن الأمـوال المتضـخمة ، أو الجامـدة ، ويعفـى النقـود السـائلة والفقراء . وليست كالضرائب الدولية التي تتحمل منها الفقراء أكثر من الأغنياء أو كلاهما على حد سواء .

وثانيا: يعتبرها الإسلام حقا لا صدقة ، فليس فيها ما يخدش كرامة الفقير ، أو يلثم عزته .

وثالثا: يجبيها الإسلام بنفسه ، ثم يعيد توزيعها على المرافق المرسومة لها ، ولا يدع الفقراء يستقضونها من الأغنياء ، لتحول تفضلا وإحسانا من المعطين، وخسّة ودناءة من الآخذين !!

موارد الزكاة:

تفرض الزكاة على تسعة اشياء ، هى منابع الثروة الاولية في الحياة: الذهب الفضة القمح الشعير التمر الزبيب الابل البقر الغنم .. ويعتبر في جميعها بلوغ النصاب ، حتى لو كانت اقل منه فهي معفوة من الزكاة ..

اما الذهب فنصابه الاول ١٥ مثقالا صير فياً . والفضة نصابها الاول ١٠٥ مثاقيل صيرفية وليس في الزينة زكاة . ! ونصاب الغلات الاربع ثمان وزنات وخمس حقق ونصف تقريبا .. وكذلك النصاب الاول في الابل ٥ . وفي البقر ٣٠ وفي الغنم ٤٠ .

وتستحب الزكاة في مال التجارة! وحاصل العقار المتخذ للنماء وكلما يكال او يوزن مما تنبته الارض ...

من ذلك يظهر – بوضوح – ان الاسلام لا يعمل في سبيل جباية الاموال، وانما يحاول تحطيم الرأسمالية، ومكافحة الفقر فحسب..!

مقدار الزكاة:

ليست الزكاة كالضـرائب القانونيـة: التـى تختلـف عـلى حسـب فهـم الحكـام واهوائهم الطائشـة، ولكنهـا حـق معلـوم : يفـرض بسـبب اخـتلاف مواردهـا .. وتتراوح بين اثنين ونصف بالمائة وعشرة بالمائة.

مصارف الزكاة:

يعـدها القـرآن بقولـه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.(١)

أ- الفقراء: الذين لا يملكون قوت سنتهم بالفعل، وليست لديهم حرفـة تـنهض بواجباتهم في الحياة... فالاسلام يكمل من الزكاة حاجاتهم الاصلية!

ب – المساكين.. وهم المرضى والشيوخ الناقهون، والاطفـال : الـذين لم يرشـدوا مـن بعـد، ولا يجـدون حيلـة ولا يكفلهـم وال، حتـى لـو تـركهم وحـالتهم المرثية، لألتجئوا الى السؤال.. او قضى عليهم الفقر والمرض.!

ج – العاملين على الزكاة من المؤمنين: الذين يضحون باوقاتهم وامـوالهم، سـعيا وراء الزكاة... فهم يقتضون رواتبهم تبعاً لوظائفهم المقررة!

د – المؤلفة قلوبهم .. من الكفار: الذين هم حديثو عهد بالاسلام، ولم يسـتوعبوا مبادئه الروحية، وافكاره السامية ... والمادية الجامحة تسيطر على مشـاعرهم .. فان اعطوا منها رضوا، وان لم يعطوا منها اذاهم يسخطون .!

---

(١) التوبة: ٦٠.

هـ - في الرقاب .. من الرقيق المسلم : الذي يبادر الاسلام الى فك اسارة .

و – الغارمين : الذين استغرقت الديون ثرواتهم، وفاضت تطغى على رقابهم... ولم ياخذوا الديون لينفقوها تبذيرا او فجورا ولا يجدون الان متجرا يستثيرونها على سداد ديونهم، لشلل في الاعصاب او التفكير.. فيسارع الاسلام الى فك رقابهم.. حرصا على اموال الدائن وكرامة المديون!

ز - في سبيل الله.. من بناء المدارس، والمصحات، والمستشفيات، والثكنات،والجسور... وسائر المصالح العامة، مما تتحقق به شتى الخدمات الاجتماعية، حسب ما يراه الامام وفق نداءات الظروف والبيئات.

ح – ابن السبيل.. المنقطع عن ماله واهله ... كالمهاجرين من الحروب، والغارات، والاضطهاد .

ومتى فقد بعض هذه المصارف توفر حصتها على الباقي ومجموع هذه الابواب كافل بتمويل شتى مرافق العوز، وتأمين الضمان الاجتماعي الكافل.

الزكاة كفاية:

ثم ان في الزكاة – وحدها – كفاية لسد الحاجات الاساسية للمعوزين فان عوامل الفقر ليس الا المرض، والعجز لصغر او كبر، والسفر والدين الباهظ، فالفقراء الذين لا يملكون معالجة فقرهم الا بصب الاموال عليهم حتى يذوب عامل فقرهم، ليسوا الا اربعة : المرضى، العجزة، ابناء السبيل، الغارمون اما غير هؤلاء فمن الممكن مكافحة فقرهم بتوفير العمل لهم.

وأولئك الفقراء الذين لا يبرؤن من الفقر الا بصب الحياة في شرايينهم، حتى تبرؤا من المرض، او يكبروا، او يموتو، او يرجعوا الى اوطانهم، او يدفع الدين عنهم، لا يؤلفون الا اقلية ضئيلة، لا يكون منسوبهم الى مجموع المجتمع الا منسوبا ضعيفا، والكمية المحددة من الزكاة، في الاجناس المعينة من الاموال، نسبة كبيرة بالقياس الى عدد الفقراء، فيمكن اعالة الفقراء جميعا – لا بمجموع الزكاة – بل ب ٤ من ٨ من الزكاة ويبقى ٤ من ٨ من الزكاة لسد الحاجات العامة لذلك ورد عن الامام الصادقعليه السلام:

«... ان فرض للفقراء في مال الاغنياء ما يسعهم، ولو علم: ان ذلك لا يسعهم لزادهم».

وعنهعليه السلام: **«... ولو ان الناس ادوا زكاة اموالهم ما بقى مسلم فقيرا محتاجا، ولاستغنى بها فرضه الله له، وان الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا الا بذنوب الاغنياء...».**

فالزكاة – وحدها – تكفي لاعالة الفقراء، وتفيض عن حاجاتهم الاساسية، وعلى هذا الضوء تقرر الاية الكريمة مصارف اخرى للزكاة:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾(١).

---

(١) التوبة: ٦٠.

وقد صدق التاريخ ذلك، حيث كانوا يطوفون بالزكاة في الشوارع ولم يكن في المسلمين فقيرا يقبل الزكاة، فكانت تصب في بيت المال، للتوفير على المصالح العامة ...

وربما تلتهم الكوارث الشاذة جميع حصص الزكاة على اثر اصابات المسلمين بالزلازل والفيضانات ...

ولكنها حالات شاذة، وفي اكثر الاحيان لا يستطيع الفقراء ان يستهلكوا الا نسبة محدودة من الزكاة .

زكوات مسنونة:

ولكن الاسلام حيث يحرص على صيانة الفقراء ، من مختلف النوازل الفجائية، يقرر على الاموال الطاغية زكوات مستحبة: للاغنياء ان يدفعوها اولا يدفعوها، كي تكون ضمانا للحاجات الاحتياطية، والشعب- على كل حال- لا يخسر- هذه الزكوات لانها ان اتفقت والحالات المجدية، كانت خير سلاح لمحاربة الكوارث، وان رافقت حالات الرخاء ارصد مقابلها من الزكاة الواجبة للحاجات العامة . ونحن نقتصر من الزكوات المنسوبة على ما يأتي:

١- يستحب الزكاة فيما سوى الغلات الاربع(الحنطة، الشعير، التمر، الزبيب) من الحبوب كالسمسم، والارز، والدخن، والحمص، والعدس، ... فعن ابي عبد الله الصادقعليه السلام :

«الذرة، والعدس، والسلت، والحبوب، فيها مثل ما في الحنطة والشعير، وكل ما كيل بالصاع فبلغ الاوساق – التي تجب فيها الزكاة – فعليه الزكاة».

٢- يؤكد اخراج الزكاة عن مال التجارة، اذا اشترى متاعا فادخره بغية الفضل حتى دارت عليه السنة، فعندئذ يستحب لدفع زكاته، وذلك غير الخمس الملزم في مال التجارة عندما يحول الحول . فعن ابي الربيع الشامى عن ابي عبد الله عليه السلام : «**في رجل اشترى متاعا فكسد عليه متاعه – وقد كان زكى ماله قبل ان يشتري به – هل عليه زكاة؟ او حتى يبيعه؟** فقال عليه السلام : «**ان كان امسكه التماس الفضل على راس المال فعليه الزكاة**».

وعن الامام الصادق عليه السلام : «**ما كان من تجارة في يدك ، فيها فضل ، ليس يمنعك من بيعها الا لتزداد فضلا على فضلك، فزكه..**».

وبهذا المعنى روايات جمة .

٣- ويستحب اعطاء الزكاة عن الخيل الاناث السائمة طوال الحول، عن كل فرس عتيق دينارين، وعن كل برذون دينارا، كل عام اما في سائر الحيوانات المسخرة فلا يستحب الزكاة ... كل ذلك عدى الانعام الثلاثة : (الغنم، الابل، البقر) التي تجب فيها الزكاة.

صدقات شتى:

ولا ينسى الإسلام عواطف الفقراء ، فهى لا تختلف عن عواطف الأغنياء ، وربما كانت أشواق الفقراء أرهف وانبض من إحساسات الثري الكسول ، فكما إن الأغنياء يوفرون على أنفسهم وعلى أولادهم في الأعياد ، كذلك الإسلام يرفه عن الفقراء وأطفالهم في الأعياد ، ففى عيد الفطر يأمر بزكاة الفطرة تخرج إلى الفقراء ، وفي عيد الأضحى تكون القرابين نصيب الفقراء، وفي سائر الأيام

يتناولون من كفارات (إفطار الصوم) ، و(حنث النذر والعهد واليمين)، و (كفارات الحج) ،وغيرها ما يغيرون به سير حياتهم البطيء.

حق يوم الحساب:

وعندما ينهمك الزراع في الحصاد، والفلاحون في جز النخيل، يحضرهم الفقير والمسكين، لانهما يبصران بنعمة موفورة، خولها الله لبعض عباده، وآثره عليها، فيحضران ويتبسطان اكف السؤال، فمن حقهم على اصحاب الزرع والنخل ان يعطيهما الحفنة بعد الحفنة، من البيادر، والضغث بعد الضغث من التمر، حتى يفرغوا من الجز والحصاد.

فعن الامام الصادقعليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾[1]، قال: «**تعطي المساكين الذين يحضرونك تأخذ بيدك القبضة بعد القبضة حتى تفرغ**».

وعن الحلبى عن الامام الصادقعليه السلام قال سئلته عن قوله تعالى: **وآتو حقه يوم حصاده** ... قال: «**تقبض بيدك الضغث فتعطيه المسكين ثم المسكين حتى تفرغ، وعند الصرام الحفنة ثم الحفنة حتى يفرغ منه**».

ويشتد كراهة رد السائل الاول والثاني والثالث، بل يستحب اعطائهم، ثم الفقراء الذين يفدون بعد هؤلاء للانسان ان يمنحهم او يردهم، كما عن مصادف قال: كنت مع ابي عبد اللهعليه السلام في ارض له وهم يصرمون، فجاء سائل يسئل، فقلت يرزقك الله فقالعليه السلام: «**مه! ليس ذلك لكم حتى تعطوا ثلاثة، فاذا اعطيتم ثلاثة، فان اعطيتم فلكم وان امسكتم فلكم**».

---

(١) الأنعام: ١٤١.

ويكره الاسراف في الاعطاء عند الحصاد والجذاذ، بل يلزم التوازن في الاعطاء والامساك، فعن محمد بن مسلم عن ابي جعفرعليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قال عليه السلام: «**كان فلان بن فلان الانصاري ... كان له حرث وكان اذا جذه تصدق به، وبقى هو وعياله بغير شيء، فجعل الله ذلك سرفا**».

وحيث كان بعض الناس يحتالون للبخل على السائل، وعدم رده، بالحصاد ليلا، على حين غفوة من السؤال، حتى اذا جاؤا مبكرا وجدوا البيادر المعبئة، او آثار الحصاد المبيت سراً، ورد النهي عن ذلك كما عن ابي بصير عن الامام الصادق عليه السلام قال: «**لا تصرم بالليل ولا تحصد بالليل، ولا تضح بالليل ولا تبذر بالليل، فانك ان فعلت ذلك لم يأتك القانع والمعتر، فقلت ما القانع والمعتر؟ فقال: القانع الذي يقنع بما اعطيته، والمعتر الذي يمر بك ويسئلك، وان حصدت بالليل لم يأتك السؤال، وهي قول الله عز وجل : وآتو حقه يوم حصاده، يعنى القبضة بعد القبضة، اذا حصدته، فاذا خرج فالحفنة بعد الحفنة، وكذلك عند الصرام ، وكذلك البذر لا تبذر بالليل ، لانك تعطى في البذر كما تعطى في الحصاد**».

حق معلوم:

وهناك حقوق اخرى في الاموال عدى تلك، اكد الاسلام على استحبابها فلنستمع الى الامام الصادق عليه السلام وهو يفصلها ويرسم حدودها: «..**ولكن الله عز وجل فرض في أموال الأغنياء حقوقا غير الزكاة**، فقال عزوجل: ﴿والذين فِي

أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ فالحق المعلوم غيرالزكاة وهوشيء يفرضه الرجل على نفسه في ماله يجب عليه أن يفرضه على قدرطاقته وسعة ماله فيؤدي الذي فرض على نفسه إن شاءفي كل يوم،وإن شاءفي كل جمعة،وإن شاءفي كل شهروقد قال الله عزوجل ايضا ﴿**أَقْرَضُوا الله قَرْضاً حَسَناً**﴾ وهذا غيرالزكاة وقد قال الله عزوجل أيضا ﴿... **يُنْفِقُون مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً**﴾ والماعون أيضاوهوالقرض يقرضه والمتاع يعيره،والمعروف يصنعه،ومما فرض الله عزوجل أيضاً في المال من غيرالزكاة قوله عزوجل: ﴿**الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ الله بِهِ أَنْ يُوصَلَ**﴾، ومن أدى مافرض الله عليه فقد قضى ماعليه وأدى شكرماأنعم الله عليه في ماله... .فهذه الفرائض كلها تخرج من الاموال المتخمة المتضخمة، لتنتشر في المجتمع، فتنتشل المدقعين من المساقط الرهيبة، وتوثق الاواصر والوشائج بين الفقير والغنى، ويأخذ من حدة الصراع الدائب بينهما ولذلك كله لم يقرر الاسلام لها حدودا معينة، وانما فوض تحديدها الى اصحاب رؤوس الاموال لانها لم توضع لتسد فراغا ابديا في المجتمع، وانما قررت لسد الحاجات الاحتياطية، ولتخفيف التوتر والحروب الباردة، فربما يتطلب الوضع السائد المبالغة فيها، كما قد تستغني الحالة الراهنة الا عن القليل منها، فليس لها حدوداً الا ما تلهمها الاوضاع، وتناشدها الظروف والملابسات الخاصة كل يوم، حسب ما تقررها العوامل والدوافع الموجودة ...

هكذا نجد الشرع يؤكد على توجيه المجتمع نحو الفكرة ذاتها، وينص على عدم حدود مرسومة، وانما يكتفي بالاشعار عنها، لينبه على ان الاسلام يحبذ تبادل العلاقات الودية بين الافراد، كما نجد هذا الطابع باديا على لهجة الامام

زين العابدين عليه السلام فعن ابي جعفر عليه السلام: «إن رجلا جاء إلى علي بن الحسين عليه السلام فقال له: أخبرني عن قول الله عزوجل: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ ماهذاالحق؟

فقال له علي بن الحسين عليه السلام: الحق المعلوم الشيء يخرجه من ماله ليس من الزكاة ولامن الصدقة المفروضتين قال فإذا لم يكن من الزكاة ولامن الصدقة فما هو؟

فقال: هوالشيء يخرجه الرجل من ماله إن شاء أكثر وإن شاء أقل على قدر مايملك. فقال له الرجل: فما يصنع به؟ فقال عليه السلام: يصل به رحماً ويقري به ضيفاً و يقوي به ضعيفاً ويحمل به كلا ويصل به أخاً له في الله أولنائبة تنوبه...».

فالحق المعلوم في الاموال الفائضة يلزم ان يعزل جانباً لمكافحة الكوارث الفردية، وتأمين الحاجات المتوقعة، فهو يشبه ما يدخره الرجال الماليون اليوم في (شركات التأمين) و (صناديق الضمانات الاجتماعية) غير ان الاسلام بفكرته العميقة الواسعة في ردء الاخطاء والخطوب، ومعالجة المشاكل السوداء بكل بساطة وهدوء لا يقرر الصناديق والشركات كي تشغل شعباً، وتكون مشكلة وتبدد ثروة، وانما يفصل الحق المعلوم من ثروة الانسان، ويدخره عنده، ليسهل ادخاره واسترجاعه.

بين الزكاة والضرائب:

وهناك حقيقة ماثلة يجب ان نتشبع بها، لنقف على تمام فلسفة الزكاة، ومدى الدقة والحكمة في تشريعها، تلك هي المقارنة بين الزكاة والضرائب الوضعية .

وقبل تلك علينا ان نعرف فلسفة الضرائب، والهدف المنشود من ورائها، وذلك هو الاحتفاظ بتوزيع ثروة الشعب على افراد الشعب توزيعا عادلا، في نطاق تكافؤ الفرص، وصيانة حق الحياة للجميع، وحيث ان طبيعة الثروة ان تتكدس في جانب، وتتقلص عن جانب، تبعاً للعجز المؤقت او الدائم: العجز البدني او الفكري حيث ان طبيعة الثروة وتكافؤ الفرص، يبعثان على اختلاق ثروة عاتية الى جانب فقر ذريع، وجب ان تؤخذ من الاموال المتضخمة – فقط – حصص لمعالجة هذه المشكلة، وتأمين الحاجات الناتجة من العجز فقط وايضا لتأمين الحاجات العامة، والمشاريع الحكومية العامة التى تمثل مطاليب مجموع الشعب ...

فأذن تختصر فلسفة الضرائب في تأمين حالات العجز، وتأمين الحاجات العامة. هذه هى النقطة المركزية في فلسفة الضرائب ولا غير .. فلننظر هل الضرائب تؤدي هذا الهدف المنشود منها؟ ام انها اغلال فرضت على الشعب دون ان تحمل فكرة، او تنتج هدفا ؟ وهل الزكاة ادت مسؤوليتها كاملة؟ او ابهضت بحملها .؟؟.

تكفينا الجواب عن كل ذلك جولة مع التاريخ في شعوب الزكاة وشعوب الضرائب الوضعية :

يحدثنا التاريخ ان امير المؤمنين عليه السلام كتب الى عامله عثمان بن حنيف «...**ولعلّ بالحجازأو اليمامة من لاطمع له في القرص ولاعهد له بالشبع...**» . وذلك يدل على ان امير المؤمنين عليه السلام كان واثقا من عدم وجود الفقر في ما سوى هاتين المنطقتين، في الوطن الاسلامي الكبير ..

ولقد ارسل والي الصدقات بأفريقية الى عمر بن عبد العزيز يقول له: لم يبق فقير محتاج في افريقية، وبيت مال الصدقات ممتلئ، فارسل اليه عمر بن عبد العزيز ، يأمره بان يسدد الديون عن الغرماء، فسدد الديون عن المدينين، ثم ارسل الى عمر ايضا بأنه ما زال بيت المال يغص بالصدقات ، فارسل اليه عمر، ان يشتري بها العبيد، ويعتقها، حتى اذا فعل ذلك لم تنفد الصدقات، فوجهها الى عمر نفسه ...

ثم ان تاريخ الاسلام كله لم يسجل انسانا واحدا مات من الجوع فقرا .. كل ذلك رغم ان منابع الثروة – في بدء الاسلام - لم تكن بوفرتها اليوم، وانما كانت ركيزة بيت المال الزكاة فقط .

اما الخمس والجزية والخراج و ... فلم يكن لها الا دور ضئيل، ومسارب معينة، فكانت الزكاة وحدها تنظم الحياة الاقتصادية العامة، رغم ان المجتمع الاسلامى – ذلك اليوم – كان في دور الطفولة، وكانت تختلف فيه عملية الهدم والبناء، وكان الترميم الاقتصادي يقوم على انقاض الفوضى الجاهلى او الفارسى او الرومي ، وفي مثل هذا الدور يصاب الاقتصاد بتشنج واضطراب مربك وكان الاقتصاد الاسلامى يسخر من هذه العراقيل والصدمات المعاكسة، ويهزأ بالحروب الطاحنة التى كانت تشنها اعداء الاسلام على المسلمين، وكانت جديرة بأن ترتبك بها الحياة الاقتصادية الناشئة على أسس جديدة لم يمارسها الشعب الا منذ فترة الانتقال، من الفوضى الملون الى الاسلام ... اضافة على الانحصار الاقتصادي، الذي طوق الجزيرة ، من جراء قطع العلاقات مع الدول

القوية، المحدقة بها، وأولئك الزعماء المترفون الذين كانوا يبددون الملايين .. والملايين .. بين عشية وضحاها[١] ويخصصون خراج دولة بكامله لجارية[٢] ويبعثرون مئات الالوف بين الشعراء[٣] والفتيان والغلمان .. كل هاته الضربات النابية لم تهد في كيان الاقتصاد الاسلامى، بل صمد امام هذه المعاول، واجتاح المعاول، دون ان يتأرجح بنفسه، وذلك ما يكشف عن تركيز، وأصالة فائقة في هذه الضريبة الاسلامية (ان صح التعبير): الزكاة .

اما تاريخ الضرائب الوضعية ، فهى تشهد مصارع عشرات الألوف من الفقراء الذين يموتون جوعا وعريا، كل عام ... وهذا اقوى حجة على فشل نظام الضرائب .

ثم ان موارد الدولة - بما فيها الضرائب - يجب ان تسد الفراغ الهائل بين الطبقات، ويكشح البلاء الفاغر للبشرية جمعاء، ويكمل النواقص في الحاجات العامة، وذلك ما لا يكون، وحتى ان الضرائب لا تستطيع ان توقف مآسى الاقتصاد عند حدها، فنحن نرى النواقض تتزايد، والطبقات تقسو، والفقر يتأزم، يوما بعد يوم .. وهذا دليل اخر على فشل نظام الضرائب ..

---

(١) صنع محمد الامين للهواء سفينتين احداهما على صورة الاسد والاخرى على صورة النمر، بثلاثة ملايين من الدنانير.

(٢) خصص الرشيد خراج مصر كراتب اضافي لزوجته زبيدة.

(٣) ابو اسحاق المغني مدح الامين ببيتين من الشعر، غنى بهما امامه فوهب له مليون دينارا. ومن قبل ذلك مدح الرشيد بقصيدة فأجاز بـ ٦٠٠ الف دينار.

ثم ان دول الضرائب تحتجز كثيرا من موارد الثروة المشاعة للجميع على قدر حاجاتهم، ثم تبيعها عليهم . وذلك مورد ثري يتورع عنه الاسلام ورغم ان الزكاة ليست الا ١٠ ٪ او ٥٪ في الغلات الاربع وما يتراوح بين ٢٪ - ٣٪ في سائر الاشياء .. ومع ذلك ينهض الاسلام بكفالة شتى الضمانات الاجتماعية والفردية .. والضرائب التصاعدية ربما تبلغ ٩٦ ٪ ، والضرائب تفرض على كل شيء، حتى على الارث، وعلى الاموال التى تعبر الحدود بأسم ضرائب الجمارك والمكوس، وربما تتكرر على البضاعة الواحدة كلما انتقلت من يد الى يد ..

والضرائب – مهما كانت صورها – توجب الغلاء، لان التاجر او المستورد، او صاحب رأس المال، يقدر: انه يجني من بضاعته ربحا معينا، لا يتجاوز ٢٠٪ - مثلا – فاذا فرضت الضريبة على تلك البضاعة، بنسبة ٨٠٪ فانه لا يلغى ربحه، وانما يضيف الربح والضريبة على أصل رأس المال، فيبيعه بضعفى الثمن العادل لهذه البضاعة ..

أما الزكاة فانها تفرض على الناتج – في الغلات الاربع – بعد إخراج سعر البذر، وأجرة الارض، وسائر التكاليف – كما هو المشهور – فلا توجب الزكاة ارتفاع الاسعار، وانما تقلل قسما ضئيلا من الناتج، فلو كان المأمول ان تثمر النخيل ١٠ اطنان من التمر، فان الزكاة تجعله ٩ اطنان ..

تعاليم للجباة:

والاسلام – بنظراته العميقة الواعية – يرى ان استخدام العنف والقسوة في جمع الزكاة، عجز وهروب مواجهة الحقائق الراهنة، فان الزكاة إنما فرضت

لتكميل النواقص، وتلك النواقص غضبات الفقراء الثائرة فعندما يحاول الاسلام إطفاء تلك الغضبات يجب ان لا يلهب مكانها غضبات اخرى، هي غضبات الاغنياء، لان الزكاة اذا اخذت منهم بالعنف والارهاب فسوف تثور حفائظهم، ولا يقفون مكتوفي الايدي تجاه التعذيب والارهاق. لذلك يكتفى الاسلام بأن ينذر مانع الزكاة بعذاب الله الاليم وحسب، ثم يفوض اليه الامر فله ان يتولى بنفسه اعطاء الزكاة الى من شاء من الفقراء، او ان يدفعها الى جباة بيت المال ليوزعه الامام او نائبه كما يرى، فاذا جاء الجابي الى صاحب الغلات او النقدين او الانعام عرض عليه اخرج الزكاة، فلو قال: ليس في مالي زكاة، صدق، وان اعترف ان في ماله الزكاة، لكن اعتذر بأنه سيدفعها الى الفقراء، او دفعها من قبل، قبل كلامه ...

كما نجد هذه التعاليم الحكيمة في كلام على امير المؤمنين عليه السلام، فعن ابي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «بعث أمير المؤمنين عليه السلام مصدقا من الكوفة إلى باديتها،فقال له: ياعبد الله انطلق ، وعليك بتقوى الله وحده لا شريك له، ولاتؤثرن دنياك على آخرتك، وكن حافظا لما ائتمنك عليه، راعيا لحق الله فيه، حتى تأتي، نادي بني فلان ،فإذا قدمت فأنزل بمائهم، من غير أن تخالط أبياتهم ،ثم أمض إليهم بسكينة ووقار حتى تقوم بينهم ، ثم قل لهم : يا عباد الله ، أرسلنى اليكم ولي الله ! لآخذ منكم حق الله في اموالكم ، فهل في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه؟ فإن قال لك قائلا : لا ، فلا تراجعه !! ، وإن أنعم لك فهو منعم فانطلق معهم ، من غير أن تخيفه ، أوتعده إلا خيرا ، فإذا أتيت ماله ، فلاتدخله إلا بإذنه ، فإن أكثره له ، فقل : ياعبد الله أتأذن لي في دخول مالك ؟

فإن أذن لك فلا تدخله دخول متسلط عليه فيه ، ولاعنف به ، فاصدع المال صدعين ، ثم خيره أي الصدعين شاء ، فأيها اختارفلا تعرض له !! ثم أصدع الباقى صدعين ، ثم خيره ، فأيها اختارفلا تعرض له ، ولاتزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله ، فإذا بقى ذلك فاقبض حق الله منه ، وإن استقالك فأقله ، ثم اخلطها ، واصنع مثل الذي صنعت أولا حتى تأخذ حق الله من ماله..».

بالله عليك ! هل يوجد في الضرائب على وجه الارض كهذه الضريبة – لو صح التعبير - ؟ وهل في شرق الارض وغربها دولة تعترف بكرامة الافراد ، كأعتراف الاسلام بها، ان الغني الذي عليه الزكاة إنسان تحمل المصاعب، واهدر الجهود السخية، حتى استطاع ان يحصل على مال فائض، تفرض فيه الزكاة، فالزكاة اذن ليست الا شطرا من كده وعرقه، واضافة على ذلك فهو واحد من افراد الشعب، الذين وجدت الحكومة لحماية مصالحهم، فليس من الصحيح ان يعنف في اعطاء الزكاة. وهو مصدق لو قال: اخرجت زكاة اموالي ، لانه مؤمن بالله والدار الآخرة، والاسلام قد ارهف عواطفه، حتى ان يتطوع بحر امواله في سبيل الله، فهو مصدق في كل ما يقول...

وبعد ذلك فالاسلام لا يسمح لاحد ان يبتز حقوق الفقراء ، فلو تمرد شخص على فريضة الزكاة، وابى ان يدفعها، يشهر الاسلام سيف العذاب في وجهه، ويذيقه حرارة الحديد في الدنيا قبل الاخرة. ولكن الاسلام في تلك التعاليم يحاول ان يربي المجتمع على الامانة، والصدق ، ولذلك لا يبتدر باتهام

الناس بالكذب، والخيانة، حتى يقرروا على انفسهم هذه الجريمة البشعة، فينطلقوا في الارض بتكرارها، وتحقير الجرائم في اعين الناس، فالاسلام يحاول ان يبرز الجرائم في صورة نكراء يستقذرها الجميع، كي لا يرتكبوها، اما اذا علموا : انها جريمة يمارسها كل فرد يسمحون لانفسهم بارتكابها.

الخمس

مصادر الخمس:

سبعة اشياء تستدرك ما ليس فيه زكاة .. ومقداره عشرون بالمائة وهو اضخم بكثير من اموال الزكاة!.

الموارد السبعة:

أ- غنائم الحروب ... وما تخلفه جيوش الكفر في ساحات الحرب وميادين القتال .. سواء اكانت من المنقولات : التى يحويها العسكر ام من العقارات : تنهزم عنها المشركون!.

ب- المعادن : التى يتصرف فيها المسلمون.. متى زادت على خمسة عشر مثقالا صيرفيا من النضا ... من غير فرق بين ما كان منها على سطح الارض: كالملح. الياقوت. الزبرجد . العقيق. الكحل. او في بطونها المغلفة: كالبترول. الغاز. الزفت. الكبريت. المرمر... يخرج الخمس من الفائض الصافي بعد استثناء جميع تكاليف الحفر والاذابة ، والعمال المهندسين..!.

ج- الكنز .. من الاموال: التى تدخر تحت التراب.. او في الاسطوانات والسقوف، للحفظ من الاقارب الفاجرة واللصوص الزاحفة حتى يموت عنها المالك، وتختلف عليها الايدي، وتمحى الآثار، او كانت في الموات، حيث لا يستدل على مالكه بشيء...اما اذا كانت عليها علامة الاسلام، او كان للارض ملاك، فيجب المراجعة اليهم، حتى يعلم بعدم وجود مالك شرعي لها!.

د- ما يستخرج من الارض بالغوص : كاللؤلؤ . المرجان . العنبر . اذا بلغت قيمته الدينار!.

هـ - المال المختلط بالحرام.. فيما اذا لم يعلم مقدار الحرام، ولا ملاكه الشرعيون، وعند احتمال معرفة المالك الشرعي يجب الفحص حتى اليأس!.

و – العقار : الذي يشتريه الذمي من المسلم!.

ز – الفائض من ارباح، بعد اخراج جميع النفقات الواجبة عليه، لنفسه وعياله ... بل والتكاليف المستحبة والمباحة ... ومصارف الحج والاسفار غير المحرمة .. ومختلف انواع الزينة والكماليات، ما لم تكن من الترف والتبذير!.

توزيع الخمس:

تقرر الآية الكريمة ذلك:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[(١)].

فهو اذن يوزع ستة اقسام : ثلاثة لله وللرسول ولذي القربى، وجميعها ترجع الى الامام ومن بعد الى نائبه الخاص، ثم العام.. يصرفها في شؤون المسلمين... والثلاثة الاخيرة، لليتامى والمساكين وابن السبيل، من ابناء هاشم ..

ومتى قصرت حصصهم عن كفاءاتهم، سده الامام عليه السلام من حقه.! واذا زادت تلحق بحصة الامام عليه السلام في تأمين المصالح العامة.

---

(١) الأنفال: ٤١.

الجزية:

والاسلام يفرض الجزية على اهل الكتاب : اليهود ، والنصارى، والمجوس : الذين هم في بلاد الاسلام، ولم يسلموا! ولكنهم يحتمون بالحكومة الاسلامية ! .. فالاسلام يفرض على الرؤوس أوالاراضي مقدار من المال – بإسم الجزية – وليس لها حد محدود، بل هو موكول الى رأي الامام عندئذ ! يقرره على وفق المصالح المشتركة بين المسلمين ،

وتلك بدل عن قيام الدولة الاسلامية، بمصالحهم، وكف الاعتداءات عنهم! فالاسلام يقوم بواجبات المسلمين والذميين على حد سواء! فياخذ الزكاة من المسلمين، والجزية من الذميين ... فالاسلام انما يأخذ الجزية لصرفها في مصالح انفسهم .. فله الفضل عليهم في ايوائهم، ودفع الاذى عنهم، من الخارج والداخل ... وهذا النوع من المحافظة على الاقليات ما لم يعرفه العالم .. لا قبل الاسلام ولا بعده! مع ان اهل الكتاب كانوا من الدّ اعداء الاسلام في بدء انبثاق الدعوة . حتى اليوم اصبحوا قذى في عين المسلمين : يكيدون لهم من الف باب..!

الانفال:

(**ويسئلوك عن الانفال! قل : الانفال لله والرسول...**) والانفال ملك للنبيﷺ ثم للامام من بعده.. والنبي والائمةعليهم السلام لا يستاثرون بشيء من اموالهم حتى يفرقوه بين المسلمين، او يوفروا به على بيت المال..! والأنفال خمسة:

١ – الاراضى : التى يملكها المسلمون، دون ان يرجعوا عليها بخيل ولا ركاب ... ولكن صولحوا عليها من غير زحف وقتال .! او ابخل اهلها وسلموها للمسلمين رهبة اوطواعية..!

ب – الاراضى الموات القاحلة الجرداء: التى ليست عليها يد، من الفيافي والمفاوز والقفار.!

ج – شواطىء البحار.

د – رؤوس الجبال، وما بها من معادن وكنوز!

هـ – بطون الاودية والآجام وما فيها...

غير ان الائمة عليهم السلام أباحوها –في غيبتهم– لشيعتهم ...

مال الخراج:[١]

ان الاراضى المفتوحة عنوة وبالسيف، تعتبر ملكا مشاعا لجميع المسلمين، حتى يوم القيامة.! ويمثلهم النبي صلى الله عليه وآله ثم من بعده الامام عليه السلام وفي وسعه ان يؤجر السواد والبياض بما يراه مصلحة .. كما فعل النبى صلى الله عليه وآله بخيبر ، حين فتحت، فاعطاها اليهود بالنصف في الحاصل.!

---

(١) نشرت بنود من هذا الكتاب في نشرة (اجوبة المسائل الدينية) التي تصدرها لجنة الثقافة الدينية في كربلاء الدورة الثالثة العدد الثاني عشر، وهي كل من العناوين: (مال الخراج. المقاسمة. وظائف بيت المال الهبات الصدقات غضبة وتشكر . حكمة الصدقات صدقات شتى).

هذا هو الخراج ويسمى ايضا بـ(قبالة الارض) فالخراج والقبالة تكونان على الارض اليابسة البيضاء، والبساتين والمزارع ..!

المقاسمة:

وتكون في الارض المفتوحة عنوة – مثل الخراج – ولكن الامام يؤجر الاراضى الزراعية، بقسمة معينة من الحصيد ..! والخراج والمقاسمة إنما يكونان بدلا من الزكاة. ! اما اذا اسلم أهلها عليها – كالطائف – فهم يدفعون الزكاة فقط .! اما الذين لا يطالبهم الاسلام بالزكاة، وهو مسؤول عن تأمين حاجاتهم الجماعية، فيطالبهم بالخراج والمقاسمة، لصرفها في نفس مصالحهم، في اطار مصلحة المسلمين، كما ينص عليه النبيﷺ بقوله : «..**لا يجتمع خراج، وعشر- – زكاة – في ارض مسلم**» تلك هي موارد بيت المال..! اما

وظائف بيت المال:

فهى نفس تلك الثمانية: التى بيناها – آنفا – في مصارف الزكاة وهى .. إعالة الفقراء . والمساكين والموظفين وابن السبيل . والمؤلفة قلوبهم . وإطلاق الغارمين وفي الرقاب .! وفي سبيل الله، وتلك كلمة تنطبق – في كل عصر- ومصر- – على الصالح العام، وتشمل بناء الثغور والثكنات، وتشييد محاكم ومدارس، واستيراد المصانع والمعامل، وارسال البعثات العلمية، واللجان والوفود لجمع المعلومات الحديثة، وانشاء القواعد، وتهيئة العتاد، وتعبئة اللوازم لمكافحة المرض، والمجاعة ، والطوفان، والفيضان، والزلازل.. وكل شيء يكون من صالح المسلمين ..!

محاربة الفقر والرأسمالية:

من ذلك كله .. تبدو طريقة الاسلام في مكافحة الفقر والرأسمالية صريحة صارخة : لا تشوبها الغياهب والتمويهات .. فان تلك الموارد : التي حرمها الاسلام الربا . الاحتكار . المكاسب الحمراء . هى العلقات : التى تمتص دماء الشعوب بصمت وصمود .. لتفرغها في كؤوس المترفين مرة واحدة .. ولولاها لا ينشب الفقر ولا تتزايد الرأسمالية!

ومن بعد ذلك الحقوق الشرعية الستة : التى يجبيها بيت المال من المثرين، ليضيفها على المساكين، كفيلة بتحقيق العدالة الاقتصادية الى حد بعيد ..!

ولكن الاسلام يفقه : ان الشاب اليقظ الملي لو استخدم جميع مواهبه، واستنجد بطاقات غيره، في سبيل التجارة خمسين عاما، لحصل على ثروة ربما يخل بالتوازن المنشود، فيلزم بحكم العدالة الاقتصادية: تأسيس:

نظام الارث:

فانه من العوامل الدائبة على توزيع الملكيات الكبرى، وتحطيم كتلتها. اثلاثا، وارباعا، واسداسا، واثمانا ..

واول ما يلاحظ الاسلام في تقسيم التركة : ان يجعله اجباريا بالنسبة للوارث والمورث ..! فليس للمورث سلطان على ماله بعد وفاته، ليعمل بنظرته الطائشة، في ايثار البعض، وحرمان الآخرين، حسب ما تقتضيه احقاده الثائرة وافكاره الهوجاء ساعة الاحتضار..! وحتى معاملاته الغبنية - في مرض الموت - تعتبر باطلة، لانها - كثيرا ما - تلاحظ فيها المصالح والمفاسد الشخصية، وتنبعث

لتناقض التوريث الشرعى ! الا في الثلث فللمورث السلطة عليه، ليتدارك تقصيرا دينيا او دنيويا فإنه – في سورة حياته – ويحاول الان استدراكه .

وكذلك الوارث ليس له الحق في ان يطلب الزيادة من حقه.. انما هو ملك مقدر، فعليه ان يقبلها طوعا او كرها .!

ويتولى الحاكم الشرعي توزيع التراث كله – ان لم يوص – والثلثين – ان اوصى – بموجب المقررات الشرعية، على نحو لا تخرج التركة عن نفس الاسرة.. الا اذا لم يكن هناك وارث فامواله تنتقل الى بيت المال لجميع المسلمين .

ويولى على حصص الاطفال والسفهاء، وغير الراشدين – من نفس الاسرة او غيرها – من يتولى التصرف على غبطة المتولي عليه، بارشاد الحاكم، ورقابة الناظر..!

توزيع التركة:

ويقررالاسلام توزيع التركة على فكرة دقيقة عميقة: لم تستعد الامم الاخرى – بعد – لان تتلقى عنه هاته الحكمة ..! فبعض دول اليوم تأخذ من مجموع التراث ٨٠٪، والبعض الاخر ٨٥٪ ، والثالثة ٩٥٪ثم يقسم الباقى في الورثة بقانون جائر مضطرب .. او يستأثر به الولد الاكبر فقط – كما كان من رسم الجاهلية – .! وذلك ما اثار حزب العمال الانجليزي على ان يطالب في برنامجه الاشتراكى : بتطبيق نظام الاسلام في المواريث ! واخذت الدولة السوفياتية تطبق ما يشبه نظام الاسلام في التراث بعد استثناء حصص الدولة .

وتعتمد الفكرة الاسلامية في توزيع الارث على ثلاثة دعائم .

١- ايثار الاقرب الى المتوفي على غيره ، مع ملاحظة تفتيت الثروة فعمود النسب اقرب من الحواشي .! فالاب والام والزوجة .. والاولاد واولاد الاولاد – الاقرب فالاقرب – دون تفرقة بين الصغير والكبير هم الطبقة الاولى .! فان فقدوا جميعا تأتي نوبة الطبقة الثانية، وهم الاجداد والجدات – الاقرب فالاقرب – والاخوة والاخوات ، فان فقدوا فالطبقة الثالثة .. وهم الاعمام والعمات، والاخوال والخالات وهكذا ...

ب – ملاحظة الاحتياج الى المال –نوعا – ولعل ذلك هو السر في زيادة نصيب الاولاد على حصة الابوين – فالاولاد لا يأخذون اقل من النصف، عندما الأبوان لا يأخذان اقل من الثلث – فالغالب في الابوين : ان يكون لهما من فضل المال ما يتقوتانه ... وحاجاتهما ضئيلة جدا، وهما يستدبران الحياة .. بخلاف الذرية الضعاف الذين يستقبلون الحياة بحاجاتهم الكثار، من ضرورات التعليم والولي وعدم الكفائة .. وذلك ما جعل للذكر ضعف الانثى .! فالذكر يطالب بعيشه وعيشة نفر – في الغالب – والانثى مكفولة للاخرين .!

وهذه الملحوظة تجعل الحبوة - : وهى مختصات الاب – لبكر الذكور، جزاء لما تقع عليه من قضاء فوائت الاب : كالصلوة والصيام وتكاليف الاسرة التى يصبح لها أبا ..!

ج – عدم الاستئثار في جانب ، والحرمان في جانب، فليس الميراث للولد الاكبر فحسب .! ولا للابناء دون البنات .! ولا للاولاد دون الاباء والازواج .!

خاتمة

هذه لمحات عجلى .. من اقتصاديات الاسلام، اقتطفناها بنظرات عابرة .. كنماذج : تحكى الجم الرحيب .! لنقايسها بشتى الاقتصاديات السائدة – في انحاء العالم – هل فيها ما يعادل هاته الافكار العادلة .. ؟ ام انها – جميعا – رملة ميثاء، الى جنب مسابح النجوم .؟؟ والقارىء هو الحكم .! وضميره الرقيب .! شريطة ان لا يجرفه الجلب، والضوضاء !!!

نهاية المطاف:

ان مهمة النظام الاقتصادي – أيا كان – أن ينشط في الشعب روح استغلال منابع الثروة، واستنفاذ الخامات والطاقات المعطلة الدفينة ، ثم يوزع مجموعة الثروات، على مجموع الشعب، بصورة عادلة، وطبيعية – في نفس الوقت – حتى لا ينقسم المجتمع الى طبقات متباينة، بل يكون اشبه بالطبقة الواحدة، دون ان يتوسل النظام في سبيل ذلك، الى العنف والارهاب، بل يوقظ في جميع الافراد حب العمل، ومجافاة الترف، ويحسن توجيه الناس، حتى يسيروا بأنفسهم على الخطة المرسومة لهم، دون اي مسير يرغمهم على الانسلاخ من طبائعهم وعواطفهم .. اما النظام الذي يضطهد الشعب ليتبع خططه وبرامجه، فهو نظام فاشل، لن يكتب له الخلود لان النظام الذي يقهر الشعب كل الشعب على معاكسة طبائعه، لا يكون موضع التقديس ومصب الحب والاجلال، بل يعرفه الناس عدوهم الوحيد فلا يتوانون عن محاربته، والنظام الذي يقاومه الشعب كله، ولا يتمتع بولاء الجماهير لن يستطيع من الاستمرار في تنظيم الاجتماع، ويتحطم على صخرة الحقائق في اقرب فرصة سانحة تتخلى عنه القوة .

تلك هى قضية النظم الاقتصادية، فما كان منها منتزعا من واقع الاجتماع، ومنسجما مع طبائع الاشياء، فهو النظام الصحيح الذي يصلح لتنظيم الحياة الاقتصادية، وما كان منها نسيج احلام واطماع افراد حاقدين من اعداء الانسانية والشعوب، فهو نظام فاشل: يفسد ولا يصلح . لان الفشل في النظام لا يعنى عجزه عن السيادة والسيطرة، فربما يكون النظام فاسدا يقاومه الشعب بمختلف عناصره ودوافعه، ورغم ذلك يسود طيلة سنين، بواسطة استخدام القوة وخنق الاصوات الناقمة المتحدية له، ولكن سرعان ما تشيب القوة، فيذوب النظام تحت غضبة الشعب ولعائنه الهادرة .

فمقياس النجاح في النظم الاقتصادية، ليس الا كونه مستلهما من واقع الحياة الاقتصادية، وقادرا على معالجة مشكلة الطبقات واصهارها في طبقات متقاربة – لا تمايز بينها الا باختلاف الاعمال والافكار – بكل عفوية ومرونة حكيمة . وبالتالي ان لا يدع الثروات تتضخم في جانب وتحسر عن جانب فيصاب الاغنياء والفقراء بأوبئات اوهنها الانتحار والاغتيال .

وبعد ما اتفقنا: أنا وأنت على هذه الحقيقة نستطيع ان ندرك مدى الفشل في النظم : الاقتصاد الراسمالي، والاقتصاد الشيوعى، والاشتراكى الروسى اللينينى، والاشتراكى الفاشى، والاشتراكى النازي، والبعثى ، والديموقراطى، والبريطاني، والهندي، وسائر الاشتراكيات المختلفة الفاسدة فانها – جميعا – لم تقدر على الغاء الطبقات، وتوزيع ثروات البلاد على كل فرد فرد، توزيعا عادلا حسب معدل عام، قوامه تكافوء الفرص، وتعادل الجهد والجزاء بل ظلت

الكثرة الهائلة من الطاقات معطلة، تولد وتموت وتقبر في الارض، دون ان يستغلها النظام، وبقيت الثروات – كطبيعتها الاصيلة – تقلص ذيولها بسرعة خيالية، عن الاسواق والايدي والافواه لتنكمش وتتكدس في المخازن والبنوك والقاصات، تحت أيدي افراد معدودين هم الاغنياء في النظام الرأسمالي، والحزب الشيوعي في النظام الشيوعي والاشتراكي الروسى، وافراد الدولة في سائر الاشتراكيات.

واضافة على ذلك كله لم تستطع هذه النظم ان نفتح طريقها للتطبيق الا بإلغاء الاديان والاخلاق، واباحة الفساد والاستهتار والمجون، وتحطيم الاسر باستخدام النساء والاولاد، واستعمار البلاد الآمنة الوديعة، واشعال نيران الحروب ... كما تكشفت هذه الحقائق في ذلك العرض الموجز لتلك النظم، وما اصاب المجتمع من مآسي وويلات ...

أما الاقتصاد الاسلامى فهو النظام الوحيد الذي استطاع – بكل هدوء وحكمة ورزانة – ان يوجه الشعب توجيها راشدا، يحفزه على استخراج الطاقات وإثارة المواهب والصلاحيات، وتوزيعها على مجموع الافراد : فردا فردا، توزيعا عادلا عفويا طبيعيا، حتى لم يبق في الدولة الاسلامية الرحيبة، فقير يقبل الصدقات ، فانهارت الطبقات بنفسها، واصبح المجتمع الاسلامى الكبير اشبه بالطبقة الواحدة رغم ان الاسلام بنفسه دين، واقر سائر الاديان – في نطاق عادل – وحث على الالتزام بالاخلاق والفضائل، وحرر النساء عن العمل المضني خارج البيت، واعفى الاولاد لينطلقوا في حياة الطفولة، حتى يرشدوا

ويبلغوا اشدهم، وتفتل عضلاتهم المفعمة قوة وحرارة، وشوقا الى العمل .

كل ذلك دلالة مجردة على فساد وفشل النظم الاقتصادية الحاضرة والبائدة كلها، ونجاح الاقتصاد الاسلامي، وصلاحيته للعودة الى الحياة التطبيقية.

حسن السيد مهدي الشيرازي

كربلاء ١٣٨٠هـ

إعتذارات

كان من المقرر أن ننشر كتاب : الاقتصاد ، والاسلام أمل الشعوب ولا سلام إلا في الاسلام في غلاف واحد هذا وقد كتبت في الإقتصاد الاسلامي مقالا فأدليت قسما منه الى الطبع على ان أتمه ككتيب لا يتجاوز الثمانين صحيفة وكان ذلك قبل دراستي للإقتصاد دراسة عامة فكانت الدراسة والكتابة في وقت واحد ، حتى أصبح الكتاب هذه الصحائف ، التي لم تترك مجالا للكتابين الاسلام أمل الشعوب . ولا سلام الا في الاسلام ولعل الله يوفقنا لنشرهما في وقت قريب . وقد صادف تأليف هذا الكتاب فترة مزدحمة بالمعاكسات والاحداث والأرزاء ، فقد قارن فترة الثورة ، وويل للأبحاث الموضوعية الدقيقة من الثورة . هكذا كان يمر على الاسبوع تلو الاسبوع دون ان أضع حرفا على ورق . وقد كانت المطبعة تباريني في الطبع ، وأباريها في الكتابة ، رغم إنها كانت تفوز علي ، فكنت متى سنحت لي الفرص أكتب بعض الصحائف عفو القلم وجري الخاطر ، ثم أدلي بها الى الطبع من توه ، ولست أحاول ان أبرهن بذلك على شيء وإنما أريد ان افتح الباب على مصراعيه للناقدين ، كي لا يتهيبوا الموقف .

المؤلف

تم بحمد الله

من المصادر

القرآن الكريم

نهج البلاغة ....

البحار................................ الشيخ محمد باقر المجلسي

وسائل الشيعة................................الشيخ محمد حسن الحر العاملي

مستدرك الوسائل .... الميرزا محمد حسن النوري

رأس المال ج١..كارل ماركس

رأس المال ج٢..كارل ماركس

رأس المال ج٣..كارل ماركس

البيان الشيوعي ....كارل ماركس وفردريك انجلز

الاشتراكية بين الخيال والعلم ....فردريك انجلز

الدولة والثورة...لينين

حول دور النقابات ومهماتها ....لينين

مرض الطفولة في الشيوعية ....لينين

حركة التحرر الوطني في الشرق...لينين

أسس اللينينية ....ستالين

المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ....ستالين

بيان اللجنة المركزية الشيوعية في المؤتمر العشرين.......................خروشوف

الأرقام التوجيهية لتطوير الاقتصاد الوطني ....

في الاتحاد السوفييتي لأعوام ١٩٥٩-١٩٥٦م.........................

الحكومة الاتحادية ....ماتوسي تونغ

الزراعة السوفيتية .... أنيسيمون

دستور الاتحاد السوفياتي ....

التعاليم الشيوعية ....

النظام الشيوعي .... ماهر نسيم

الاشتراكية العملية نشوئها وتطورها .... إبراهيم حداد

المذهب الاقتصادي بين الشيوعية والاسلام .... محمد سعيد رمضان البوطي

النظام الاقتصادي في الاسلام .... تقي الدين النبهاني

أسس الاقتصاد بين الاسلام والنظام المعاصر ابو علي المودودي ....

تنقيحات .... أبو علي المودودي

الحجاب .... أبو علي المودودي

الربا .... أبو علي المودودي

رسالة الثروة المعدنية .... سعيد محمد عودة

لمحات من تاريخ العالم .... جواهر لال نهرو

العدالة الاجتماعية في الإسلام .... سيد قطب

الإسلام والطاقات المعطلة .... محمد الغزالي

الإسلام والأوضاع الاقتصادية .... محمد الغزالي

الإسلام والمنهاج الاشتراكية .... محمد الغزالي

شبهات حول الإسلام .... محمد قطب

تنظيم الإسلام للمجتمع .... محمد أبو زهرة

دع القلق وابدأ الحياة .... دبل كارنيجي

الإسلام في عصر العلم .... فريد وجدي

مشاعل الطريق للشباب .... سلامة موسى

فهرس محتويات الكتاب